الشرق الادنى فى العصور الوسطى

(١)

الايوبيون

الدكتور السيد الباز العرينى
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر



الشرق الأدنى في العصور الوسطى

الشرق الأدنى في العصور الوسطى

(١)

الايوبيون

الدكتور السيد الباز العريني
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

مقدمة

يعتبر تاريخ الشرق الاوسط ، زمن الدولة الايوبية ، التي امتد حكمها منذ سنة ١١٦٩ حتى سنة ١٢٥٠ م ، من اهم المراحل التاريخية . فما شهده الشرق الاوسط في أواخر القرن الحادي عشر الميـلادي من حركة ، تتمثل فيما هو معروف بالحروب الصليبية ، من قبل الغرب ، اتخذت من الدين ستارا لاخفاء ما تنطوي عليه من المطامع والاغراض السياسية والتجارية والاستعمارية ، ترتب عليها قيـام أربع امـارات صليبية : الرها ، وانطاكية ، وبيت المقدس ، وطرابلس .

على أن نجاح الصليبيين لم يرجع الى كثرة عددهم فحسب ، والى ما تلقوه من مساعدات من الغرب ، ومن الدولة البيزنطية ، بل يرجـع أساسا الى تفرق كلمة المسلمين . ففي الوقت الذي انطلقت فيه القوات الصليبية نحو الشرق ، لم تصادفها قوات المسلمين متحدة مجتمعة ، بل صار الصليبيون يواجهون في آسيا الصغرى والشام قوى متفرقـة وذلك لما اصاب الدولة السلجوقية ، بعد وفاة سلطانها ملك شاه سنة ١٠٩٢ من التداعي والانهيار ، بسبب التنازع على الحكم ، ونشـوب الفتن الداخلية واضطراب الامن .

وزاد من سوء الاحوال السياسية ما تردت فيه الدولة الفاطمية من الضعف ، بسبب ضعف الخلفاء ، وتنازع الوزراء على الحكم ، وكثرة

الحروب بين عناصر الجيش المختلفة ، فضلا عما اصاب مصر من كوارث اقتصادية نجمت عن انخفاض النيل مرات عديدة •

وادى العداء المذهبي بين المسلمين ايضا الى تفرق كلمتهم • فما جرى من الاختلاف بين الدولة العباسية التي تدين بالمذهب السني ، وتطابق حدودها املاك السلاجقة ، وبين الدولة الفاطمية التي تدين بالمذهب الشيعي ، وتبسط سلطانها على مصر وجانب كبير من الشام ، والساحل الشرقي للبحر المتوسط ، انما ترتب عليه ان بلغ من كراهية الفاطميين للسلاجقة انهم ظنوا ان قيام املاك الصليبين في الشام يعتبر حاجزا دون زحف السلاجقة الى مصر وضمها الى ممتلكاتهم •

والواقع أن هذه السياسة أدت الى أن يدرك الصليبيون ما بين الفاطميين والسلاجقة من العداوة والكراهية ، وكشفت لهم عن ضعف القوى الاسلامية • فأفادوا من ذلك فيما قاموا به من غارات امتدت من اعالي الجزيرة الى حدود مصر ، وفيما اتخذوه من الوسائل والاساليب لتوسيع ملكهم ، ومحاولة توطيد سلطانهم •

أدرك المسلمون آخر الامر أن الصليبيين لم يستهدفوا الا مصلحتهم الخاصة ، وانهم لم يحفلوا في غاراتهم بالتفرقة بين السني وغير السني من المسلمين ، وتطلعوا الى مد نفوذهم وسلطانهم الى خارج حدود املاكهم ، فاشتدت ثائرة من كان يليهم من المسلمين ، الذين تعرضوا لاخطارهم وغاراتهم ، فجأروا بالشكوى الى الخليفة العباسي ببغداد • ومع ذلك فان المحاولات الاولى التي جرى بذلها لرد الصليبيين وتوحيد

الجبهة الاسلامية لم تظفر بنجاح كبير •

على أن عماد الدين زنكى هو الذي وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين ، فدعا الى توحيد جهود المسلمين ، والى نبذ ما بينهم من منازعات ، ثم حشد الجهود لقتال الصليبيين • وسار على نهجه ابنه نور الدين ثم صلاح الدين •

وتحققت الوحدة الاسلامية زمن صلاح الدين ، بفضل ما أفاده من جهود سابقيه ، وبما اسهم به هو وأسرته في بناء هذه الوحدة ، وبفضل ادراكه ما للخلافة من قوة روحية في تحقيق غرضه • يضاف الى ذلك ما التمسه من الوسائل في كسب الانصار بما بذله من الاقطاعات ، وبما اتصف به من العفو عن أخطاء خصومه ، وبما جرى عليه من التزام أحكام الدين في سياسته ، فضلا عما اشتهر به من السخاء والمروءة •

على أن صلاح الدين لم يقلل من خطورة خصومه الصليبيين بل انه أدرك أنه للتغلب عليهم لا بد من جمع كلمة المسلمين ، وتنظيم الجيش والاسطول ، وتوفير الموارد المالية ، والقيام باصلاحات اقتصادية وادارية شاملة •

وأفاد صلاح الدين من تجاربه في قتال الصليبيين ، ومن التيارات السياسية المختلفة التي أثرت في أوضاع الصليبيين ، وفي كشف عوامل ضعفهم ، فاستمر على تشجيع تجارة المدن الايطالية ، واستطاع بذلك أن يحصل على ما حاجه من أدوات الحرب والقتال ، وأن يمنع الصليبيين

من استخدام جانب من السفن الايطالية في نقل الجنود الى الشـرق الاوسط .

وأدرك صلاح الدين أيضا ما بين الدولـة البيزنطية والامارات الصليبية من العداوة والكراهية ، فعمل على تحسين علاقته بالبيزنطيين ، ووقف منهم على نوايا الصليبيين ، وما أعـدوه من الخطط لمهاجمـة ممتلكاته .

وعلى الرغم من الحروب الداخلية ، التي نشبت بين أفراد البيت الايوبي بعد صلاح الدين ، وبرغم ما تعرضت له أمـلاك الايوبيين من أخطار خارجية ، مصدرها المغول والصليبيون ، فان ما اتخذه صـلاح الدين من الوسائل لاقامة الوحدة الاسلامية ، أفاد منها أخلافـه من الايوبيـين ، ومن جاء بعدهم من سلاطـين المماليك في قتال الصليبيين والمغول .

السيد الباز العريني

بيروت : رمضان ١٣٨٦

يناير ١٩٦٧

الفصل الاول

الاحوال السياسية في الشرق الاوسط

قبـــل ظهور صلاح الدين

خضع شرق البحر المتوسط وما يليه من الاقاليم الاسيوية فـــي النصف الاول من القرن الحادي عشر الميلادي لقوتين : الاولى مسيحية رمزها الامبراطورية البيزنطية ، والاخرى اسلامية شيعية رمزها الدولة الفاطمية ، ويقابل هاتين القوتـــين الخلافـــة العباسية في بغـــداد ، التي حل بها الضعف والانهيار وسيطـــر عليها البويهيون الشيعيـــون تمام السيطرة .

ثم تغيرت هذه الحالة في النصف الثاني من القرن الحـــادي عشر الميلادي ، نتيجة قدوم الاتراك السلاجقة ، الذيـــن ساعدوا الخليفـــة العباسي ، القائم بأمر الله ، على التخلص من البويهين الشيعيين ، فأضحى السلاجقة بذلك حماة السنية وعدة الخلافة العباسية ، وأداتها الحربية ، في مهاجمة أعدائها من البيزنطيين والفاطميين ، والاستيلاء على جانب كبير من ممتلكاتهم ، وتدمير ما كـــان بينهم من تحالف . وتوغل السلاجقة في آسيا الصغرى ، فأقام سليمان بن قطلمش السلجوقي مملكة شملت

جميع الاناضول وقليقية ، على حين غدت دولة السلطان السلجوقي الاعظم ملك شاه تمتد من اقليم ما وراء النهر ، الى الاناضول والشام كله ، بما في ذلك دمشق وحلب وانطاكية ٠

غير أن وفاة ملك شاه سنة ١٠٩٢ أعقبها تفكك دولته ، اذ اعلن أخوه تتش أمير الشام خروجه على بركيا روق بن ملك شاه ، ولم يعترف بسلطنته ، وترتب على ذلك وقوع الحرب بينهما ، وانتصار بركيا روق على عمه تتش سنة ١٠٩٦ م بالقرب من الري ٠ حيث لقي تتش مصرعه ، ولهذه الوقعة اهميتها في تحديد مصير الحروب الصليبية فلو ان الصليبيين التقوا بكل قوات السلطنة المتحدة التي حاول تتش اقامتها ، بعد ملك شاه لتغير سير الحوادث التاريخية ٠ انما الذي حدث فعلا فهو أن ممتلكات تتش بالشام ، تفككت بسبب ما وقع من نزاع بين ولديه رضوان ودقاق ، اذ اراد كل منهما أن يستأثر بملك ابيه وحده ، وكان رضوان يحكم في حلب ، على حين سيطر دقاق على دمشق وديار بكر والجزيرة ، وانحاز الى رضوان قبيلة كلاب العربية ، وسكمان بن أرتق التركماني صاحب سروج ، على حين انضم الى دقاق ، صاحب انطاكية ياغي سيان والغازي الارتقي ٠ ولم يلبث ياغي سيان أن تحول الى جانب رضوان ، وجرت الاستعدادات لمهاجمة دمشق ٠ وبينما الحال على هذا المنوال ، اذ جاءت الانباء بقدوم الصليبيين ، فتفرق المتنازعون ، وتوجه كل منهم الى امارته لحمايتها من الصليبيين ، وبذلك انهار ما حدث من المخالفات ٠

أما القوة الثانية التي كان لها أثر كبير فيما وقع من الحوادث

بالشرق الادنى قبيل الحروب الصليبية ، أي الخلافة الفاطميــة ، فكان قيامها بشمال افريقية سنة ٩٠٩ م ؛ ثم انتقلت الى مصر سنة ٩٧٢ م ، وأخذت من ثم تنازع الخلافة العباسية ، زعامة العالم الاسلامي فــي الناحية الدينية • وحرص الفاطميــون على الاستيلاء على بلاد الشام ليجعلوا منها قاعدة لدعوتهم الشيعية ، وحركاتهم التوسعية في أملاك الخلافة العباسية •واستطاعوا أن يبسطوا سلطانهــم بين سنة ١٠٣٨ وسنة ١٠٥٨ على الشام كله ما عدا انطاكية التي كانت وقتذاك في حوزة البيزنطيين • ثم نجح الفاطميون في اعلان دعوتهم في بغداد ذاتها سنة ١٠٥٨ . غير أن هذا النجاح الفاطمي لم يستمر طويلا ، بل أخذت قــوة الفاطميين تنحسر رويدا رويدا في العراق والشام بسبب سوء الاحوال الاقتصادية والحربية في مصر • وعلى الرغم من الحملاتالتــي أنفذها الفاطميونالى الشام لاسترداد مركزهم، فانهم لميستطيعوا أن يستعيدوا سوى المدن الساحلية حتى مدينة جبيل سنة ١٠٩٨ ، فظلــت المدن الساحلية بأيديهم حتى قدوم الصليبيين •

وتعتبر الدولة البيزنطية القوة الثالثة في الشرق الادنى ؛ على انها تعرضت قبيل الحروب الصليبية لتغييران بالغة الاهمية في تطورالموقف في الشرق الادنى • ذلك أن انتصار ألب ارسلان السلجوقي علــى الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنيس في وقعة مانزيكرت سنــة ١٠٧١ كان كارثة عظمى . اذ فقدت الامبراطورية في ساحة القتال خير ما عندها من قوات ، واستولى السلاجقة بقيادة سليمان بن قطلش على آسيا الصغرى . فخسرت الامبراطورية البيزنطية بذلك مصدرا كانت

تستمد منه معظم قواتها ، وأخذ السلاجقة يحدقون بالعاصمة البيزنطية (القسطنطينية) • ولم يبق للامبراطورية البيزنطية - حين تولى عرشها سنة ١٠٨١ م الكسيوس كومنين ، من الاملاك في آسيا الصغرى سوى سواحل البحر الاسود وبعض المدن الداخلية المتناثرة ، التي انقطعت صلتها بالحكومة المركزية • ولم يكن لدولة السلاجقة بآسيا الصغرى حكومة منتظمة او حدود ثابتة ، اذ خضعت بعض المدن لامراء اعترف بعضهم بالسلطان السلجوقي على حين اعلنت الاغلبية الولاء للسلطان ملك شاه ، وتعرضت القرى والاراضي لاغارات التركمان والمهاجرين من اليونانيين والارمن •

والى جانب هؤلاء الترك بآسيا الصغرى أقام الارمن امارات عديدة ، اهمها امارة روبين ،في قليقية الوسطى ،وامارةاوشين في قليقية الغربية ، وامارة فيلاريت التي امتدت من جبال طوروس الى ما وراء نهر الفرات • وللارمن في تاريخ الشرق الادنى اهمية كبيرة ، اذ انتشروا في شمال الشام ، وانتقل عدد كبير منهم الى مصر ، فدخلوا في الجيش الفاطمي ولهم أثر كبير في احوال الدولة الفاطمية •

وفي وسط ما حدث بالشرق الادنى اواخر القرن الحادي عشر الميلادي من مظاهر التفكك ، نشبت الحروب المعروفة في التاريخ بالحروب الصليبية ، التي شنها المسيحيون في غرب اوربا على المسلمين في الشرق لانتزاع الاراضي المقدسة من ايديهم ، واعتبروها حربا مقدسة • والواقع انه اجتمع من الاسباب الدينية والسياسية

والاقتصادية ما ادى الى نشوب هذه الحروب ، منها توجيه البابوات الفرسان لقتال المسلمين بدلا من الانصراف الى الحروب الداخلية ، ومحاولة الاستيلاء على ما بيد المسلمين من ممتلكات ، وهذا هو السر فيما نشب بين الفريقين من حروب في اسبانيا وفي جزر البحر المتوسط، وما عمد اليه البابوات من نقل هذا النضال الى العالم الاسلامي في الشرق الادنى والاستيلاء على الاراضي المقدسة • ومنها مطامع الامراء والنبلاء الذين اشتركوا في هذه الحروب ، والحرص على انشاء امارات مستقلة في الشرق ، وكشفت الحوادث عن اغراض بوهمند وتانكرد من النورمان وبلدوين من اللورين ، وريموند من تولوز بفرنسا ، في تحقيق اغراضهم بما اقاموه من امارات انطاكية والرها وطرابلس •

ولم يدفع المدن الايطالية الى الاشتراك في هذه الحروب الصليبية الا الرغبة في الحصول على منتجات الشرق ومتاجره ، ولا يتسنى لها تحقيق ذلك الا باقامة متاجر ومستودعات تجارية في الشرق الادنى والحصول على امتيازات مربحة لهم • ولا شك أن ماقامت به السفن الايطالية من بذل المساعدات الحربية للصليبيين كان من اكبر العوامل في نجاح حملتهم الاولى (١٠٩٧ ــ ١٠٩٩) •

ومن العوامل التي اجتذبت الناس للاشتراك في الحروب الصليبية ما انتشر في غرب اوربا وقتذاك من الاوبئة والمجاعات ، فتدفقت جموع المهاجرين ، واقبلت على الانضمام الى المشتركين في هذه الحروب ، ولا شك أن هذا السيل من المهاجرين الى الشرق حمل في

طياته عددا كبيرامن المغامرين والدهماء والرهبان والهاربين من الاديرة، والاقنان الآبقين من سادتهم •

وفي مجمع كليرمونت الذي انعقد في نوفمبر سنة ١٠٩٥ برئاسة البابا ، ايربان الثاني ، وبحضور أمراء من مختلف جهات اوربا ، عدد كبير من رجال الدين ، ومندوبين عن الامبراطور البيزنطي ، وممثلين للمدن الايطالية ، استطاع البابا ان يثير حماس السامعين ، وأن يدعـو المسيحيين الى مقاتلة المسلمين ، فتجاوب في ارجاء المجمع هتاف بترديد عبارة ((هكذا اراد الله)) ، وبادر الحاضرون الى اتخاذ الصليب شارة لهم • وتحددت سنة ١٠٩٧ موعـــدا لرحيـــل الصليبيين ، وتعينت القسطنطينية لاجتماع فئاتهم لترتيب خطة الهجوم على آسيا الصغرى والشام •

استطاع الصليبيون في الفترة بين ١٠٩٧ ، ١٠٩٩ ، أن يستولوا على الرها ، وانطاكية وبيت المقدس ، ولم تمض الا سنوات قليلة حتى صار في أيديهم الجانب الاكبر من فلسطين وساحل الشام ، ويعتبـر سقوط صور في ايديهم سنة ١١٢٤ ذروة قوتهم • وليـــس انتصارهم راجعا الى تفوق جيوشهم في العدد فحســـب ، بل ايضا الى انعدام المقاومة المنظمة ، وبسبب ما حدث من الحروب الداخلية بـين الامراء السلاجقة ، وماوقع بين اتباعهم من التنازع على الاستيلاء على املاك البيت السلجوقي ، ولم يكن بينهم من يستطيـــع ان يتولى قيادتهم يوجههم لقتال الصليبيين وطردهم •

وفي سنة ١١٣١ ، أي قبل مولد صلاح الدين بسبع سنوات ، كانت المملكة اللاتينيةفي اشد قوتها، اذ خضع للصليبيين جانب كبيرمن الشام واعالي الجزيرة ، وامتدت غاراتهم من ماردين وآمد في ديار بكر الى العريش ، ومع ذلك لم يبسط الصليبيون سلطانهم على كل الاقليم، فما زال في يد المسلمين المدن الكبيرة مثل حلب ودمشق وحماة وحمص • والى جانب مدينة بيت المقدس ، لم يستول الصليبيون على شيء من المدن الداخلية الا « الرها » التي لم تلبث أن سقطت في يد المسلمين سنة ١١٤٤ بفضل عماد الدين زنكي • ولم يكن ما استولى عليه الصليبيون من جهات ، وما اقاموه من امارات ، الا احتلالا حربيا لا فتحا منظما ، ولم يكن هذا الاحتلال شديد النفع • فاملاك الفرنج ، في اقصى اتساع لها ، لم تشمل الا رقعة من الارض يبلغ امتدادها من الشمال الى الجنوب نحو خمسمائة ميل ، ولا يزيد عرضها على خمسين ميلا • ففي الشمال امتدت امارة الرها الصليبية من ديار بكر الى موضع لا يبعد كثيرا عن شمال حلب ، واشتملت على اقطاعات سروج ، وتل باشر ، وسمو ساط ، وعين تاب والى غرب الرها وجنوبها تقع امارة انطاكية ، التي امتدت من نهر جيحان الى شمال حصن المرقب ، واقتربت حدودها الداخلية من حلب وحماة ، ومن اهم اقطاعاتها الاثارب ، ومعرة وافامية ، وميناؤها اللاذقية • وتقع امارة طرابلس جنوب انطاكية ، ولم تكن الا شريطا ضيقا بين جبل لبنان والبحر المتوسط ، واشتملت على المرقب وانطرطوس ، وحصن الاكراد وطرابلس ، وجبيل • وسيطر على هذه الامارات كلها ملك بيت المقدس،

الذي امتدت ممتلكاته من بيروت الـى عسقلان ، ويحدها مـن جهة الشرق وادي نهر الاردن والبحر الميت ، فضلا عن الحصون الواقعة وراءه مثل الكرك والشوبك ، التي تتحكم في طريق القوافل المتدمن دمشق الى مصر (١) •

يتبين لنا من هذا الوصف ، أن الممتلكات الصليبية لا تبعد كثيرا عن المدن والمواقع الأسلامية ، التي لا بد أن تنتقم من الصليبيين بمـا تشنه من غارات مستمرة •

على أنه لم يكد يمضي على قدوم الصليبيين ثلاثون عاما ، حتى تأثروا بالشرق ، وتطبعوا بعادات أهل البلاد الذيـن يعيشون بينهم • وأورد اسامةمنقذ في كتاب الاعتبار امثلةلماكان بين الصليبيين والمسلمين من علاقات •

والمعروف أن اسامة ولد سنة ١٠٩٥ م ، اي قبل سقوط انطاكية في يد الصليبيين بثلاث سنوات ، وامتد به العمر حتى شهد استـرداد صلاح الدين لبيت المقـدس ، اذ ان اسامة توفي سنة ١١٨٨ ، ومن ثم عاصر أسامة الفترة التي حكم فيها الصليبيون في بيت المقدس •

وبسبب موقع شيزر ، التي يتولى حكمها اسرة بني منقذ ، والتي تقع على الحدود بين المسلمين والصليبيين ، شهد أسامة ما وقـع من الاحداث ، وتعرف الى معظم قادة الحروب ، واشترك في الغارات ضد الصليبيين ، وخدم في جيش ايلغازي الارتقي ، وعماد الدين زنكي ، ورأى تانكرد اكثر من مرة حينما هاجم شيزر ، وزار فولك ملك بيت

المقدس ، وعاش عشر سنوات في كنف نور الدين بدمشـق ، وقـام بالسفارة بينه وبين الفاطميين واقام في مصر فترة من الزمن ، نال فيها عطفهم وحصل على اقطاعات وفيرة ، وكان مقربا عند صلاح الدين (٢)

ويشير أسامة الى اختلاف الصليبيين الاوائل عن الصليبيين الذين جاءوا من بعدهم ، بأن الاوائل منهم الفوا حياة الشرق ، وفترت حدة تعصبهم وعداوتهم للمسلمين ،اما الذين جاءوا من بعدهم سواء كانوا من الصليبيين او الحجاج او المغامرين ، فاشتهروا بشدة التعصب ،وازدياد الحقد والكراهية للمسلمين وكان لاسامة نفسـه اصدقاء من فرسان الافرنج ، غير انه لم يستطـــع ان يخفي سخطه عليهم ، وانكاره لما اشتهروا به من نقض العهود وعدم الاكتراث بالشرف .

واشتدت ثائرة المسلمين بسبب ما دأب عليه الافرنج من مواصلة غاراتهم على املاك المسلمين يوما بعد يوم ، فأنزلوا بالبلاد الضـــرر والتخريب ، وامتدت اغاراتهم حتى بلغت ديار بكر وآمد ، ولم يحفلوا في اثناء غاراتهم بالتفرقة بين السني وغير السني مـن المسلمين ، وفي اقليم الجزيرة امعنوا في النهب والسلب ، واشتد ظلمهـم لاهل حران والرقة ، فأذاقوهم كأس الحمام .

انقطعت السبل والطرق المؤدية الى دمشق ، ما عدا الطريق الذي يجتاز الرحبة والصحراء ، وعاني المسافرون من المتاعب والمشقة مـا جعلهم فريسة سهلة في يد قطاع الطرق من البدو ، وفرض الافرنـج الاتاوات على المدن المجاورة لهم ، وبلغت بهم الجرأة ، ان ارسلوا من قبلهم الى دمشق من يطلق سراح الارقاء من المسيحيين (٣) أما اتاوتهم

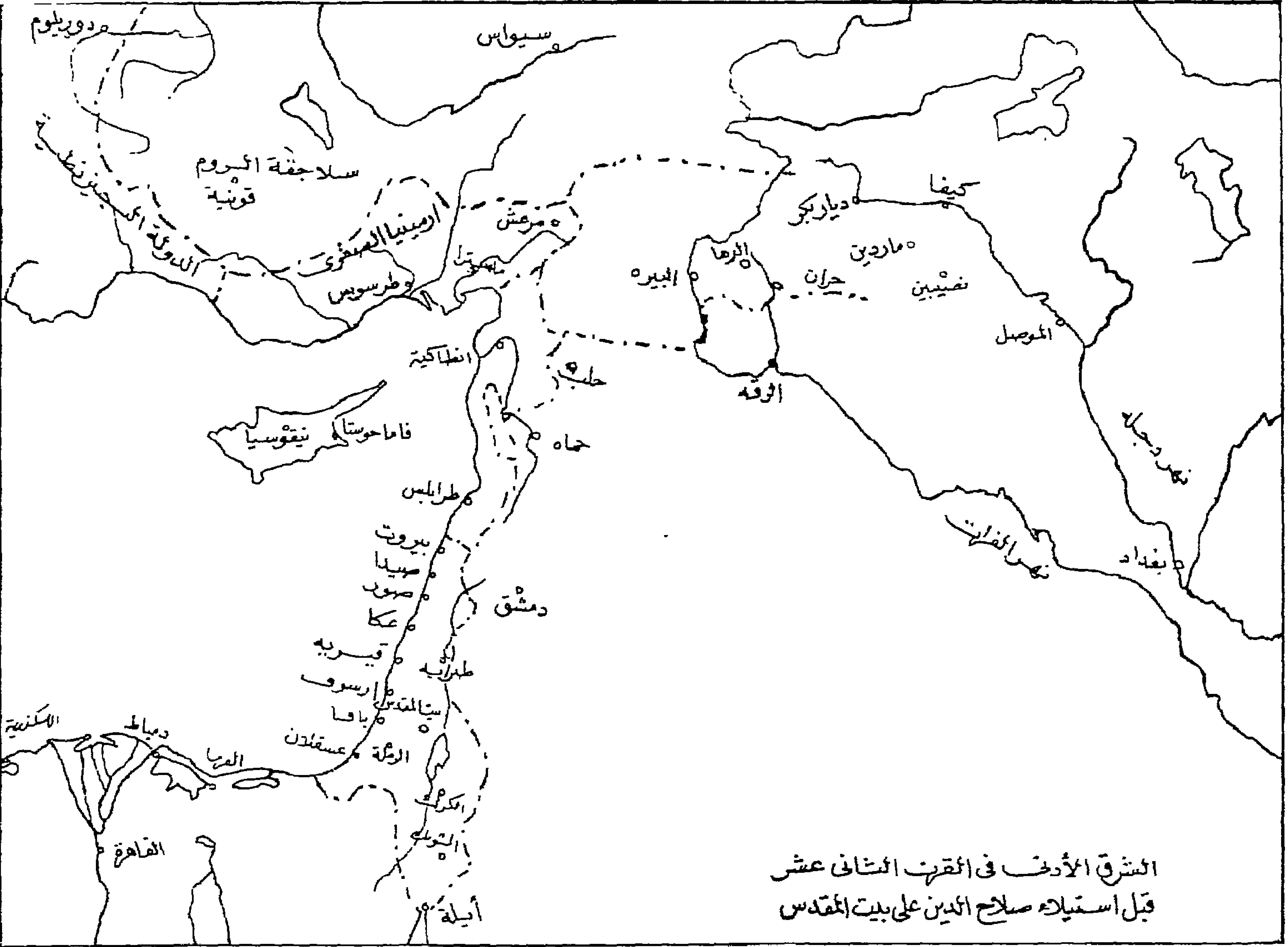
التي فرضوها على حلب فانها بلغت من الزيادة أن اصبحت تضارع نصف دخل البلاد .

اما المسلمون ، لا سيما العسكريون منهم ، على الرغم من انقسامهم وقتذاك ، وانه لم يبد منهم مقاومة فعالة ضد العدو ، فانهم بطبيعتهم وبفضل تدريبهم يعتبرون من خيرة الجنود ، فضلا عما اشتهروا به من الحماس الديني . وما كان عند السلاجقة من نظام حربي . خلق منهم امة مقاتلة ، واقترن ذلك بالحماس الديني . وكل امير من الامراء ، اجتمع حوله طائفة من المحاربين الاشداء .

ولا شك أن اقتران الحماس الديني بروح المغامرة والاقدام ، كان من اهم دوافع الجهاد الديني . غير أنه مهما كان الحافز ، فلا بد من قيام الوحدة بينهم ، وظهور زعيم يجمع شمل هذه القوى المتناحرة . ويؤلف منها جيشا مستعدا للتضحية في سبيل العقيدة والايمان . فاذا ظهر قائد يجمع الناس على احترامه لما اشتهر به من الشجاعة والعبقرية الحربية ، جعل من التركمان والزعماء (الامراء) من الترك قوى محاربة يعمل الصليبيون لها حسابا كبيرا (٤) .

كان هذا الزعيم هو عماد الدين زنكي .

كان اقسنقر والد زنكي من اعظم مماليك السلطان ملكشاه قدرا ، وأرفعهم شأنا ، ولاه ملك شاه حكم حلب . واشتهر قسنقر في حكمه بالتسامح والاهتمام بالرعية ، فصار مضرب الامثال في الاخلاص والاستقامة . ولقي قسنقر مصرعه سنة ١٠٩٦ في المعركة التي دارت



الشرق الأدنى في القرن الثاني عشر
قبل استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس

قرب الري بين بركياروق بن ملك شاه وبين عمه تتش •

اما عماد الدين زنكي فلم يتجاوز وقتذاك العاشرة من عمره،فالتف حوله مماليك ابيه ، وشمله كربوجا والي الموصل بالعطف والرعاية ، وظهرت فروسيته فيهذه السن المبكرة فيما جرىمن القتال علىالحدود بين المسلمين والصليبيين ، غير أنه لم يكن له الا دور ثانويفيماوقعفي اقليم الجزيرة من حروب وسياسة حتى بلغ الثامنة والثلاثين من عمره • ومع ذلك لم يلبث أن ذاع صيت زنكي لما ابداه من البسالة في اثنـاء قتاله للصليبيين (٥) ، حين اشترك في هجـــوم على طبرية سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ م) واشتد ضغط الصليبيين على طبـــرية حتى ارتد المسلمون عنها ، غير أن زنكي ابدى من الشدة في القتال والفروسية ما اكسبه لقب الشامي (٦) •

وكافأه السلطان محمود السلجوقي بأن اقطعه شحنكية البصرة وواسط (٧) وعظم شأنه ، واظهر زنكي من البطولة في اثناء القتال الذي وقع بين الخليفة المسترشد بالله ، وبين دبيس بن صدقة صاحب الحلة ، ما جعله يدرك قوته ، ويتطلع الى ان يصبح واحدا من الامراء الاتراك ، لا مجرد تابع يقاتل لحساب امراء عديدين في مختلف الجهات واستقر على ألا يخدم سوى السلطان فحباه بعطفه وكرمه • ولما وقع النزاع بين السلطان السلجوقي والخليفة ، انحـــاز زنكي الى جانب السلطان ، فرجحت كفته ، وقبل الخليفة ما تقرر من ضرورة الانزواء في داره • وصار زنكي يصرف الامور لا في بغدادوحدها سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، بل في سائر جهات العراق (٨) • وفي خريف سنة ١١٢٧

تم تعيينه أميرا على الموصل والجزيرة ، ولم يكن زنكي اميرا فحسب ، بل صار أتابكا لاثنين من ابناء السلطان • وباستقراره في الموصل ،تحتم عليه أن يقاتل الصليبيين •

غير أنه كان لزاما عليه ، قبل المبادرة الى منازلة الصليبيين ، أن يعمـــل على توطيد مركـــزه في الموصل • اذ أحس زنكي ، وهو في الموصل ، التي تقع على نهر دجلة وتبعد عـــن بغداد نحو مائتي ميل ، بأنه اضحى مستقلا ، ولا يقبل أن يتدخل السلطـــان السلجوقي في شؤون حكومته • فعكف على تنظيم امارته الجديدة ، مستندا في ذلك الى ما كان سائدا عند السلاجقة من نظم الحكم ، فصار يقف على ما يحدث في انحاء البلاد بما اوجده من نظام دقيق للتجسس ، وبما كان ينقله اليه وكلاؤه في عواصم البلاد المجاورة من اخبارها • يضاف الى ذلك ما اشتهر به زنكي من الخبرة في اصطناع الرجال ، فاذا عثر برجل كفء ، جعل فيه كل الثقة ، وأمده بعونه وتأييده (٩) •

وترجع شهرة زنكي الى ما بذله من جهود في منازلة الصليبيين ، في وقت استبد فيه اليأس بالمسلمين ، اذ وقعت الفرقـــة بين زعماء التركمان ، ووقع بينهم من التشاجن والتخاصم ما صرفهم عن مناجزة الصليبيين ، ولم يقبلوا الخضوع لسلطان أمير الموصل وقيادته • بـــل انهم اعتبروا انفسهم أنهم لا يقلون سلطانا وقوة عن أمـــير الموصل • والمعروف أن الامراء الاراتقة استقروا في قلعتـــي كيفا وماردين منذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي ، ومن هؤلاء اشتهر سكمان وايلغازي بالغارة على الصليبيين وقتالهم •

ولم يكن ثمة من الامراء من هو أشد مـــن سكمان في اثارة الكراهية ضد الصليبيين • ذلك أن امارة حلب تعرضت بسبب موقعها، بين امارتي الرها وانطاكية الصليبيتين ، الى الاغارات المستمرة من قبل الصليبيين • فأصبح ايلغازي أمير ماردين مسؤولا عن حمايتها ، منذ أن توجه لقتال روجر صاحب انطاكية الذي هاجم حلب سنة ١١١٩ • غير أنه ترتب على وفاة ايلغازي سنة ١١٢٢ ، أن اضحـــت حلب تحت رحمة الاقدار يتطلع للاستيلاء عليها الصليبيون ويساندهم بعض الامراء المسلمين ، فالتمست النجدة من اقسنقر صاحب الموصـــل ، فنهض لمساعدتها سنة ١١٢٥ وأرغم الأعداء على الانسحاب •

وعلى الرغم من انه توالى من الاحداث ما جعل حلب تعتمد على الموصل ، فانها لم تندمج في املاك السلاجقة • ومع ذلك فان كلا من اقسنقر صاحب الموصل ، وزنكي من بعده ، تطلع الى ان يقيم لنفسه امارة مستقلة ، لان الموصل وحدها لم تكن كافية لتحقيق هذا الغرض نظرا لقربها من مركز قوة السلاجقة • اما امتلاك حلب ، فله من الاهمية ما يوطد مركز زنكي في الموصل، فاذا استولى عليها اضاف بذلـــك لامارته قوة مادية جديدة ، فضلا عما لحلب مـــن أهمية استراتيجية كبيرة • اذ أن موقعها باعتبارهـــا قلعة ضد الصليبيين ، يجعل لامير الموصل عند امتلاكها من الصفة ما يعتبر المدافع عن الاسلام ضد الكفار، كما أن قوة الشعور الديني تمنع السلطان السلجوقي من أن يتخذ ضد زنكي أي اجراء من الاجراءات •

على أن زنكي منـــذ ان تولى حكومـــة الموصل ، صار يعمل

للأراتقة كل حساب ، فرأى أنه لا يستطيع أن يطمئن في زحفه الى الشام، الا اذا اخضع ديار بكر او جردها من استحكاماتها ، حتى لا تتعرض مؤخرة جيشه لخطر الهجوم عليها • فتوجه زنكي لمنازلة جزيرة ابن عمر التي خرجت على طاعة الموصل فأخضعها، ثم استولى على نصيبين وهي من املاك الاراتقة ، ولم يلبث ان استولى على حران ، فأصبح بذلك يتاخم الامارة الصليبية ، الرها • ولما فرغ من تلك الناحية ، توجه الى الشام ، وطمع في الاستيلاء على حلب التي كثرت بها الفتن الداخلية • حتى طمع فيها جوسلين الاول امير الرها وبوهمند الثاني امير انطاكية فتهيأت بذلك الفرصة للتدخل في شؤون حلب • ووجد زنكي من الاسباب ما يبرر تدخله ، اذ أن أباه اقسنقر كان يحكمها من قبل السلطان ملك شاه ، فاستصدر من السلطان السلجوقي سنة ١١٢٨ منشورا بأن تكون حلب من البلاد الداخلة في حكمه ، يضاف الى ذلك أنه تزوج من ابنة رضوان الذي اختص بحلب بعد مصرع ابيه تتش • ولم يلبث زنكي أن دخل حلب سنة ١١٢٨ لتخليصها من اخطار الصليبيين ، فأعاد بذلك الاتحاد بين حلب والموصل (١٠) •

وبوفاة طغتكين أمير دمشق في سنة ١١٢٨ ، أصبح زنكي مسؤولا عن قتال الصليبيين وجهادهم • فحصل من السلطان على مناشير بتقليده كل ما يفتحه من الاقاليم ، ثم حاصر الاثارب ، وهي قلعة تقع على مسيرة يوم من حلب ، وتهددها باستمرار ، واشتهرت بمناعتها وقوة حاميتها، وأدرك الصليبيون خطورة زنكي منذ وقعة طبرية ، فجاءت الامدادات الصليبية من سائر الجهات ، غير أن زنكي شدد الحصار على القلعة ،

واشتبك في قتال مرير مع الصليبيين (١١) ، ولم ينج من القتل منهم الا من وقع أسيرا او التمس النجاة بالهرب ليلا ، وسقطت الاثارب في يد زنكي . فخرب استحكاماتها ، ومن بقي حيا من حاميتها وقع في أسره ورجع زنكي الى الموصل سنة ١١٣٠، بعد أن أحرز هذا الانتصار الرائع . واضحى اسمه مثلا للشجاعة والبأس ، وصار بطل الاسلام المجاهد في سبيل نصرته .

على أن زنكي رأى أن الجهاد ضد الصليبيين لا يثمر الا بالاستيلاء على دمشق التي اتخذت سياسة المحافظة على مصالحها ، وصارت تلجأ الى مهادنة الصليبيين في بيت المقدس (١٢) ، ومع ذلك استطاع زنكي أن يستولي على حمص وبعلبك ، وهما من أملاك دمشق ، وجعل على بعلبك نجم الدين أيوب والد صلاح الدين . أما دمشق فان وزيرها معين الدين أنر راسل الصليبيين ، واستدعاهم لنصرته وخوفهم من زنكي أنه اذا ملك دمشق اعقب ذلك الاستيلاء على بيت المقدس ، ولا يترك لهم بلدا بالساحل ، فعزم الصليبيون على المسير الى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها على قتال زنكي ، فاكتفى زنكي بالاغارة على حوران واعمال دمشق (١٣) .

على أن زنكي شن هجوما على الصليبيين من جهة اخرى ،وقبل أن يقوم بذلك ، استطاع ان يؤمن مؤخرة جيشه بما استولى عليه من بلاد الاراتقة والامارات الكردية في الشمال (١٤) ،واستمر في زحفه حتى وصل الى اسوار آمد . والواقع أن زنكي لم يهدف للاستيلاء على آمد ، بل تطلع الى الرها ، الامارة الصليبية المتاخمة لاملاكه .

وكان جوسلين صاحب الرها مصدر خطر في انحاء سوريا وديار بكر ، وتعتبر الرها من امنع المعاقل الصليبية • ولما مات جوسلين خلفه في الحكم ابن له أتخذ اسم جوسلين الثاني ، اشتهر بميله الى الدعة والسعي وراء اشباع شهواته • ولما رأى انصراف زنكي الى محاصرة آمد ، اخذ طريقه الى ضياع له بساحل الشام • وعندئذ تقدم زنكي ، بعد ان وقف على ضعف حامية المدينة ، لمحاصرتها في نوفمبر سنة ١١٤٤ ، ولم تلبث ان سقطت الرها في يده في ديسمبر سنة ١١٤٤ ، ونهب الناس الاموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال • غير أن زنكي أوقف ما يجري من النهب والسلب ، ثم تسلم سروج وسائر الاماكن التي بيد الصليبيين شرقي الفرات (١٥) •

وامضى زنكي السنتين التاليتين في ترتيب امور مملكته ،والعمل على مواصلة مشروعاتهبشأن اقامة دولة تضمالشام فضلا عنممتلكاته، فحاصر قلعة جعبر سنة ١١٤٦ ، غير أن أحد غلمانه اغتالهفي اثناء نومه سنة ١١٤٦ •

مات زنكي بعد أن أتم من الاعمال ما لم يستطع جميع أمراء المسيحية هدمه ، وترك لابنه نور الدين ، ولصلاح الدين أمر اتمام ما بدأه من اعمال ، ولم تمض على وفاة زنكي اربعون سنة ، حتى سقطت مملكة بيت المقدس في يد المسلمين (١٦) •

انقسمت مملكة زنكي بعد وفاته الى قسمين : القسم الشرقي وعليه ابنه الاكبر غازي ومقره مدينة الموصل ، والقسم الغربي وعليه

ولده نور الدين محمود ومقره مدينة حلب • وأدى الوضع الجغرافي للقسم الغربي الى أن يواجه صاحبه المشكلتين الكبيرتين اللتين صرف زنكي في معالجتها معظم ايامه ، وهما دمشق والامارات الصليبية الاخرى •

وبفضل مساعدة البيت الايوبي واخلاصه ، استطاع نور الدين أن يواصل جهود أبيه في توحيد القوى الاسلامية ومنازلة الصليبيين (١٧) •

وترجع علاقة الايوبيين ببيت زنكي الى زمن عمادالدين زنكي، حين انتقل ايوب والد صلاح الدين ، واخوه وشيركوه الى خدمةزنكي بالموصل سنة ١١٣٨ ؛ أي في نفس الوقت الذي ولد فيه صلاحالدين، فاستخدمهما زنكي في حروبه وفي شؤون اتابيكيته ، ولما فتح بعلبك سنة ١١٣٩ جعل ايوبا واليا عليها، فلم يزل متوليها حتى قتل زنكيعلى قلعة جعبر سنة ١١٤٦ ، ثم انتقل ايوب الى خدمة أنر وزير دمشق بعد أن استرد بعلبك بعد مصرع زنكي (١٨) ، مقابلالحصول على اقطاع طيب ، فضلا عن مبلغ كبير من المال ، ودار يقيم بها في دمشق • وصار لايوب مركز مرموق في دمشق ، ولم يلبث ان أصبح قائدا لقواتها واستمر يشغل هذه الوظيفة حتى استولى نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤ •

أما شيركوه اخو نجم الدين ايوب ، فانه اتصل بخدمة نور الدين بحلب ، وصار من أخص اصحابه ، ومقدما على سائر امرائه لما اشتهر

به من الشهامة والشجاعة، ولم يزل حاله ينمو عنده الى ان اقطعه حمص والرحبة • واسهم شيركوه في جميع ما قام به نور الدين من حملات حربية (١٩) ، وهو صاحب الفضل في انقاذ دولة نور الدين من الاخطار التي تعرضت لها من قبل الصليبيين منذ اواخر سنة ١١٤٦ • وبفضله استولى نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤ ، فاجتمع بذلك في خدمته الاخوان ايوب وشيركوه ، فجعل ايوب واليا على دمشق ، واقام شيركوه في حمص ، على ان يكون نائبا عنه في اعمال دمشق •

وارتفع شأن الاخوين عند نور الدين اذ بلغ ايوب من المكانة عند نور الدين ما لم يبلغها احد ، (٢٠) ، حتى انه ليجلس في حضرته دون ان ينتظر اذنه ، اما شيركوه فكان اكبر امرائه قدرا واعلاهم شأنا ، وصار مقدم عساكره • وكان لهذين الاخوين ولصلاح الدين الاثر الكبير في اتمام رسالة الجهاد التي بدأها زنكى ، بما قاموا به من فتح مصر والقضاء على الدولة الفاطمية ، واعادة مصر الى المذهب السني •

والواقع ان ما حدث في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي من احداث ، جعل النزاع بين الصليبيين والمسلمين ينتقل الى مصر • اذ تطلع كل من نور الدين وملك بيت المقدس الى الاستيلاء على مصر ، لما اشتهرت به من الثروة ولاهميتها الحربية ، ذلك انه اذا استولى نور الدين على مصر استطاع ان يضيق الخناق على الصليبيين ويطردهم من الشام ، بينما حرص الصليبيون على ان يفلتوا من هذا الحصار بمنع نور الدين من تحقيق غرضه ، وان يتخذوا من مصر قاعدة لهم في

نضالهم ضد المسلمين بالشام • وبلغت الاحوال الداخلية بمصــر من السوء ما جعل الوزراء يتسابقون الى التماس المساعدة من كــل من نور الدين وبلدوين الثالث ملك بيت المقدس (٢١) ، بل قبل بعضهم ان يدفع جزية سنوية للصليبيين ، مقابل التزامهم الهدوء وعدم الاغارة على مصر • فتوالت بذلك حملات نور الدين والصليبيين على مصر الى ان تم لنور الدين الفوز بها سنة ١١٦٩ بفضل شيركوه وصلاح الدين •



الفصل الثاني

صلاح الدين وزوال الدولة الفاطمية

يعتبر صلاح الدين من اهم مراحل تاريخ الحرب الصليبية ، كما يعتبر من اهم عصور البشرية عامة وازخرها بالعاطفة . ومن الواضح ان المطامع الشخصية لمعظم الامراء المسلمين الذين تزعموا حوادث الشرق الاوسط في القرن الثاني عشر قبل صلاح الدين ، عطلت حركة المقاومة الاسلامية المتحدة ضد الصليبيين . ثم اخذت هذه المطامع الشخصية تتضاءل رويدا رويدا امام وحدة الغرض الاسلامي العام ، وهي الوحدة التي عمل الزعيمان التركيان زنكي وابنه نور الدين ، وأخيرا الزعيم الكردي صلاح الدين على تحقيقها ، بفضل ما اتصف به كل منهم من متانة الخلق وقوة العزيمة وشدة الايمان ، وهذه الصفات هي التي ساعدت الجيوش الاسلامية على ان تحرز النصر ، وان تقهر القوات الصليبية ، وأن تسترد ما استولى عليه الصليبيون من ممتلكات ، واذا أدركنا ضخامة هذا العمل في اطاره التاريخي ، تبين لنا ان صلاح الدين هو الذي نهض بالجزء الاكبر من هذا العمل ، وانه هو الذي وضع الخطة العامة لاخراج الصليبيين من الشرق ، وهي التي استغرق تنفيذها

الى زمن السلطـان المملوكي خليل بن قلاون اي اواخر القرن الثالث عشر الميـلادي •

ولد صلاح الدين بقلعة تكريت سنة ١١٣٨ (٥٣٢هـ) في ليلة غادرت فيها الاسرة الايوبية الى الموصل • ثم اصبح والده ايوب حاكما علـى بعلبك التي اقطعها اياه زنكى سنة ١١٣٩ •

وامضى صلاح الدين ايام طفولته في بعلبك ، ولا نعرف شيئـا عن أخبار اسرة ايوب في اثناء مقامها في بعلبك • ولا شك ان صلاح الدين تلقى بها ما يتلقاه الطفل المسلم من العلوم الاسلامية ، وانه لقي من الرعاية والاهتمام ، باعتباره ابن والي المدينة ، ما لا يلقاه ابناء أوساط الناس • فدرس القرآن والحديث والفقه والنحـو والتاريـخ واللغة والادب ، فضلا عن فنون لعب الكرة والفروسية والصيد وغيرها مـن فنون ابناء الطبقات الحاكمة • ثم لحق الشاب صلاح الدين بعمه شيركوه في حلب ، حيث كان شيركوه في خدمة نور الدين ، وحصل على اقطاع بها ، ثم خلف صلاح الدين اخاه الاكبر توران شاه في شحنكية دمشق أي قيادة الجيش الدمشقي سنة ١١٥٦ ، بعد ان اصبحت دمشق من ممتلكات نور الدين ، غير انه لم يلبث ان تخلى عن منصبه لما وقع بينه وبين صاحب الديوان من خلاف (١) ، فرجع الى حلب مرة اخـرى • وهناك شمله نور الدين بعنايته لمهارته في لعب الكرة ، وكان نور الدين يحب لعبها في ميدان حلب ، فاختص به لذلك • فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر (٢) • ثم ولى صلاح الدين شحنكية دمشق مرة اخرى سنة ١١٦٠ • وفيما عدا هذا وذاك لا نعرف عن صلاح الدين في مستهـل

حياته سوى انه توافر له من الصفات الطيبة ما جعلته يتلقى عن نـــور الدين ان يسلك الطريق المستقيم ، والا يفعل الا الخير وان يجاهد في سبيـــل الله •

على انه جرى من الحوادث في مصر والشام ، ما حدد مستقبـــل صلاح الدين • فالواقع ان صلاح الدين ظل حتى الخامسة والعشرين من عمره لا يشارك فيما جرى من الاعمال التي تؤهله الى ان يصبح له ما اصبح من السلطان والنفوذ ، على حين ان عمه شيركوه الذي دفعه الى الحياة العامة دفعا ، كان وقتذاك الساعد الايمن لنور الدين • ولم يشترك صلاح الدين فيما قام به عمه شيركوه من حروب في الشام حتى سنة ١١٦٤ • غير انه اصر على ان يصحبه فيما توجه به من حمـــلات على مصر •

والمعروف ان مصر تعرضت للخطر الصليبي منذ ان اقاموا ملكهم في بيت المقدس ، وصاروا وقتئذ لا يقاتلون فحسب من أجل التوسع ، بل ايضا من اجل النهب والسلب (٣) • واستطاع الفاطميون المتأخرون ان يضمنوا الامن والعافية بما قبلوا ان يدفعوه لهم من اتاوات • على ان ما حدث من استيلاء الصليبيين على عسقلان سنـــة ١١٥٣ آخر ثغـــر للفاطميين في الشام ، جعل الفاطميين يدركون الخطر الصليبي اكثر من اي زمن مضى ، وترتب على استيلاء نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤ ان تهيأت الفرصة للمضي في تحقيق السياسة التي رسمها زنكى وتقضي بتوحيد العالم الاسلامي وتطويق الصليبيين • وطردهم من الجهات التي احتلوها فضلا عن اعادة مصر الى الخلافة العباسية • وجرت الاتصالات

سنة ١١٥٨ بين وزارة الدولة الفاطمية ونور الدين لمنازلة الصليبيين ، غير ان نور الدين اراد ان ينفرد بهذا العمل وحده •

اما الصليبيون فارادوا ان يفلتوا من حصار المسلمين وان يفيدوا من ثروة مصر ، وانتهزوا فرصة الفوضى الناشبة في البلاد ، فأعد اموري ملك بيت المقدس حملة لمهاجمة مصر متذرعا بامتناع الدولة الفاطمية عن دفع ما التزمت به من الجزية • فخرج اموري بجيشه في سبتمبر سنة ١١٦٣ ، فالتقى بجيش فاطمي بقيادة ضرغام عند اطراف مديرية الشرقية ، وحلت الهزيمة بضرغام وتراجع الى بلبيس ، حيث ادركه الصليبيون بهذا الموضع ، وكادت بلبيس تسقط في ايديهم لولا أن عمد المصريون الى قطع الجسور والسدود ، فغادر الصليبيون البلاد (٤) •

وفي هذه الاثناء تولى شاور الوزارة سنة ١١٦٣ ، غير انه ادرك انه من العسير ان يحتفظ بهذا المنصب ، واشتد قلقه وخوفه ، فزاد في أعطيات الجند ، وحاول ان يصادق ضرغام ، غير انه لم يستطع الى ذلك سبيلا ، فلم يجد بدا من الهروب الى الشام (٥) •

قدم شاور الى نور الدين بدمشق ، والتمس منه ان يبعث بمعه جيشا يعيده الى منصب الوزارة ، وشرط له حصة من خراج البلاد وان يكون شاور متصرفا في امور البلاد حسبما اراد نور الدين • وحرص نور الدين على الا تفلت هذه الفرصة من يده ، اذ انها تقربه من الغرض الذي يرمي اليه ، وهو التعجيل بالقضاء على الدولة الفاطمية • ولذا

استقبل شاور استقبالا طيبا ، غير انه تنازعه امران • الرغبة في مد سلطانه ، والخوف من الاخطار التي تتعرض لها قواته في اثناء اجتيازها أراضي الصليبيين • غير نأ شيركوه الذي ولاه امر هذه الحملة ، والذي اشتهر بالاقدام والبسالة ، والذي شهد المفاوضات بين نور الدين وسفير الفاطميين اسامة بن منقذ سنة ١١٥٨ • بدد هذه المخاوف ، واتخذ طريقه الى مصر ، وصحب معه ابن اخيه صلاح الدين (٦) •

حدثت المعركة الفاصلة تحت أسوار القاهرة ، فحلت الهزيمة بضرغام ، ولم يلبث ان لقى مصرعه عند مشهد السيدة نفيسة ، في أغسطس سنة ١١٦٤ ، ولم ينهض الصليبيون لمساعدته حسب اتفاقه معهم ، لان نور الدين اغار على ممتلكاتهم المجاورة لدمشق (٧) •

عاد شاور الى الوزارة ، واقام شيركوه بجنده بظاهر القاهرة ، منتظرا ان يفي شاور بما وعد به نور الدين ، غير أنه نكث في عهده ، وأرسل الى شيركوه يطلب اليه الرجوع الى الشام ، فامتنع شيركوه ، وطلب منه أن يؤدي ما جرى الاتفاق عليه • ولما لم يجبه شاور الى طلبه ، أرسل شيركوه نوابه الى بلبيس فتسلموها (٨) ، وصار يحكم الاقاليم الشرقية ، واتخذ . بناء على نصيحة صلاح الدين ، بلبيس مقرا لقيادته • واخذ صلاح الدين يجمع الغلال والاحطاب ، وما لزم الجيش من مئونة وذخيرة ، وصار الجيش النوري يغير على القاهرة من وقت الى آخر (٩) •

على ان شاور لم يدرك انه خان عهده ، فأرسل الى الصليبيين

يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ، ويبين لهم انه اذا ملك مصر ، فانه سوف يخرجهم من البلاد التي يحتلونها • وكان الصليبيون حين علموا بمسير قوات نور الدين الى مصر ، خافوا خوفا شديـدا ، وأيقنـوا بالهلاك ، فلما وصلتهم رسل شاور يدعونهم الى المساعدة ، سروا بذلك ، ونهضوا لمساعدته طمعا في الاستيلاء على مصر ، واعدوا عدتهم بعـد الاتفاق بينهم وبين شاور ، على مال يحمله اليهم ، ان استطاعوا اجـلاء قوات نور الدين عن مصر (١٠) •

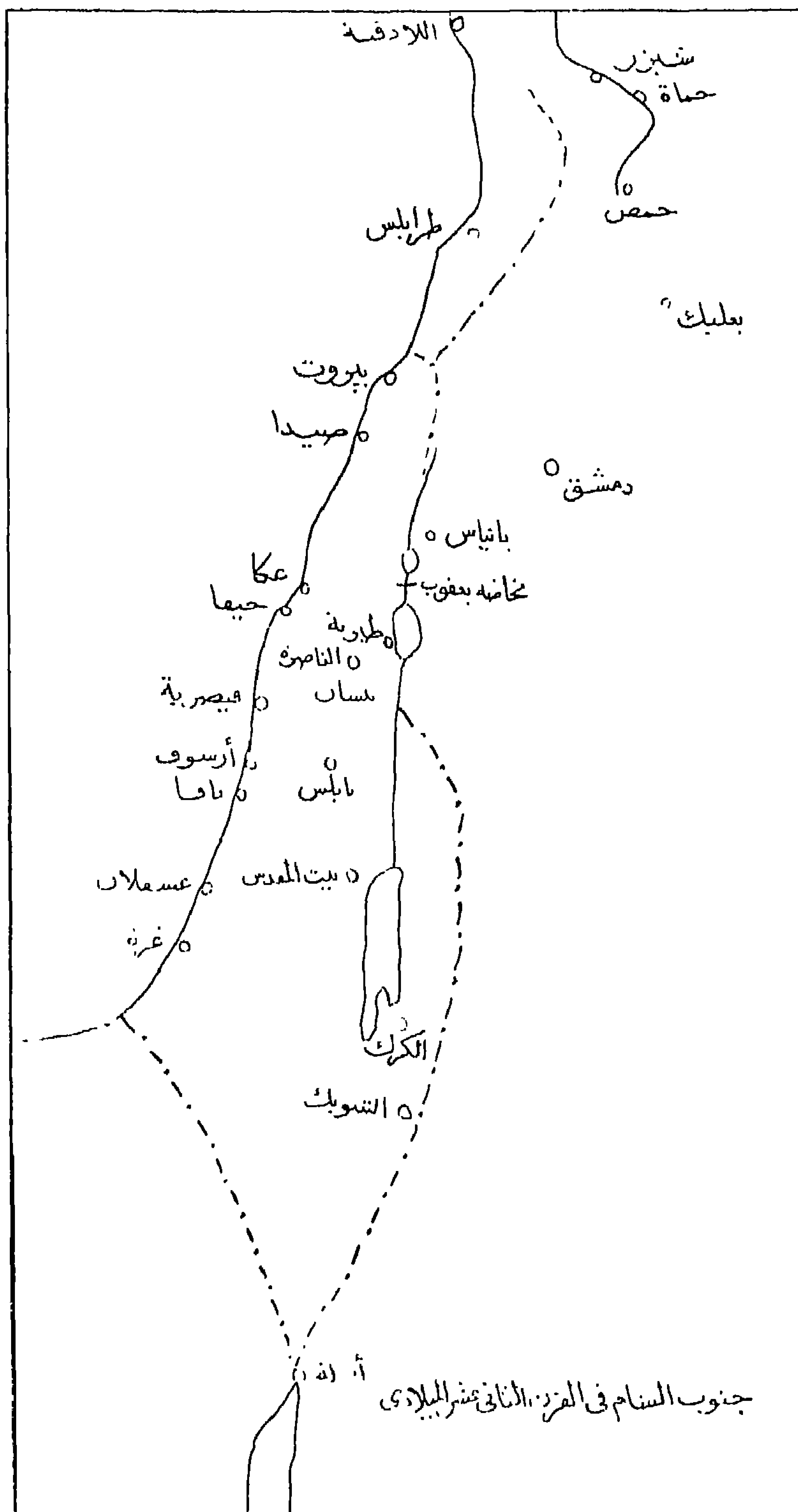
وعقد آموري مؤتمرا في بيت المقدس ، حضره زعماء الصليبيين ، وتقرر فيه اجابة دعوة شاور ، وتصادف ان قدم من اوربا وقتذاك عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس . فتيسر لاموري اعداد حملة ، دون ان يضعف ذلك من قوى مملكة بيت المقدس الدفاعية • وتوجه آمـوري بحملته الى مصر ، وتم الاتصال بشاور ، وحاصرت قوات الصليبيـين والفاطميين شيركوه وجنده في بلبيس (١١) ، وظل شيركوه يدافع عن المدينة ثلاثة شهور . على الرغم من ضعف استحكاماتها ، فلم ينالـوا منها غرضا (١٢) •

ولم يلبث أن جاء الخبر بكسر الصليبيين على حارم (أغسطس سنة ١١٦٤) وتملك نور الدين لها ، فعظم على الصليبيين ذلك ، وأرسل نور الدين الى شيركوه ما استولى عليه من اعلام الصليبيين ، فنشرها شيركوه على أسوار المدينة فعرفوا ما حل بأملاكهم ، وأخذ آموري يفكر في العودة الى بلاده لانقاذها ، فراسل شيركوه في الصلح ، وتم

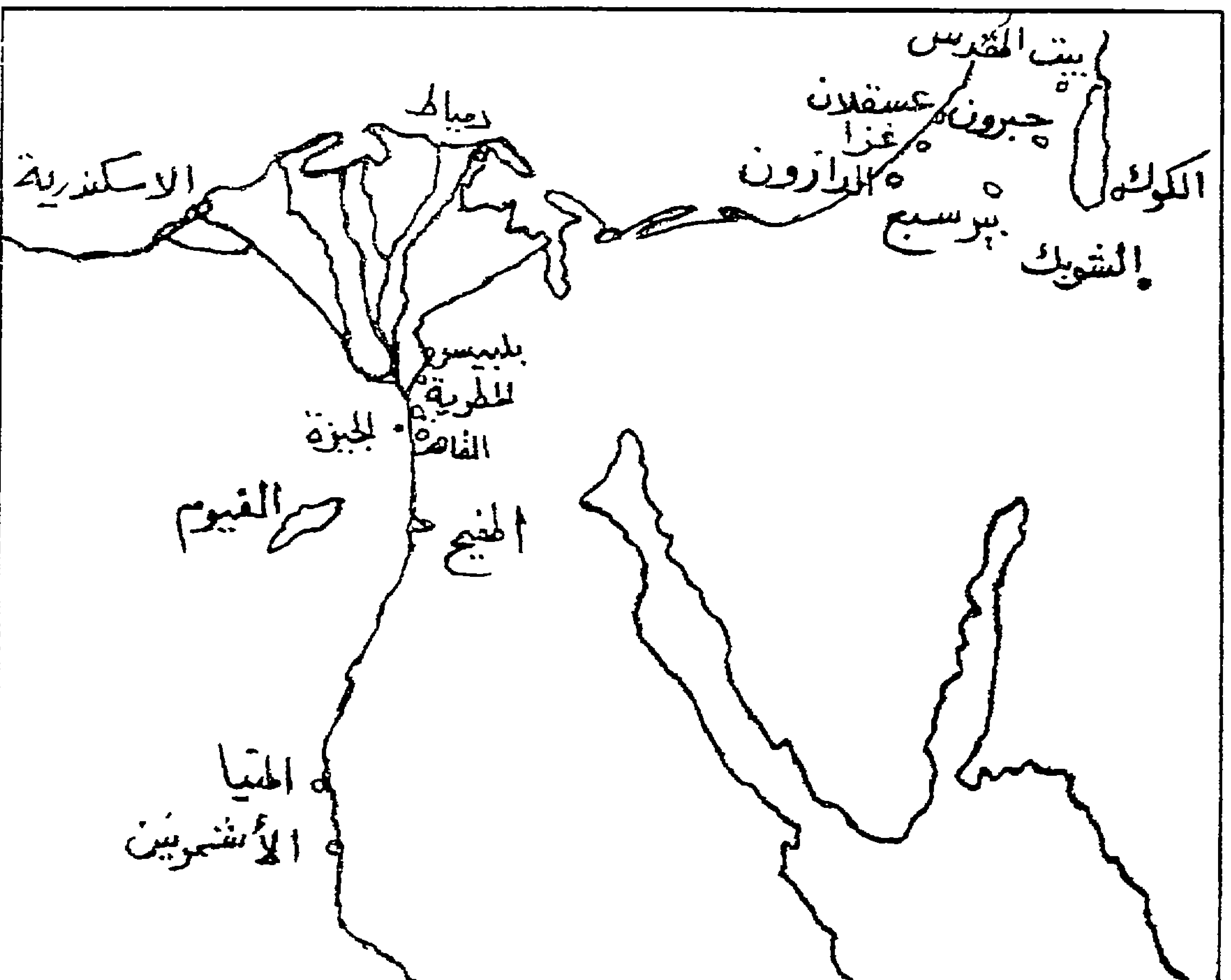
الاتفاق بين الفريقين على مغادرة البلاد بعد ان تبين شيركوه ان الاقوات كادت تنفذ ، وان مقاومة عدوية شديدة (١٣) •

على ان لهذه الحملة اهميتها ، اذ تعرف شيركوه سوء احوال الحكومة الفاطمية ، وتطلع القائد الطموح الى ان يكون نائبا عن نور الدين بعد فتح مصر ، فضلا عن تشجيع الخليفة العباسي لكل مشروع يرمي الى اسقاط الخلافة الفاطمية ، ولذا كتب الخليفة الى جميع الامراء يطلب اليهم النهوض لمساعدة شيركوه (١٤) •

وخرجت حملة شيركوه الثانية الى مصر في مستهل سنة ١١٦٧ ، بعد ان تبين له غدر شاور ، وصحب شيركوه جماعة من الامراء وابن اخيه صلاح الدين ، وسار معه نور الدين الى اطراف البلاد لمنع ما تتعرض له جيوشه من اغارة الصليبيين • ووصل شيركوه الى مصر ، وعبر النيل عند أطفيح ، ونزل بجهة الجيزة • غير ان شاور ارسل يستنجد بالصليبيين ، واستطاع آمورى ان يعد حملة لمساعدته خوفا من أن يمتلك نور الدين مصر ، وفي ذلك القضاء على الصليبيين • وفي ٣٠ يناير سنة ١١٦٧ خرج آمورى بحملته قاصدا مصر ، فوصل الى بلبيس دون ان يلقي مقاومة • وتم الاتفاق بين آمورى وشاور ، على ان يدفع شاور الى جانب الجزية مبلغا قدره ٤٠٠ الف دينار ، على ان يدفع نصفها ، ويؤجل النصف الثاني الى وقت آخر (١٥) • ووقعت المعركة الحاسمة عند البابين (دلجه قرب ديروط) في ١٨ مارس سنة ١١٦٧ • وكان صلاح الدين اكبر المحرضين على منازلة الصليبيين ، بعد ان ساد بين عسكر شيركوه الرغبة عن القتال ، لما بلغهم من كثرة عددهم ،



جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي



مصر فى القرن الثانى عشر

غير ان شيركوه استطاع بفضل ما وضعه من خطط حربية محكمة ، ان يهزم الصليبيين وحلفاءهم فكثر عدد القتلى والاسرى (١٦) .

وتوجه شيركوه بعد انتصاره الى الاسكندرية ، فسلمها اهلها اليه لميلهم الى مذهب السنة ، وكراهيتهم للمذهب الفاطمي ، فجعل صلاح الدين نائبا عنه في حكمها .

وبعد ان اصلح الصليبيون والمصريون عساكرهم ، توجهوا الى الاسكندرية فحاصروا صلاح الدين واشتد الحصار ، وقل الطعام بالمدينة ، وصبر اهلها على ذلك . على ان الدفاع عن المدينة كان اول عمل استقل فيه صلاح الدين بالقيادة ، ولم يكن معه سوى الف رجل ، يضاف الى ذلك ان الاقوات اخذت تنفد بسبب التضييق على المدينة برا وبحرا . ولما علم شيركوه بخبر هذا الحصار ، قدم من الصعيد يحمل معه المؤن والاموال ، فتشجع الناس ، وقويت نفوسهم ، وصمدوا للقتال نحو ٧٥ يوما برغم ما اصابهم من الجوع ، وما تعرضوا له من الهجمات المستمرة . وعندئذ ادرك آموري انه لا فائدة من مواصلة القتال ، فدارت المفاوضات بشأن الصلح ، وبذل الصليبيون والفاطميون لشيركوه خمسين الف دينار ، فأجابهم الى ذلك بشرط الا يقيم الصليبيون في البلاد فوافقوا على ذلك . والواقع ان السبب الذي دعا الصليبيين الى طلب الصلح هو ما قام به نور الدين من الهجمات المستمرة على ممتلكاتهم في بانياس وحصن الاكراد (١٧) .

على ان الصليبيين لم يغادروا البلاد الا بعد ان اتفقوا مع شاور

على ان يتركوا بالقاهرة حامية وان تكون ابوابها بايديهم ، ليمتنع
الدين من انفاذ عسكر اليهم ، وارتحل آموري بعد ان تعهد شـ
بدفع مائة الف دينار جزية سنوية (١٨) •

على ان جند هذه الحامية كاتبوا آمورى يطلبون اليه القدوم
مصر ، وهونوا عليه أمرها ، وكاتبه ايضا جماعة من المصريين ، و
آمورى ، ورأى ان ما يجبيه من مصر من الجزية يكفيه لمقاومة نـ
الدين ، وخشى انه اذا سار الى مصر لفتحها ، فان صاحبها وعساكـ
وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ، ويحملهم الخوف منا عل
تسليمها لنور الدين ، فاذا تحقق ذلك وصار له فيها مثل شيركوه ،
في ذلك هلاك للصليبيين واجلاؤهم من اراضي الشام (١٩) • يضـ
الى ذلك انه لا يستطيع ان يفتح مصر الا اذا اطمأن على مؤخرة جـ
من هجمات نور الدين ، ولا يتم ذلك الا بالاستيلاء على دمشق •
أن آمورى نزل على رأى غالبية الزعماء الصليبيين بعد ان خوفوه مـ
نتيجــة ما يجري من مفاوضات بين شاور ونور الدين (٢٠) • فـ
حملة وسار بها في اكتوبر سنة ١١٦٨ فوصل الى القاهرة في نوفمبـ
سنة ١١٦٨ ، ولم يجد مساعدة من المصريين وامر شاور باحراق مصر
ان طلب الى اهلها الانتقال الى القاهرة • وعرض شاور على آمــو
مبلغا كبيرا من المال مقابل الجلاء عن مصر ، ووافق الصليبيون علـ
ذلك خوفا من قدوم قوات نور الدين • غير ان الخليفة العاضد الفاط
ارسل يستنجد بنور الدين ، وبذل له ثلث خراج البلاد ، وقبل ان يـ
شيركوه عنده في عسكره ، وان تكون اقطاعات العسكر خارجــة .

الخراج الذي جعله نور الدين وارسل المصريون الى شيركوه يحثونه على سرعة الوصول اليهم ، فأرسل نور الدين الى شيركوه يستدعيه من اقطاعه بحمص ، ثم طلب اليه التجهيز للسير الى مصر ، واختار من المعسكر الفي فارس ، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس (٢٠) وطلب نور الدين الى صلاح الدين ان يصحب عمه فكره ذلك ، على الرغم من ان مستقبله مرهون بهذه الحملة . والى هذا يشير ابن الاثير « احب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير ، وفيه سعادته وملكه » (٢١) .

على ان موقف نور الدين اختلف في هذه المرة عما حدث في الحملات السابقة . اذ انه في هذه المرة الح على شيركوه ، في ضرورة الاسراع باعداد الحملة ، وبذل له الاموال الوفيرة . ولعله رأى ان تخليص مصر سوف يؤدي الى اعادة المذهب السني لها ؛ وبذلك يكسب عطف الخليفة العباسي وتأييده ، وأدرك نور الدين ايضا ان البلد سوف يكون من نصيبه هذه المرة ، فضلا عما شعر به من القلق من جانب الصليبيين ، اذ حذر شيركوه بأنه تأخر عن المسير الى مصر ، فالمصلحة تقضي ان يسير اليها بنفسه ، « لاننا اذا اهملنا امرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره » (٢٢) « فلم يسع شيركوه الا الامتثال لامر نور الدين . اما صلاح الدين فانه اصر على عدم المسير مع عمه هذه المرة لما قاساه من المشاق في اثناء حصار الاسكندرية ، ولم يقبل المسير الا بعد ان توسط نور الدين ، فأعطاه من المال ما تجهز به ، واذعن آخر الامر « وكأنه مساق الى الموت » (٢٣) .

خرجت حملة شيركوه الاخيرة الى مصر في ديسمبر سنة ١١٦٨ : فبلغت القاهرة في يناير سنة ١١٦٩ ، ولم يجد جيش نور الدين ادنى مقاومة من المصريين ، ولعلهم رأوا في جيش شيركوه خلاصا لهم من الصليبيين ومن استبداد شاور • ولما رأى آموری ان مركزه بات حرجا وخاف ان يهاجمه شيركوه ، وان يثب عليه المصريون من الخلف ، قرر المسير الى بلبيس والارتحال منها الى فلسطين • ولقى شيركوه في القاهرة ترحيبا كبيرا لانه خلص المصريين مما لحق بهم من المظالم ، فاستقبله الخليفة وخلع عليه وتقرر له ولعساكره « الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة » (٢٤) •

اما شاور فانه امتلأ حقدا وغيظا ، وحاول ان يجتذب اليه قلوب الناس ، فصار يتظاهر بالورع والتقوى ، ويذهب كل يوم لزيارة قبر الامام الشافعي ، على انه لم يف بوعوده لنور الدين • ولما تبين لصلاح الدين وسائر الامراء خيانة شاور ، قرروا قتله ووافقهم على ذلك شيركوه وتم مصرعه ولم ينكر الخليفة العاضد هذا العمل ، وبذلك انتهت حياة شاور الذي استغل ما بين الامراء والسلاطين والخلفاء من النزاع للابقاء على سلطانه • والواقع ان مقتل شاور كان خاتمة المتاعب التي تعرضت لها مصر اواخر العصر الفاطمي ، ولم يعد للصليبيين من ينصرهم في البلاد • وكان خروج الصليبيين من مصر في نظر نور الدين فتحا جديدا للبلد وحفظا لسائر بلاد الشام •

ثم خلع الخليفة الفاطمي العاضد على شيركوه خلع الوزارة ، وفوض اليه الوزارة والتقدم على الجيوش ، ولقب الملك المنصور امير

الجيوش ، وختم ذلك كله بأن كتب الى شيركوه تقليدا بالوزارة ، وهو لا يعلم ان مصير دولته صار قاب قوسين او ادنى ، اذ لـــم يعـــد ثمة من ينافس شيركوه الذي اضحىوزيرا ،يقطع البلاد للعساكر الذين قدموا معه ، وجعل صلاح الدين يتصرف في كل امور الدولة (٢٧) •

على ان شيركوه لم يلبث ان قضى نحبه في ٢٣ مارس سنة ١١٦٩، ولم تتجاوز مدة وزارته شهرين ، فمهد بذلك الطريق الى صلاح الدين، ولم يلبث ان تولى صلاح الدين الوزارة على الرغم من ان بعض امراء الجيش النوري من الترك كرهوا تعيينه وزيرا ، وهو كردي ليس منهم، فعادوا ساخطين الى الشام • وحفظت المصادر العربية التقليد الفاطمي الذي تولى بمقتضاه صلاح الدين الوزارة وتلقب فيه بالملك الناصر حسبما درج عليه الفاطميون من منح وزرائهم لقب ملك • وهذا المنشور من انشاء القاضي الفاضل (٢٨) : ومن اهم ما ورد فيه » والجهاد انت رضيع دره ، وناشئة حجره ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الخيـام مساكنك ، وفي ظلام قساطلة تجلى محاسنك • وفي اعقاب نوازلـه تتلى مناقبك • فشمر عن ساق من القنا وخض فيه بحرا من الظبـا • واحلل في عقد كلمة الله وثيقات الحبا ، واسل الوهاد يوم العـدا ، وادفع برءوسهم الربا ، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجوا امير المؤمنين ان يكون مذخورا لايامك ومشهودا لك يوم مقامك (١) •

لم يكن بدعا ان يتولى احد السنين الوزارة للخليفة الفاطمـي

« (١) انظر الروضتين جـ ١ ،ص ١٦٤ حيث هـذا التقليد مؤرخ بتاريخ جمادي الآخـرة سنة ٥٦٤« ٢٦ مارس سنة ١١٦٩ • »

الشيعي ، لانه حدث ان تقلد الوزارة زمن الفاطميين وزراء سنيون من حين الى آخر • لم يتجاوز صلاح الدين الثانية والثلاثين من عمره ، حين ولي الوزارة الفاطمية ، وهو في نفس الوقت قائد الجيش النوري ، ونائب عن نور الدين بمصر •

ورأى نور الدين ضرورة الافادة من هذا الموقف بالاسراع في اعادة المذهب السني ، وعزل الخليفة العاضد الفاطمي • على ان صلاح الدين تردد في ذلك ، وينبغي الا نغفل امر طموحه الشخصي ، وحرصه على الا يكون مجرد نائب لنور الدين • ولعل السر في ان صلاح الدين سار في روية وحذر وقتذاك ، انه خاف كذلك ان يصطدم بمقاومة داخلية في القاهرة من قبل الجيش الفاطمي ، ورجال الادارة الفاطميين ، ومن الدليل على ذلك اسراعه الى تكوين جيش خاص به ، وحرصه على اجتذاب بعض رجال الادارة الفاطمية الى جانبه امثال القاضي الفاضل (٢٩) •

ثم لم تلبث الحوادث ان جاءت مصدقة لمخافات صلاح الدين ، اذ قامت مؤامرة عسكرية ترمي الى مناهضته ومناوءته ، وتولى توجيه هذه المؤامرة احد طواشية القصر وهو مؤتمن الخلافة ، واسمه جوهر • وكان هذا الطواشي موضع ثقة الخليفة العاضد ، واشترك في مسؤلية ما وقع من الحوادث ، فهو صاحب الخنجر الذي قتل به شاور ، وهو الذي دبر المؤامرة العسكرية ، وأدخل فيها قوات من عند الصليبيين والبيزنطيين والصقليين ، وقدر انه اذا خرج صلاح الدين الى لقاء هذه

القوات ، قبضوا على من بقي من اصحابه بالقاهرة ، فتصير بذلك البلاد بينهم وبين الصليبيين يقتسمونها (٣٠) •

غير أن صلاح الدين علم باخبار هذه المؤامرة قبل ان تستحل ، فأمر بالقبض على جوهر وقتله في اغسطس سنة ١١٦٩ ، وتأهب لمنازلة العسكر الفاطمي ، ومعظمه وقتذاك من السودانيين • فعبأ جنده الجديد ، وتولى قيادتهم اخوه توران شاه ، ووقعت بينه وبين السودان معارك دامية في شوارع القاهرة لاسيما بين القصرين • وشهد الخليفة من منظرته ما يجري من القتال العنيف ، على حين عمد رجال حرسه الى قذف جند صلاح الدين بالحجارة ورميهم بالسهام • وكان السودانيون يزيدون على خمسين الفا ، وكانت لهم محلة عظيمة قرب باب زويلة ، فأرسل صلاح الدين اليها من اوقع الحريق فيها ، فدمر أموالهم ، وشرد اولادهم وحريمهم ، فلما اتاهم الخبر بذلك ، ولوا منهزمين ، غير ان توران شاه تعقبهم في طائفة من العسكر فأعمل فيهم السيف ، فلم يبق منهم الا الشريد ، وضعف امر العاضد فأصبح لا حول له ولا قوة (٣١)

وبينما هذه الحوادث تجري ، كانت القوات الصليبية البيزنطية في طريقها الى الأطراف المصرية ، اذ غادرت القوات المشتركة عسقلان ، في ١٥ اكتوبر ١١٦٩ ، فوصلت الفرما بعد تسعة ايام ، وتحركت منها صوب دمياط •

وبينما كانت هذه القوات في طريقها برا نحو هذا الميناء ، كان اسطول مؤلف من سفن صقلية وبيزنطية يقترب منها بحرا • وكان سبق

الى دمياط ، تقي الدين عمر ، ابن اخي صلاح الدين ، وكذا الشهاب خاله ، فدخلاها قبل ان يلقي الصليبيون عليها حصارهم ، واخذ صلاح الدين من ناحيته يمدها بالسلاح والذخائر ، على حين ارسل الى نور الدين يشكو اليه ما هو فيه من المخاوف ،فجهز اليه نور الدين طائفة من العسكر ، كما سار نور الدين بنفسه للاغارة على بعض البلاد الصليبية ، أملا في تخفيف الحصار عن دمياط • وبذا فشل الحصار وجلت هذه الحملة المشتركة عن دمياط اواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ (٣٢)

ويعتبر فشل الحملة المشتركة على دمياط نقطة تحول في تاريخ الشرق الادنى • ولم يلبث صلاح الدين ان عمد الى اتخاذ خطة الهجوم ضد الصليبيين ، فاغار على الرملة وعسقلان ، وهاجم داروم وغزة في ديسمبر سنة ١١٧٠ واحدث بأسوار داروم الخارجية ثغرات ، وقتل عددا كبيرا من السكان ، ثم عاد الى القاهرة • ثم انه قبل عودته الى القاهرة ، عمر مراكب وحملها الى ساحل ايلة على الجمال ، وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالمقاتلة ، وزحف الى ايلة ، وكان قد حصنها الصليبيون فاستولى عليها (٣٣) •

غير ان نور الدين لم يهتم لهذه الحركات الهجومية التي قام بها صلاح الدين ضد الصليبيين ، اذ كان اهتمامه منصرفا وقتذاك الى وجوب انتهاز الفرصة لاعلان الخلافة العباسية في مصر • وارسل الى صلاح الدين يلزمه بذلك الزاما في يناير سنة ١١٧١ ، وفي الوقت نفسه اخطر نور الدين الخليفة العباسي بما قام به (٣٤) • واتفق مرض الخليفة

العاضد وقتذاك ، فاستشار صلاح الدين الامراء في قطع الخطبة له ، فمنهم من اقدم على تأييده ومنهم من خاف من الموافقة على ذلك ، وكان بمصر وقتذاك رجل اعجمي اسمه الخبوشاني ، فأعلن استعداده لاعلان سقوط الخليفة الفاطمي • فالقى بالفسطاط اول خطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء بنور الله في اول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ م) ، ولم يحتج أحد ، وكان العاضد اشتد به المرض، فلم يدر شيئا عما حدث ، ومات في ١٣ سبتمبر سنة ١١٧١ م (٣٥) •

ووصل الى نور الدين التشريف من الخليفة العباسي ، وتقلد بالسيفين اشارة الى تقليده الاقليمين الشام ومصر ، ولما وصل التشريف الخليفي الى مصر لبسه صلاح الدين وركب به • والواضح ان مصر أصبحت تدين بالمذهب السني ، وأنها خضعت لسلطان الخليفة العباسي من جديد ، غير أن موقف صلاح الدين ظل غامضا ، اذ أن نور الدين اعتبره صراحة نائبا عنه ، على حين بعث صلاح الدين مباشرة الى بغداد رسولا يحمل البشارة بسقوط الخلافة الفاطمية ، فصار يقرأها في سائر البلاد الاسلامية ، وفي كل قرية ومدينة حتى وصل حاملها الى بغداد ومن هنا بدأت الجفوة بين نور الدين وصلاح الدين (٣٦) •

ومن مظاهر الجفوة بينهما ، أن نور الدين أرسل الى صلاح الدين سنة ١١٧١ يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى حصن الكرك ومحاصرته ، على أن يجتمعا سويا لمنازلة الصليبيين واخراج حاميتهم من هناك فخرج صلاح الدين من القاهرة • ولما جاء الخبر بذلك الى نور

الدين رحل من دمشق الى الكرك في سرعة ، وأقام هناك حتى أتـاه كتاب صلاح الدين يعتذر فيه عن القدوم ، باختلال أحوال مصر • وأنه يخاف عليها اذا بعد عنها (٣٧) • وكان السبب في عودة صلاح الـدين حسبما جاء في رواية أخرى ، أنأصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين • وقيل وقتذاك أن نور الدين عزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين منها ، فجمع صلاح الدين أهله ، وفيهم والـده وخاله وسائر الامراء • واستشارهم فيما ينبغي أن يفعل • فلم يجبه أحد منهم بشيء ، وأشار عليه أبوه بضرورة الامتثـال الى نور الديـن • ونصحه بأن يعتذر اليه (٣٨) •

وفي السنة التالية ، سنة ١١٧٢ • أرسل صلاح الدين الى نـور الدين هدية ، فاستقبلها نور الدين . لكنه اكتفى بالاشارة فـي خطاب الشكر الى ضرورة التعاون على تحصين ثغور الشام وشحنها بالجند والامداد (٣٩) •

وينبغي ان يضاف هنا أن الجفوة بين نور الدين وصلاح الدين لم تكن مسألة خلاف شخصي ضيق ، بل مسألة جنوح من ناحية صلاح الدين لتأسيس دولةأيوبية سنية بمصر ، بحيث تكون هذه الدولة مركز العمليات الحربية ضد الصليبيين ، وذلك بعد ان تتخلص مـن جميع مشاكلها الداخلية • أما نور الدين فاعتبر سوريا المـوضع الاساسي الذي ينبغي أن تجري على أرضها منازلة الصليبيين ، ولم تكن مصـر عنده الا مصدر الدخل الذي يسد نفقات الجهاد •

ولذا رأى صلاح الدين أن واجبه الأول يقضي بانشاء جيش جديد ، يبلغ من القوة ما يكفي لضبط أحوال مصر وتأمين أطرافها ، وأن ينفق كل ما لديه من الموارد أولا لاتمام ذلك • ومن هذا الجيش أرسل صلاح الدين قوات الى النوبة واليمن • وذلك أن الجند السودانيين الذين هربوا من مصر تجمعوا في النوبة • ثم لم يلبثوا أن ساروا شمالا سنة ١١٧٢ (٥٦٨ هـ) • لمهاجمة أسوان ، والتمهيد لاعادة الحكم الفاطمي ، فأنفذ صلاح الدين أخاه توران شاه لدفع هذا الخطر وشحن مراكب كثيرة في النيل بالرجال والمؤونة • ونزل توران شاه بقلعة ابريم واستولى عليها ، ثم مضى بحملته الى داخل بلاد النوبة • وأنفذ جماعة من الأكراد أمضت في اغاراتها حتى دنقلة • ثم استقرت حامية منهم في قلعة ابريم ، وترتب على جهود توران شاه الحربية أن حصل على اقطاع اشتمل على الجهات الواقعة بين قوص وأسوان وعيذاب (٤٠) •

وفي هذه السنة اختمرت في رأس صلاح الدين فكرة فتح اليمن ليجعل منها موئلا لدولته الناشئة ، اذا نجح نور الدين في اخراجه من مصر ، ووجد صلاح الدين من الأسباب ما يبرر بها هذا العمل عند نور الدين ، بأنه انما قصد من فتح اليمن القضاء على النفوذ الفاطمي ، واعادة المذهب السني (٤١) • وأرسل أخاه توران شاه أواخر سنة ١١٧٣ ، لتنفيذ ذلك المشروع ، على حين خرج هو قاصدا الشوبك والكرك ، وقصد بذلك أن يثبت اخلاصه وولاءه لنور الدين (٤٢) •

على أن نور الدين كان يؤثر أن يقرر صلاح الدين له مالا يستعين به على نفقات الجهاد ، وانتظر من صلاح الدين أن يقوم بذلك من تلقاء نفسه ، غير أن صلاح الدين أغفل ذلك ، واكتفى بأن أرسل هدية لم تعجب نور الدين ، وعندئذ ارسل نور الدين سنة ١١٧٣ • الى مصر متولي ديوان الاستيفاء ، وطلب اليه أن يتقاضى من صلاح الدين خراج البلاد • وأن يعمل أوراقا بذلك (٤٣) •

وفي هذه الأثناء ، كان جماعة من الشيعة يتآمرون لاعادة الدعوة الفاطمية • واشترك في هذه المؤامرة عمارة اليمني • واستقر الرأي على تنفيذ هذه المؤامرة ، وصلاح الدين بعيد عن مصر • يحاول الاغارة على الشوبك والكرك ، وتوران شاه باليمن • واتفق المتآمرون على استدعاء الصليبيين من صقلية والشام ، وكاتبوا أيضا سنانا شيخ الحشيشية بالشام ، يذكرون له أن الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ، وطلبوا منه أن يبعث من قبله من يقوم باغتيال صلاح الدين (٤٤) • غير أن المتآمرين لم يصلوا الى اتفاق ، وتم القبض على زعمائهم في دورهم ، وجرى شنقهم ، وتعليق جثثهم على أبواب القاهرة ، ومن بينهم عمارة • ووقع الاحتياط على ولد العاضد وغيرهم من أهله ، وتجمع من أموال المقبوض عليهم : ما أمر صلاح الدين بحمله الى الشام ليستعين به نور الدين على الجهاد (٤٥) •

ثم توفي نور الدين في أبريل سنة ١١٧٤ ، وتهيأت الفرصة لصلاح الدين لاعلان أغراضه • ولتحقيق هذه الأغراض ، كان لا بد له من السيطرة على الطفل اسماعيل الذي خلف أباه نور الدين في الحكم وسار صلاح في ذلك سيرا واضحا •

الفصل الثالث

قيـام الدولــة الايوبية

سبقت الاشارة الى تطلع الأيوبيين ــ منذ حملات شيركوه ــ الى اقامة ملك لهم في مصر ، ودل على ذلك ما حدث من امتعاض التــرك لتعيين صلاح الدين وزيرا بعد وفاة عمه شيركوه ، وما وقع من الجفوة بين صلاح الدين ونور الدين ، وما لجأ اليه صلاح الديـن من اتخاذ التدابير اللازمة للتمكين لأسرته في البلاد ، من حيث الاستعانة بهم في الادارة والجيش وانشاء جيش جديد ، وتوزيع الاقطاعات على أجناده وأفراد أسرته ، والقضاء على بقايا المقاومة الفاطمية ، والتقرب الــى المصريين برفع ما تقرر من المكوس • واستشعر نور الدين نوايا صلاح الدين ، ولولا المشاكل التي واجهها ، ثم وفاته سنة ١١٧٤ لسار الــى مصر وانتزعها من صلاح الدين •

وأدرك صلاح الدين أنه ينبغي مواصلة السياسة التي بدأها زنكي وجرى عليها نور الدين ، والتي تقضي بتوحيد كلمة المسلمين والقضاء على القوات الصليبية ، وأنه حان الوقت الذي يتولى فيه صلاح الدين القيام بدوره في هذا الجهاد •

ذلك أن أمراء نور الدين تنافسوا في السيطرة على اسماعيــل ، وحرصوا منذ البداية ألا يتدخل صلاح الدين في هذا الأمر ، فلم يسع

صلاح الدين وقتذاك الا أن يعترف بسلطنة الملك الطفل ، وأن يـأمر بذكر اسمه في خطبة الجمعة ، وضرب السكة باسمه . على أن ما حدث من تنازع أمراء نور الدين على الوصاية على اسماعيل ، ومصالحة أمراء دمشق لملك بيت المقدس على أن يدفعوا له شيئا من المال ، أثار صلاح الدين ، فكتب الى ابن المقدم عقب سماعه بوصايته : « لو علم نـور الدين أن فيكم من يقوم مقامي ، أو يثق اليه مثل ثقته الي ، لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لـم يعهد الى أحد بتربية ولده ، والقيام بخدمته غيري (١) . وفي رسالة أخرى يقول « أنا أحق بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده ، ولـو استمرت ولاية هؤلاء القوم ، تفرقت الكلمة ، وطمعت الكفـار في البلاد . انا لا نؤثر للاسلام وأهله ، الا ما جمع شملهم وألف كلمتهم ، وللبيت الاتابكي الا ما حفظ أصله وفرعه ، أو دفع ضـره ، وجلب نفعه » (٢) .

وأحس صلاح الدين برسالته ، بأنه الوارث لنور الدين ، وأن من واجبه اعادة بناء ما تداعى من بناء الدولة . فعزم على المبادرة الى حسم الأمور ، غير أنه اعترضه أمران : الاول وصول أسطول من جهة وليم الثاني ملك صقلية . والثاني حركة الكنـز . أما السبب في قـدوم الأسطول فيرجع الى ما سبق ذكره من مكاتبة أنصار الفاطميين لملـك صقلية والصليبيين ليقصدوا مصر ، فوصل الى الاسكندرية في يوليه سنة ١١٧٤ . على أن الصليبيين رأوا في شجاعة أهل الاسكندرية وقوة سلاحهم ما راعهم ، فضلا عن تدفق الامدادات عليهم من قبل صـلاح

الدين • فأحرز المسلمون النصر الباهر ، وبلغ من شجاعتهم أنهم اقتحموا البحر على بعض المراكب فخسفوها وأغرقوها ، وولت بقية المراكب هاربة • واستولى المسلمون على مقادير كبيرة من الآلات والأسلحة (٣) •

أما الكنز فهو رجل من قادة الفاطميين ، نزح الى أسوان وأقام بها • والتف حوله السودانيون فأوهمهم بأنه في استطاعته أن يعيد الدولة الفاطمية • فاجتمع اليه عددكبير من السودانيين وجماعة على المذهب الاسماعيلي ، ثم توجه بهم الى قوص وأعمالها ، فجرد اليه صلاح الدين جمعا كبيرا من العسكر ، فحلت الهزيمة بهذا الثائر وشيعته ، وقضى بذلك على آخر محاولات الفاطميين فلم تقم لهم بعدها قائمة (٤) •

ولكيلا يترك صلاح الدين من الأثر ما يدل على استعجاله للسير لى الشام ، توجه الى أيلة في سبتمبر سنة ١١٧٤ للوقوف على أحوال لمراكز التي سبق أن حصنها باقليم سينا • ثم سار نحو بصرى ، ولم يلبث أن دخل دمشق في ٣٠ أكتوبر سنة ١١٧٤ ، وتسلم القلعة وعين عليها أخاه طغتكين • بعد أن استمال متوليها وبذل له كل ما يطلبه ؛ وبعد أن أعلن أنه ما جاء الا لتربية اسماعيل بن نور الدين وتدبير دولته ، فأبقى الخطبة والسكة باسمه • وألقى بعض المكوس • ومن الطبيعي أن يكون لذلك أثره في نفوس الأهلين (٥) • ثم اتجه شمالا فاستولى على حمص وحماه في ديسمبر سنة ١١٧٤ • ثم تقدم بعدئذ

لمحاصرة حلب ، غير أنه لقي معارضة شديدة من قبل الأمراء ، واشتد حنق اسماعيل ، وخاطب آهل البلد قائلا : « قد عرفتم احسان أبي اليكم، ومحبته لكم وسيرته فيكم ، وأنا يتيمكم ، وقد خان هدا الظالم الجاحد احسان والدي اليه ، يأخذ بلادي ، ولا يراقب الله والخلق » (٦) ولم يسع الحلبيون الا أن يطلبوا النجدة من الاسماعيلية،وعينوا لهم ضياعا، فجاء منهم عدد من فتاكهم ، وتقدم أحدهم لمهاجمة صلاح الدين ، غير أنه نجا من اعتدائهم • واستعان الحلبيون أيضا بأمين الموصل للابقاء على وحدة الأسرة الزنكية • وكتب الحلبيـون الى كونت طرابـلس يستعدونه على صلاح الدين ، فتوجه بقوة من الصليبيين لمهاجمة حمص فلما سمع صلاح الدين بذلك انسحب من حلب ، ونهض لانقاذ حمص من يد الصليبيين في مارس سنة ١١٧٥ • ولم يلبث أن استولى علـى بعلبك (٧) •

وأدرك صلاح الدين ما أصاب الوحدة الاسلامية من التصدع ، وطمع الصليبيين في الأملاك الاسلامية ، وأنه ليس في استطاعته وهو بمصر أن يناوىء الصليبيين ، فبعث الى الخليفة العباسـي ببغداد في سنة ١١٧٥ برسالة تتضمن الاشارة الى ما بذله من جهود لخدمة الخلافة العباسية ، بما قام به من جهاد العدو زمن نور الدين ، وفتح مصر واليمن وبلاد من أطراف المغرب ، وتأمين الطريق الى الحجاز واليمن ، والقضاء على الفتن الداخلية في مصر ، وأنه لا يستطيع فتح بيت المقدس ومنازلة الصليبيين ، وهو بمصر لبعد المسافة • وانقطاع العمارة ، وكـلال الدواب التي بها على الجهاد قوة ، واذا جاورناه كانت المصلحة بـادية

والمنفعة جامعة واليد قادرة ، والبلاد قريبة والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة والعساكر كثيرة • وأنه قدم الى الشام لاصلاح الأمور وحفظ الثغور وخدمة ابن نور الدين وكفالته ، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويبالغون في ظلمه ••• ثم طلب من الخليفة تقليدا جامعا بمصر والشام والمغرب واليمن • وكلما تشتمل عليه الولاية النورية • وكلما يفتحه الله للدولة العباسية ، ولمن يقبمه من أخ أو ولد من بعده ، تقليدا يتضمن للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديدا (٨) •

على أن عساكر الموصل وحلب اجتمعت وتقدمت الى حصار حماه، وراسلوا صلاح الدين الذي أقام بحمص ، في أمر الصلح ، فقبل أن يرد عليهم ما أخذه من الحصون ، وأن يقنع بدمشق على أن يكون نائبا عن الصالح « منتميا اليه ، والخطبة والسكة له . ، وأن يرد عليهم كل ما اخذه من الخزانة • فلما رأوه مجيبا لكل ما طلبوه ، وتبين لهم قلة عسكره ، اشتطوا عليه وتغالوا في مطالبهم ، فرفض صلاح الدين اجابتهم الى شيء مما طلبوه ، وجرت بين الفريقين معركة عند موضع في سفح الجبل ، اسمه قرون حماه (ابريل سنة ١١٧٥) ، فلم يثبت عسكر الموصل ، وعادوا مهزومين الى حلب • ومن نتائج هذا الانتصار ان أمر صلاح الدين بقطع الخطبة للصالح وازالة اسمه من السكة في بلاده • غير ان الحلبيين سعوا الى الصلح على أساس الاعتراف بالأمر الواقع ، أي ان يحتفظ صلاح الدين بما استولى عليه من البلاد ، وأن تجتمع الجيوش الاسلامية لقتال الصليبيين ، ووقعت الأيمان على ذلك (٩) •

ولم تمض الا أيام قليلة على عقد هذا الصلح ، حتى قدمت الرسل من جهة الخليفة بالتشريفات السلطانية والتقليد بما أراده صلاح الدين من الولايات ، فأفاضوا الخلع عليه وعلى أقاربه . وعلى الرغم من أن معظم الأمراء رأوا وقتذاك أن هذا ليس الا اجراء شكليا . فان صلاح الدين اعتبره أمرا عظيم الأهمية . فاذا كانت الحرب التي أعلنها ضد الصليبيين جهادا حقا ، تحتم عليه أن يتولاها ويقودها بنفسه ، وأن يراعي في كل أعماله أحكام الشريعة الاسلامية . فالحكومة التي نصبت نفسها للجهاد في سبيل الله ، لا ينبغي فحسب أن تكون حكومة شرعية ، حظيت بالتفويض من قبل الخليفة ، بل ينبغي أيضا أن يمتد حماسها الديني الى تسيير الادارة ومعاملة السكان . والواقع ان صلاح الدين قام فعلا اثناء السنوات الأولى له في مصر ، بما سار عليه نور الدين من سياسة ، فألغى كل ما يخالف الشريعة من الضرائب والمكوس وأول عمل قام به في دمشق ، بعد الاستيلاء عليها ، انه ألغى هذا النوع من الضرائب غير المشروعة . هذا هو النهج الذي درج عليه في كل ما أضافه الى دولته من ممتلكات ، وأشار به في كل رسائله الى نوابه وعماله . واذا خالف أحد منهم أوامره ، تعرض للعقاب الشديد والعزل من الولاية . وتشير المصادر صراحة الى دهشة الأمراء والناس من زهده في المال وأنه لم يعتبر المال الا وسيلة لمواصلة الجهاد أو بذله لغيره من الناس . وهذه الحقيقة كانت معروفة أيضا عند الصليبيين أنفسهم . ففي أوائل سنة ١١٧٥ ، حين تم الاتفاق بين ريموند والحلبيين لمناهضة صلاح الدين ، لاحظ وليم الصوري « أن كل ازدياد في قوة

صلاح الدين ، يثير فينا الخوف والرعب ، لأنه كان رجــلا حكيما اذا أشار ، مقداما في الحرب ، اذا نهض لها ، بالغ السخاء اذا أعطى • ومن الخير ان نبذل المساعدة للملك الطفل (اسماعيل) لا مراعاة لصالحه ، بل لتشجيعه باعتباره عدوا لصلاح الدين » (١٠) •

وليس ثمة ما هو أقوى من هذا العذر • الذي أشار اليه وليــم الصوري ، في تبرير السياسة التي انتهجها صلاح الدين • اذا لم يعد في يد الصالح الا امارة صغيرة لا تزيد في مساحتها على ما كانت عليه زمن الحمدانيين • أما حاشيته فانه اشتد حماسهم الى أن يتولى القتال ضد صلاح الدين الأمير الزنكي سيف الدين غازي الــذي يحكم في الموصل ، وحنق هذا الأمير الزنكي على الاتفاق الذي تم بــين حلب وصلاح الدين وزاد سخطه لما حصل عليه صلاح الدين من تقليد من الخليفة • وهذه الكراهية لا ترجع فحسب الى ما حل من الهوان والذلة بأمير من البيت الزنكي حين أصبح تابعا لأحد رجال أبيه ، بل الى أكثر من هذا ، وهو أن صلاح الدين كان كرديا استطاع أن يتحدى مــا اتخذه الترك لأنفسهم منذ قرن من الزمان من السيادة والسلطان ،وصار يبذل ويوزع ما يفتحه من البلاد على أقاربه • فعلى الرغم من تجــرد صلاح الدين من الأغراض الشخصية ،.فانه رأى أن الوسيلة الوحيدة التي يتحقق بها هدفه هي أن يجعل السلطة كلها في يديــه ، يعهد بها الى من يثق به من الأفراد • ودفعه الى هذا الاتجاه ، موقف الزنــكيين منه ، حين تبين له ألا فائدة في الاعتماد على المحالفات (١١) •

لم يكف غازي أمير الموصل عن انكار الصلح الذي عقده الحلبيون ، وحملهم على نقضه ، وانفذ اليهم من أخذ عليهم المواثيق ، ثم توجه من قبله رسول الى دمشق ، ليأخذ له من صلاح الدين العهد والميثاق ، ويكشف ما عنده من نوايا • فلما خلا صلاح الدين بالرسول طالبه بنسخة اليمين ، فغلط الرسول ؛ واخرج من كمه يمين الحلبيين للغازي وناولها له ، فتأملها وأخفى سره ، واطلع على ما اتفقوا عليه وردها اليه • وقال « لعلها قد تبدلت » فعرف الرسول أنه اخطأ ، وقال للسلطان « ان من شروط أيمان الحلبيين لغازي أنهم لا يعتمدون أمرا الا بعد مراجعتهم لنا واستئذانهم ايانا » • وتحقق صلاح الدين أنهم نقضوا العهد ، فكتب الى أخيه العادل نائبه بمصر ، يطلب اليه اعداد العساكر والخروج في فبراير سنة ١١٧٦ (١٢) •

أما غازي أمير الموصل فحشد عساكره ، واستنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما من الأمراء التركمان ، وتوجه بهذه الجيوش الى حلب ، فاجتمع اليهم الحلبيون ، ووعدهم الصليبيون بالمساعدة بعد أن اطلقوا سراح بعض أمرائهم • وتحركت عساكر الموصل وحلب ، وهي تربو على عشرين ألف مقاتل ، الى تل السلطان في أبريل سنة ١١٧٦ • وعلى الرغم من أن قوات صلاح الدين لم تزد على ستة آلاف فارس ، فانه استطاع بفضل قيادته الحكيمة وشجاعته أن يهزم خصومه ، وأن يأسر جماعة من أمرائهم الأكابر • فمن عليهم وأطلقهم واستولى صلاح الدين على جميع معسكرهم ، وعلى سرادق غازي فأرسل الى غازي ما عثر عليه في أمتعته من الحمام والبلابل

والببغاوات ، مع رسالة تفيض بالسخرية ، أشار فيها الى أن يحسن به أن يركن الى مباذله ولا يشغل نفسه بالمغامرات الحربية . اذ أن السلطان وجد معسكر الموصل لا يختلف عن حانة من الحانات ، بما اشتمل عليه من الخمور وأدوات اللهو فضلا عن المغنيين والمغنيات ، وحين عرض هذه الغنائم على جنده دعا الله أن يحفظه من هذا المنكر (١٣) .

وتوقف صلاح الدين عند اعزاز فحاصرها ثمانية وثلاثين يوما ، سنة ١١٧٦ فوثب عليه ــ أثناء الحصار ــ أحد الملاحدة (الباطنية) فضرب رأسه بسكينة ولولا المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله ، ومنذئذ صار صلاح الدين يحترز على نفسه . وبعد أن استولى على اعزاز ، توجه الى حلب فحاصرها في يونيه سنة ١١٧٦ فراسله الحلبيون وتذللوا له طالبين الصلح ، فأجابهم الى ذلك ، فأبقى للصالح حلب وأعمالها وأعطاه اعزاز اكراما لابنة صغيرة لنور الدين ، ثم حلف الجميع ، ودخل في الصلح المواصلة وأهل ديار بكر في يوليه سنة ١١٧٦ ، فأقسموا جميعا على أن يجتمعوا على كل من ينقض الصلح (١٤) .

أدرك صلاح الدين أنه من الخطأ أن يدفع عن حلب القوة الضخمة التي استعان بها في حصارها ، على أنه كان لزاما عليه من جهة أخرى ان يثأر لنفسه من الحشيشية . وهؤلاء الحشيشية استقروا منذ ربع قرن بالاقليم الجبلي الذي يمتد بين اللاذقية وطرابلس ، ومن معاقلهم الأساسية مصياف . وقدموس . والخف . والخوابي والعليقة .

وتقع كلها على مرتفعات منيعة ، فنازل في يوليه سنة ١١٧٦ حصنهم مصياف وأوسعهم قتلا وأسرا وخرب ديارهم • ثم عاد الى القاهرة في سبتمبر سنة ١١٧٦ (١٥)

والتفت صلاح الدين الى توطيد مركزه في مصر ، واعداد ما يحقق سياسته في داخل البلاد كيما يتفرغ بعدئذ الى جمع وحدة المسلمين والقضاء على قوة الصليبيين ، فشرع في بناء القلعة التي على جبل المقطم ، فأمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة حتى يبلغ ساحل القاهرة ، وشرع في هذا العمل منذ سنة ١١٧١ • على أن اختيار الموقع دل على ما اختمر في ذهن صلاح الدين من فكرة ، وهي أن جعل الفسطاط والقاهرة يجمعهما سور واحد ، واختار للقلعة موضعا يكون من القرب ما يسهل الاشراف عليها والدفاع عنها ، وتكون من البعد ما يجعلها ملاذا يعتصم به من ضربة مفاجئة • وتولى بهاء الدين قراقوش بناء القلعة • وللافادة من الأسوار الشمالية ، والى الشرق من سور بدر الجمالي • اكتفى صلاح الدين بمدها حتى بلغت نهر النيل ، وبلغ الطرف الآخر منها موضع القلعة • وأقام في موضع يقع الى الشمال الشرقي ما هو معروف باسم برج الظفر (وموضعه الدراسة الحالية) ، وفي جنوب الفسطاط شيد سورا جديدا يبدأ من النيل ويتجه نحو القلعة • على أن هذا السور لم يتم منه الجزء القريب من القلعة • واستغرق تشييد القلعة زمنا طويلا ، فالنقش المؤرخ بتاريخ سنة ١١٨٠ والكتابة الواردة بنفس سنة ١١٨٣ تشير الى أن بناء القلعة

التي تجاور القاهرة جمع بين الافادة في جمالها (١٦) ، والموقع في مناعتها وحمايتها (١) •

واهتم أيضا باعادة تنظيم الأسطول ، وعنى بالحركة الاصلاحية السنية في مصر مثلما فعل نور الدين في الشام • فبدأ هو وأخوه العادل في انشاء المدارس الجديدة • وفي الوقت ذاته شرع ابن أخيه تقي الدين عمر في اقامة مملكة له في الغرب (١٧) •

على أنه ينبغي ألا يتبادر الى الذهن أن صلاح الدين أغفل أمر الصليبيين في المرحلة الأولى من بناء دولته • فالواقع أن ما قام به صلاح الدين من حملات ضد الصليبيين يصح تقسيمها الى مرحلتين متميزتين• ففي المرحلة الأولى انصرف الى اقامة ملكه ومنازلة الزنكيين واستخلاص أملاك نور الدين ، وفي هذه المرحلة الأولى وهي التي امتدت في سنة ١١٧١ الى سنة ١١٧٨ لم يكن القصد من حملاته فيها ضد الصليبيين سوى رد الصليبيين عن مهاجمة أملاكه في مصر والشام ، مثلما حدث من مهاجمة أسطول صقلية للاسكندرية سنة ١١٧٤ • ومهاجمة حمص سنة ١١٧٥ ومنازلتهم لحصن حارم سنة ١١٧٧ • وعمد صلاح الدين أحيانا الى مهادنتهم • والى منازلتهم والاغارة على بلادهم أحيانا أخرى • وأهم ما اتخذه من تدابير ضد الصليبيين وقتذاك أنه أعاد تنظيم قياداته الحربية في الشمال • فجعل تقي الدين عمر على حماه •

(١) بدأ صلاح الدين في انشاء قلعة الجبل ١١٧٦ وتم بناؤها سنة ١٢٠٧ (ابن واصل ٢ : ٥٤ حاشية/٢)

فكان في مقابلة صاحب أنطاكية ٠ ورتب ناصر الدين بن شيركوه على حمص ٠ لوقف حركات ريموند أمير طرابلس ٠ وطلب الى أخيه العادل أن يبعث اليه من مصر نحو ألف وخمسمائة فارس والمؤونة ٠ نظرا لما حدث بسوريا وقتذاك من المجاعة بسبب عدم سقوط الأمطار (١٨) ٠

ثم أوغل في أرض العدو (يونيه ١١٧٩) والتقى بالصليبيين بقيادة بلدوين الرابع في مرج عيون ٠ فأحرز نصرا حاسما ٠ ووقع عدد كبير من فرسانهم في أسره (١٩) ٠

غير أن صلاح الدين لم يغب عن باله الحصن الذي أقامه الصليبيون عند بيت يعقوب في أكتوبر سنة ١١٧٨ على مسافة يوم من دمشق ونصف يوم من صفد وطبرية وتحكم الداويه الذين تتألف منهم حامية الحصن في طريق القوافل ٠ بل انهم منعوا مرور قوافل المسلمين ٠ وكان لا بد اذن من القتال ، والى هذا التاريخ سنة ١١٧٩ يرجع حسبما ورد في نقش ، قيام صلاح الدين بترميم استحكامات دمشق — فهاجم صلاح الدين الحصن في ٢٩ أغسطس سنة ١١٧٩ ونصب المنجنيقات عليه ، وألح المسلمون القتال خوفا من وصول امداد للداوية ووزع السلطان جوانب البرج على الأمراء ٠ ونقب النقابون السور وألقوا فيه النار فسقط الحصن في سبتمبر سنة ١١٧٩ وأسر المسلمون كل من فيه ٠ وأطلقوا سراح الأسرى المسلمين وحصل المسلمون على غنائم وفيرة ، (٢٠) ولم يبرح صلاح الدين مكانه حتى تم هدم الحصن الى الأساس ، وردم آبار المياه به ٠ وعلى الرغم من أن هذه الحروب لم تحدث تغييرا في وضع الممتلكات ، فالواقع أن صلاح الدين فرض ارادته على الصليبيين ، وتقررت الهدنة بين الفريقين (٢١) ٠

الفصل الرابع

توحيد الجبهة الاسلامية

وفي كل هذه العمليات الحربية ، لم يظهر الزنكيون في حلب والموصل من الاستعداد ، ما يدل على أنهم سوف يساعدون صلاح الدين في استعادة فلسطين من يد الصليبيين . وما أحرزه صلاح الدين من انتصارات ، جعلته يدرك أن النضال ضد الصليبيين لن يصل الى النتيجة المرغوبة بقوات دمشق وما يجري الاستغناء عنه من القوات المصرية ، فالقوة التي يستطيع صلاح الدين حشدها في وقت واحد . ومقدارها ستة آلاف جندي ، ليست كافية في حرب حاسمة . وطالما بقي الأمراء النوريون في حلب يخضعون لزعيم آخر ، فسوف يضحون خطرا قويا على جناحه ، واذا حدث أن انحازو اليه ؛ فسوف يؤدي هذا الى ازدياد عداوة الزنكيين في الموصل له ، بعد أن ظلوا ملتزمين الحياد ، برغم ما توافر لهم من قوات تبلغ ٦ آلاف جندي ، والنتيجة الحتمية لذلك ، أن صلاح الدين لن يستطيع أن يحشد قوات سوريا ومصر معا ضد الصليبيين ، طالما تعرض جيشه ومؤخرته لهجمات الموصل ولا بد له اذن من أن يسيطر على قوات الموصل ويدمجها في قواته الاقليمية لنصرة الجهاد . ومن الواضح أنه لا يمكن تحقيق هذا الغرض الا بنزاع مسلح ، غير أن صلاح الدين أبى أن يرفع السلاح في وجه أقوام سوف يتخذ منهم حلفاء ، ووجد أن الاقناع والمهارة السياسية

يحرز بهما من النتائج ما لا يحرزه بالالتجاء الى القتال والنضال •
وأدرك صلاح الدين أنه يمتلك ميزة قوية • اذ أن دعوته بأنه الوارث الروحي لنور الدين استقرت وأضحت راسخة عند المسلمين ، كما أن القوى الأدبية التي كانت في جانب نور الدين انحازت الى جانبه •
وعلى الرغم من أن مصالح الزنكيين نجد لها تأييدا وتشجيعا بدافع الحماس المحلي والتقليد الحربي ، فان صلاح الدين اكتسب تأييد الحزب القوي في كل من حلب والموصل •

وما وقع بين الزنكيين من منازعات ، وما حدث بينهم سرا وعلانية من اتصالات بالصليبيين ، قضي على آمالهم وأغراضهم ، بينما استطاع صلاح الدين بمهارته وكفايته ان يجعل الناس ينظرون اليه على أنه صاحب الحق الشرعي في الحكم • وأفاد من سياسة نور الدين تجاه دمشق ، بمساعدته الحزب الضعيف بها ، وما تثيره انتصاراته من الحماس عند أهل المدينة ، وما اشتهر به من مراعاة ما فرضته المعاهدات من قيود والتزامات ، فضلا عن الاعتراف بما للخليفة من سيادة •

وتاريخ صلاح الدين في الفترة الواقعة بين سنة ١١٧٩ ، وسنة ١١٨٥ ليس الا سجلا لما أحرزه من تقدم مستمر لتحقيق هذا الهدف •
فما جرى من حملات ومفاوضات مع أمراء الجزيرة والزنكيين في الموصل ، وما بعث به من الرسل الى الخليفة ، لا بد من تفصليها ، وارتبط بهذا الاتجاه الأساسي في قصته حادثان آخران : الأول الحروب المستمرة ضد مملكة بيت المقدس ، والثاني مشاكل الادارة الداخلية

والعلاقات مع أقاربه وامرائه • ولتوضيح ذلك ، نعالج كل أمر منهـا على حدة (١) •

ففي أثناء الحروب التي حدثت سنة ١١٧٩ ، طلب قلج أرسلان • سلطان سلاجقة الروم الى صلاح الدين أن يعيد اليه حصن رعبان الذي استولى عليه سنة ١١٧٦ من يد الصالح بن نور الدين ، اذ أن هـذا الحصن كان أصلا من أملاك قلج أرسلان ، وأعقب هذا الطلب بحملة أرسلها لمحاصرة الحصن ، غير أن تقي الدين عمـر صاحب حمـاه ، استطاع أن يقهر الجيش السلجوقي ويرده خائبا (٢) •

وفي أوائل سنة ١١٨٠ نشب نزاع بين السلطان السلجوقي وبين نور الدين الأرتقي صاحب حصن كيفا حول مسألة داخلية ، ومـع أن نور الدين يدين بالولاء لأمير الموصل ، فانه استنجد بصلاح الـدين ليسانده ضد السلاجقة ولعله توسل الى ذلك بمعاهدة حلب سنـة ١١٧٦ التي سبق ذكرها • وهذه الفرصة كان يترقبها صلاح الدين ، اذ أن رغبته في بسط سلطانه على الموصل تطلب منه أولا أن ينزع من سيادة الموصل ، أمراء الجزيرة وديار بكر الذين يتألف من رجـالهم أكثر من نصف جيش الموصل • وأقوى هؤلاء الأمراء ، أميرا حصـن كيفا وماردين ، اللذان لم يقبلا مطلقا الخضوع لسيطرة الزنكيـين ، وتقدما فعلا سنة ١١٧٨ ، الى صلاح الدين يطلبان تأييده ومساعدته ضد تدابير السلطان السلجوقي العدائية • على أن صلاح الديـن اغتنـم الفرصة الحاضرة لتحقيق غرضه ، وليفرض سلطانه على ديار بكر •

وبفضل الهدنة التي عقدها مع بلدوين في سنة ١١٨٠ ، تهيأت له الفرصة ليتوجه بجيشه الى أطراف ممتلكات السلاجقة • والواقع أنه لم يقصد بتلك العمليات الحربية سوى ارغام أرسلان على وقف استفزازاته وقبول وساطته • وأدت هذه الخطة الى احراز مكاسب لم يكن يتوقعها • اذ تقابل صلاح الدين مع قلج أرسلان على نهر سنجه في يونيه سنة ١١٨٠ ، وجرى عقد تحالف بينهما كان له أهمية كبيرة لصلاح الدين في السنوات التالية • وأول ثمرة لهذا التحالف ما أحرزه صلاح الدين من الانتصارات على روبين ملك أرمينيا ، الذي أساء معاملة القبائل التركمانية فيبلاده (٣) •

ولما تولى مسعود حكم الموصل بعد وفاة أخيه غازي في يونيه سنة ١١٨٠ ، طلب الى صلاح الدين أن يبقى في يده من الأملاك ما كان بيد غازي ، وهي سروج والرها والرقة وحران ونصيبين • غير أن صلاح الدين لم يجبه الى ذلك ، لأن هذه الجهات داخلة في حوزته بموافقة الخليفة ، وانه لم يتنازل عنها لغازي الا مقابل وعده بمساعدة صلاح الدين بجيوشه ، يضاف الى ذلك حاجة صلاح الدين الى قوات هذه الأقاليم في حملاته ضد الصليبيين •

وفي سنة ١١٨١ ، وأثناء وجود صلاح الدين بمصر ، قام ريجنالد صاحب الكرك ، وهو من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين ، بحشد قواته وعزم على المسير الى تيماء والتوجه منها الى المدينة للاستيلاء عليها • ولما علم بذلك نائب صلاح الدين بالشام ، وهو ابن أخيه

المعروف باسم فرخشاه ، سار بالعساكر الدمشقية الى الكرك وأخـذ ينهب ويخرب جهاته ، وظل مرابطا تجاه القوات الصليبية • ولما أدرك ريجنالد اصرار المسلمين على البقاء حتى يتفرق جمعه ، رجع عن عزمه وصرف جنده ، فعاد فرخشاه الى دمشق (٤) •

واكتملت القطيعة مع الموصل بوفاة الصالح بـن نور الدين في حلب في ٤ ديسمبر سنة ١١٨١ ، بعد أن عهد بالحكم من بعده الى ابن عمه ، مسعود صاحب الموصل « لكثرة عساكـره وبلاده وأموالـه ؛ فيستطيع أن يحفظها من صلاح الدين ويبقى على البيت الزنكي » (٥)

فاستولى مسعود على حلب وما بها من الذخائر والخزائن ، وأقام بقلعتها ، غير أنه أدرك أنه لا يستطيع حفظ حلب مع الموصل من صلاح الدين ، لا سيما بعد أن ألـح عليه أمراؤها في طلـب الزيادات فـي اقطاعاتهم ، وفي طلب الأموال مكافأة لهم على اختيارهم اياه ، فتنازل عن حلب لابن عمه عماد الدين ، مقابل حصوله على امارتـه سنجار ، فقدم عماد الدين الى حلب سنة ١١٨٢ واستقر بها (٦)

ولما بلغ صلاح الدين خبر وفاة الصالح ، عزم على التوجه الـى الشام فكتب الى ابن أخيه تقي الدين عمر يأمره بالتأهب والاستعداد ، وكاتب سائر نوابه بالشام ، وكتب الى الخليفة يشـير الى ما قام بـه الصليبيون بأنطاكية من مهاجمة حارم واغارة عسكر حلب على أملاكه ، واستنجاد الحلبيين بالصليبيين ، ومراسلتهم للحشيشية ، عـلى حـين أن ابن أخيه فرخشاه انصرف الى رد ريجنالد عن مهاجمة المدينـة ،

وصار يردد ما قام به من القضاء على الدولة الفاطميـــة واعادة الشعار العباسي بمصر ، فضلا عن أن الخليفة جعل حلب من البلاد التي قلدها له ، وأنه لم يتركها للصالح الا من أجل أبيه نور الدين « والآن فليرجع كل ذي حق الى حقه ليقنع برزقه (٧) » •

ثم سار صلاح الدين في مايو سنة ١١٨٢ متوجها الى الشام ، بعد أن تفقد أسوار الاسكندرية التي جددها ، وأمر بهاء الدين قراقوش باتمام السور الداير على مصر والقاهرة ، فاتخذ طريقه على أيلة • ولما سمع الصليبيون بمسير السلطان ، وأن معه جماعة كبيرة من التجـار ، اجتمعوا بالكرك للقرب من طريقهم ، لعلهم ينتهزون فرصة من القافلة • على أن صلاح الدين أخذ يقاتلهم في الشوبك ، وصار يشن الغـارات على ممتلكاتهم والواقع أن ذلك لم يكن شغله الشاغل وقتـذاك ، اذ تركزت أنظاره على شمال الشام (٩) •

عزم صلاح الدين على المسير الى البلاد الشرقية والى حـلب ، فبلغه ان المواصلة كاتبوا الصليبيين ، وحرضوهم على مهاجمة الثغـور الاسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم • وفي أثناء طريقه الى حلب جاءه كوكبوري صاحب حران ، وأشار عليه بعبور الفرات ، وان سوف يلقى الترحيب « أينما سار » فرفع الحصار الذي فرضه علـى حلب ، وارتحل في سبتمبر سنة ١١٨٢ يطلب الفرات ، فنزل على البيرة وكاتب ملوك الاطراف • من جاء مستسلما ، سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان واتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة ، فجـاء الى

خدمته صاحب ماردين ورسول من قبل صاحب حصن كيفا ، معلنين اذعانهما • ولم يلبث أن استولى صلاح الدين على الرها والرقة وسنجار وحران ونصيبين (٩) •

لم يبق أمام صلاح الدين الا أن يزحف على الموصل ذاتها ويحاصرها وبرر هذا العمل برسالة طويلة بعث بها الى بغداد ، اتهم فيها أمراء الموصل بأنهم يدفعون الصليبيين الى قتاله ، وأنهم ينزلون الظلم برعاياهم ويستنجدون بعدو الخليفة الأتابك السلجوقي في فارس• واستبد اليأس بمسعود صاحب الموصل ، فصار يلتمس الحلفاء من كل جانب ، وأرسل المؤرخ ابن شداد يسأل الخليفة المساعدة ضد صلاح الدين • فأرسل الخليفة من قبله مبعوثا ، وهو شيخ الشيوخ ، ليتوسط بين الفريقين • وجوهر الموضوع في هذه المفاوضات لم يكن بأي حال من الأحوال قائما على دعوى صلاح الدين في امتلاك امارة الموصل ، انما دارت المحادثات حول الشروط التي بمقتضاها ينحاز أمير الموصل الى صلاح الدين ، ويرسل اليه جيوشه لتسهم في الجهاد ضد الصليبيين • غير أن الأمير الزنكي حرص على التمسك بسيادته على حلب ، وأعلن استعداده لمساعدة اميرها حين يتعرض لخطر من الاخطار• وعلى الرغم من توقف المفاوضات فان صلاح الدين أصر على ألا يترك اقليم الجزيرة الا بعد أن يتم فتحه ، وأخطر الخليفة بما استقر عليه رأيه • فاستولى على سنجار ودارا ثم سار الى حران ، وانما قصد من كل ذلك تضييق الخناق على مسعود صاحب الموصل ، ومن الدليل على ذلك ما وجهه صلاح الدين من الرسائل العديدة الى وزير بغداد ،

والحاحه فيها على الحصول على تقليد بامارة الموصل • وعلى الـرغم من أن طلبه لم يتحقق فانه استطاع أن يحصل من الخليفة على تقليـد بامارة آمد (ديار بكر) • (١٠)

وبادر صلاح الدين سنة ١١٨٣ بمنازلة حصون آمد المنيعة ،وكان صاحبها وقتذاك محمود بن ايكلدي ، آلت اليـه من جهة سـلاطين السلاجقة فنصب عليها صلاح الدين المناجيق وضايقها • ولمـا رأى الناس ذلك ، تهاونوا في القتال ، وجنحوا الى السلامة ، فتسلم السلطان البلد في أبريل سنة ١١٨٣ بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع (١١) •

وما اشتهر به صلاح الدين من السخاء والكرم في معاملة أمير آمد بعد هزيمته ، ثم تسليمه قلعة آمد الى قرا أرسلان أمير حصـن كيفا ، يهدم أساس اتهام صلاح الدين بالطمع والانانية ، وأشار صلاح الدين الى هذا المعنى في رسائله الى الخليفة بعد الاستيلاء على آمد (١٢)

والسؤال الذي له اهميته في شأن توحيد القوى الاسلامية هـو لماذا لم يعط الخليفة تقليدا لصلاح الدين بالموصل ؟ الواقع أن هـذا الامر وحده يعتبر العقبة الأساسية في سبيل توحيد كلمـة المسلمين • واستعادة بيت المقدس • اذ أن اصرار صلاح الدين على أن يدمج في ممتلكاته الجزيرة والموصل ليس له من سبب سوى أن صلاح الدين يرى أن هذه الجزيرة الصغيرة ليست الا المنفذ الذي يؤدي الى اثـارة الجزيرة الكبيرة (الشرق العربي) ، فهي حد التقسيم ومركز المقاومة ،

فاذا اتخذت موضعها السليم في سلسلة المحالفات التي جرت ، ازدادت قوة المسلمين واجتمعت للاشتباك ضد قوات الصليبيين (١٣) • اذ ترتب على سقوط آمد في يد صلاح الدين أن جاءت رسل ملوك الأطراف ، كل منهم يطلب الامان لسيده ويلتمس منه ان يتخذه من جملة أنصاره ومن هؤلاء الملوك صاحب ماردين وصاحب ميافارفين ، فاستجاب صلاح الدين لطلبهم (١٤) •

والتفت صلاح الدين بعدئذ الى تسوية حسابه مع حلب ، وأعمالها فاستولى سنة ١١٨٣ أثناء عودته من آمد ، على تل خالد وعينتاب ، من معاقل حلب الأمامية •

وحاصر صلاح الدين ، حلب وهرع اليه العساكر من أطراف دولته ، وأحب أن ينال حلب من غير قتال ، فأنفذ رسله الى أميرها عماد الدين زنكي (الثاني) وتحقق له ما أراد ، اذ أن عماد الدين حين أدرك انصراف الحلبيين عنه ، لما اشتهر به من البخل وعدم البذل ، مال الى تسليم حلب الى صلاح الدين مقابل الحصول على سنجار ، فأجابه السلطان الى ذلك ، بل انه زاد على طلبه الخابور ، ونصيبين والرقة وسروج ، واشترط عليه ارسال العساكر في خدمة الغزاة ، لأن صلاح الدين اعتبر النورية هم جند الجهاد الذين أدوا فيما مضى خدمات جليلة للاسلام ، واسترعى انتباهه فروسيتهم ، ولم تم الامر سرا بين صلاح الدين وعماد الدين ، عرض زنكي الامر على الأمراء ، فأحبوا أن يستوثقوا من نوايا صلاح الدين،فأنفذوا اليه من الرسل ما استحلفوه

للعسكر ولأهل البلد ، فحلف لهم ولعماد الدين في يونيه ١١٨٣ ، وخرجت العساكر لخدمة صلاح الدين ، وخلع على مقدمهم وطيب قلوبهم ، ولم يخرج عل اجماعهم الا أمير حارم الذي اعتصم بقلعته ، وأرسل الى الصليبيين بأنطاكية يطلب منهم المساعدة ، غير أن أجناده وثبوا عليه وألقوا به في السجن ، وطلبوا من صلاح الدين الأمان فأجابهم الى ذلك • وبذلك استقر لصلاح الدين أمر حلب ، في ٢٢ يونيه سنة ١١٨٣ ، فعين عليها ابنه الظاهر الغازي (١٥) •

وترتب على سقوط حلب في يد صلاح الدين ، أن قوى مركزه ، وازدادت الجبهة الاسلامية تماسكا ، واشتدت مخاوف الصليبيين ، فالتمس صاحب انطاكية منه الامان ، فقبل صلاح الدين اجراء هدنة ريثما يفرغ من تحقيق أمله باكتمال توحيد القوى الاسلامية • على أن صلاح الدين أصبح في مركز يساعده على الانتقام من الصليبيين في بيت المقدس لما قاموا به أثناء غيابه بالجزيرة من اغارات على أملاك المسلمين ، لا سيما ما قام به ريجنالد أمير الكرك من الاغارات في بلاد العرب والبحر الاحمر ، وذلك بفضل ما جرى من ازدياد قواته بمن انضم اليهم من الحلبيين وجند الجزيرة وفرسان التركمان والمتطوعة والقوات الاضافية ، فضلا عن تأييد الخليفة له فيما عزم عليه من اعلان الجهاد ، فصار يتعقب الصليبيين أينما وجدهم ، ويحرضهم على الخروج لملاقاته بكثرة مهاجماته لبلادهم وقراهم وتخريب ديارهم ، غير أنهم تجنبوا الدخول معه في معركة فاصلة • (١٦)

وفي هذه الأثناء سنة ١١٨٣ جرت محاولة جديدة لحل مشكلة الموصل بالمفاوضات • وبدأت هذه المحاولة من جانب مسعود أمير الموصل بعد أن تبين له أن أمراء جزيرة ابن عمر ، وأربل ، وتكريت ، والحديثة ، الذين ينتمون اليه ، لجأوا الى صلاح الدين يطلبون منه حمايتهم ، فقبل مساعدتهم • فالتمس مسعود من الخليفة ان يتوسط في تسوية النزاع بينه وبين صلاح الدين ، فبعث الخليفة رسوله شيخ الشيوخ مرة أخرى الى صلاح الدين ، غير أن المفاوضات لم تلبث أن فشلت بل ازداد الموقف سوءا لعدم رضى مسعود عما اشترطه صلاح الدين من أن يكون لأميري اربل والجزيرة حق الاختيار في الانتماء اليه أو الى صاحب الموصل • (١٧)

وعلى الرغم من استعداد صلاح الدين لمنازلة الصليبيين ، وما قام به من هجمات على الكرك وتخريب بلاد عديدة من أملاكهم سنة ١١٨٤ فان مشكلة الموصل لم تزل تثير قلقه ، لا سيما بعد أن استنجد أمير الموصل بأتابك فارس وأتابك أذربيجان ، فجاءه مدد عدته ثلاثة آلاف فارس فاستعد بذلك لمهاجمة اربل متى انحاز أميرها الى صلاح الدين ، وترتب على ذلك أن عزم صلاح الدين على التوجه الى الموصل لحصارها • (١٨)

وأفاد صلاح الدين من الهدنة التي طلب ريموند أمير أنطاكية عقدها لمدة أربع سنوات ، اذ كفل بذلك تأمين مؤخرة جيوشه ، فلم يلبث ان حشد قواته في حلب في مايو سنة ١١٨٥ ، وخرج قاصدا

الموصل ، التي تحتم أن تواجه وحدها ما ينتظرها من المصير • واذ أن صلاح الدين أرسل الى الخليفة ببغداد يخطره بما عزم عليه من منازلة الموصل ، وأشار الى أن أهل الموصل يخطبون لطغرل السلجوقي وينقشون السكة باسمه ، وأنهم يراسلون الصليبيين ويحرضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين ، وأنه لم يأت ، رغبة في ازدياد ملكه أو التخلص من البيت الزنكي ، وانما قصد أن يردهم الى طاعة الخليفة ونصرة الاسلام ، ومنعهم من ارتكاب الظلم وانتهاك المحارم ، وقطعهم عن مواصلة السلاجقة بالعجم ، والزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم • (١٩)

ووصل صلاح الدين الى ميافارقين ورتب شئونها بعد وفاة أمير ماردين الذي تخضع له ، ثم نزل على دجلة بقرب الموصل سنة ١١٨٥ حتى ينقضي الشتاء • على ان زنكي صاحب سنجار لم يلبث أن توسط بين صلاح الدين ومسعود صاحب الموصل ، على أن يتسلم صلاح الدين بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها ، وكذلك ما وراء النهرين من البوازيج والرستاق ومواضع أخرى ، مقابل التنازل عن بين النهرين ، وكان السلطان وقتذاك بحران ، وقد حل به المرض • وكان من رسل مسعود صاحب الموصل ، المؤرخ ابن شداد ، واستقر الصلح، واستتب الأمر ، وحلف كل من صلاح الدين وأخيه العادل على ما تقرر من قواعد الصلح ، وترتب على ذلك ان جرت الخطبة باسم السلطان في جميع بلاد الموصل ، وانقطعت خطبة السلاطين السلاجقة ، كما خطب لصلاح الدين أيضا في ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية ، وضربت

السكة باسمه في مارس سنة ١١٨٦ • ولما تماثل صلاح الدين للشفاء ، عاد الى دمشق في مايو سنة ١١٨٦ وبذلك تحقق أمله الكبير في توحيد القوى الاسلامية تحت زعامته ، ولم يعد أمامه الا أن يواصل النضال ضد الصليبيين والعمل على استئصال شأفتهم (٢٠) •



الفصل الخامس

صلاح الدين والصليبيون

ما كاد صلاح الدين ينتهي من توحيد القوى الاسلامية تحت زعامته ، ويأمن عدم تعرض مؤخرة جيوشه لهجوم مفاجيء ، ويتم بذلك تطويق الامارات الصليبية ، حتى تأهب لقتال الصليبيين •والواقع أن صلاح الدين لم يغفل أمر قتال الصليبيين مطلقا ، على الرغم من أنه لم يقم حتى ذلك الحين بحرب حاسمة لفتح بلادهم ، بل اكتفى بأن يكيل لهم الضربات ، وأن يمنع العدو من الاعتداء • ويكاد يجمع المؤرخون على اهمية ما قام به صلاح الدين من أعمال في سبيل الوحدة الاسلامية ، ويرون ضرورتها لتأدية الجهاد ضد الصليبيين • ولذا عرض المؤرخون لها حسب ترتيبها التاريخي • على أننا نعرض لحملات صلاح الدين وتطورها حسبما وقفنا عليه من الروايات التاريخية الموثوق بها ، وما ورد من أخبارها في الكتب المعاصرة •

فالمعروف أن صلاح الدين قام مرتين بمهاجمة امارة الشوبك الصليبية عند حلوله بمصر ، وذلك في سبتمبر سنة ١١٧١ ، وفي مايو سنة ١١٧٣ ، وعلى الرغم من أن هاتين الغارتين لم تسفرا عن تغيير في الأوضاع القائمة ، فان ذلك لم يقلل من أهميتهما ، نظرا لما لحق البلاد الاسلامية ، بسبب قيام الامارات الصليبية ، من خسائر ، وما تعرضت له التجارة بين القاهرة ودمشق من أخطار ، فكل انتصار يحرزه صلاح

الدين على خصومه ، انما يزيد في اطمئنانه الى قوته ، ويكشف له عن عيوب أعدائه وأخطائهم • والواقع أن الحروب الصليبية جعلت لعاصمة الشام (دمشق) من الوضع الخطير ، ما جعل نور الدين يدفع الرسوم الجمركية على القوافل القادمة من الجزيرة ، وذلك عند دخول المدينة وخروجها • ويتضح ذلك من المرسوم الذي ما زال منقوشا على أحد أبواب دمشق • أما القوافل المتجهة نحو مصر ، فخضعت لنظام شديد ، اذ أن قوات من دمشق صارت تحرسها شطرا من الطريق ، ثم تتولى حراستها في الشطر الثاني قوات مصرية تعتمد في ارسال أخبارها على البريد وحمام الزاجل • ويفسر هذا ما أورده المقريزي من أن صلاح الدين ارتحل في سنة ١١٧٣ للاغارة على الكرك والشوبك وكلما علم بخروج قافلة من دمشق ، أرسل من قبله قوة لتحميها من هجمات الصليبيين ، فتوجه لمحاصرة هذين الحصنين حتى يؤمن طريق القوافل • ولعل هذا الهجوم انما الغرض منه ، فيما يبدو ، أن يكتشف صلاح الدين الاماكن الذي سوف يهاجمها (١) •

على أن الحوادث لم تلبث أن اتخذت اتجاها جديدا بعد الوصول الى الاقليم الذي يتولاه ريجنالد شاتيون (ارناط) ، الذي جلب لمملكة الصليبيين ما حل بها من كوارث لما قام به من حملات طائشة ، وما أثاره من تهديدات جوفاء ، في الوقت الذي أعدت فيه مصر جيشا من الطراز الأول • على أن ريجنالد اشتهر بمغامراته الحربية ولم يكترث بما تلتزمه العهود من قواعد ، ولم يحفل الا بتحقيق أغراضه • فالمعروف أن بلدوين الرابع ملك بيت المقدس عقد سنة ١١٨٠ هدنة مع صلاح الدين •

ولم يدخل رىموند صاحب طرابلس في هذه الهدنة ، الا بعد أن تعرضت بلاده الى سلسلة من الغارات المخربة ، وبعد أن استولـى الأسطول المصري على جزيرة أرواد • ومن اهم الشروط التي تمسك بها صلاح الدين ، الشرط الذي يتعلق بحرية التجارة ، ذلك لأن الطريق بين مصر والشام تعرض باستمـرار للاخطار الناجمة عن القتـال بين المسلمـين والصليبيين ، وتولى العساكر أثناء الحروب حراسة القوافل التجارية • غير أن ريجنالد صاحب الكرك ، انتهك هذه الهدنة ، بأن فرض الاتاوة على القوافل التي تجتاز الكرك وذلك في سنة ١١٨١ ، فتوترت العلاقات بين المسلمين والصليبيين • وأكثر من هذا أنه حاول مهاجمة مكة والمدينة، وسار فعلا ، كما سبق الاشارة ، الى الحجاز حتى صار قـرب واحة تيماء ، ولم يرجعه عن قصده الا ما قام به فروخ شاه نائب صلاح الدين بدمشق ، من الاغارة على الكرك ونهب اراضيه • وفي السنـة التالية (سنة ١١٨٢) توجه صلاح الدين نحو الكرك في الطريق الى دمشق، وحاول الصليبيون مقاومته ومنعه من المسير ، غير أن فروخ شاه بدد محاولتهم بأن اتجه الى طبرية ، واستولى على حصن الشقيف ، الذي كان يشرف على البلاد الاسلامية (٢) • وهنا يصح أن نتساءل هـل فكر صلاح الدين وقتذاك في القيام بهجوم شامل على الصليبيين ؟ الواقع أنه على الرغم من الحروب التي شنها صلاح الدين على الصليبيين سنة ١١٨٢ في طبريا وبيسان ، فانه ركز اهتمامه في المضي الى الشمال لاستكمال الوحدة الاسلامية ، وعهد الى فـروخ شاه في دمشق بمواجهة الصليبيين • ولما علم باغارات بلدوين في حوران وتخريبـه

بعض القرى ، اشار عليه بعض اصحابه بالعودة فقال « يخربون قرى ، ونملك عوضا عنها بلادا ، ثـــم نعود فنعمرها ، ونقوي على قصد بلادهم » (٣) •

وفي هذه الاثناء عاودت ريجنالد شاتيون فكرة مهاجمـة مكة والمدينة ، فرأى أن يكون هجومـه هذه المرة عن طريق البحر ، فبنى سنة ١١٨٣ م الاجزاء التي تتكون منها السفن ، ثم نقلها على الابل الى ساحل البحر الاحمر ، حيث جـرى تركيبها وشحنها بالرجال وآلات الحرب ، واوقف منها مركبين عند جزيرة القلعة (ايله) ، تمنع اهلهـا استقاء الماء ، ومضى الباقون في مراكبهم الـى عيذاب فقطعوا طريق التجارة ، وشرعوا في القتل والنهب والاسر ، ثم توجهـوا الى ارض الحجاز واشرف أهل المدينة منهم على خطر عظيم •

وما كاد يصل الخبر الى مصر ، حتى أمر العادل نائب السلطان ، بأن يعد الحاجب حسام الدين لؤلؤ ، السفن في خليج السويس ويشحنها بالرجال ، ثم سار الى أيله فظفر بالمركـب الصليبي فأحرقه واسر من فيه ، ثم توجه الى عيذاب فاكتشف المراكب الصليبية فأخـذ يطاردها حتى اوقع بها واطلق سراح المأسورين من التجار • ثم صعد البر فوجد هناك عربا • فركب خيلهم وتعقب المنهزمين من الصليبيين فحصرهم في شعب لا ماء فيه فأسرهم جميعا ، ثم ضرب رقابهم بناء على أمر العادل • « وكفى الله الحرمين الشريفين شر عدو الدين » (٤) •

وصف ابن جبير ، وهو شاهد عيان لهذه الاحداث ، ما شهده

« بالاسكندرية في ابريل سنة ١١٨٣ من اجتماع الناس لمعاينة اسرى ، من الروم ادخلوا البلد راكبين على الجمـال ووجوههم الى أذنابها ، وحولهم الطبول والابواق » . ولما سأل عن امرهم ، علم انهم من الصليبيين بالشام ، انشأوا مراكب في اقرب المواضع التي لهم من بحر القلزم ، ثم نقلوهاالى ساحل البحر ، فاتموا انشاءها ودفعوها الىالبحر وركبوها « قاطعين بالحجاج وانتهوا الىبحر اليمن ، فاحرقوا فيه ستة عشر مركبا ثم استولوا على مركب بعيذاب كان ينقل الحجاج منجدة، وأخذوا ايضا من البر قافلة كبيرة تأتي من قوص الى عيذاب ، وقتلوا الجميع ، وأخذوا مركبين مقبلين بتجار من اليمن ، واحرقوا اطعمـة كثيرة على ذلك الساحل كانت معـدة لميرة مكة والمدينة . واحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الاسلام ، ومن اعظمها حادثة تسـد المسامع بشاعة ، وذلك انهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واخراجه من الضريح المقدس ، اشاعوا ذلك ، فأخذهم الله باجترائهم عليه ، ولم يكن بينهم وبـين المدينة اكثر من مسيرة يوم » . ثم يشير الى ما قام به لؤلؤ وبحارته من المغاربة « اذ لحقوا العدو ، فاخذوا عن آخرهم ، وادركوهم ، وقتلـوا واسروا ، وفرق من الاسارى على البـلاد ليقتلوا بها ، ووجه منهم الى مكة والمدينة » . وكان ذلك من عوامل ذيوع صيت صلاح الدين وتوطيد مركزه (٥) .

الهجوم الكبير على الصليبيين ـ معركة حطين

وما حدث في النصف الثاني من سنة ١١٨٣ من حملات ، جعل

الصليبيين يتخذون خطة الدفاع •اذ أن صلاح الدين صار، بعد عودته من حملته الثانية في الجزيرة ، يوجه الحملات التأديبية علـــى املاك الصليبيين فأخذت تنهب البلاد وتهاجم من يقابلها من الصليبيين ، وفي اغسطس سنة ١١٨٣ توجه صلاح الدين الى قلعة الكرك ، وعزم علـــى الاستيلاء عليها ، بعد أن جاءته الامدادات من مصر فحاصر الكرك ، ونصب عليها سبع مناجيق ، صـــارت ترمي القلعة صباحا ومساء ، واكثر صلاح الدين النكاية في العدو ، بأخذ اموالهم وتخريب ديارهم، غير أنه لم يلبث أن عاد الى دمشق بعـــد أن تبين له أن أمر الكرك يطول (٦) •

ومنذ هذه اللحظة اخذت خطة الحملات المقبلة تتحدد في ذهن صلاح الدين ، الذي لم يترك للصليبيين فرصة للراحة والهدوء ، اذ اجتمعت له الجيوش من سائر الجهـــات الخاضعة لسلطانه ، من مصر وحلب والجزيرة وحصن كيفا وآمد • ثم حاصر الكرك من جديد ، غير أنه لم يلبث ان رفع الحصار • وقام بغارة على الجهات الواقعة وراء نهر الاردن ، فسار الى نابلس واكثر مـــن القتل والسبي ، وضرب جينين ، وصار يبث السرايا يمينا وشمالا ، ينهبون ويخربون •• على أنه لم يتم تأمين الجبهة الشمالية الا اثناء السنة التالية •

اصبح صلاح الدين مستعدا القيام بهجوم شامل على الصليبيين، ومهما يكن من اتخاذ الذرائع للقيام بقتال الصليبيين ، فان الحـــرب واقعة لا محالة ، اذ أن السلطان ادخرمن قوة العزيمةما جعل يشن حربا لا سبيل الى مقارنتها بحرب العصابات التي شنها الفاطميون علـــى

الصليبيين ، او الحروب التي قام بها العباسيون ضد البيزنطيين (٨).

ذلك ان جيوش صلاح الدين صارت تعمل سويا، وتهيأت الفرصة للقيام بعمليات حربية مشتركة واسعة النطاق ، بينما واصل الاسطول المصري نشاطه في سنتي ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، وطلب ريموند امير طرابلس عقد الهدنة سنة ١١٨٥ . والمعروف ان الهدف الاساسي لصلاح الدين هو ان يوجه كل الجهود لحشد كل قواته لمهاجمة الصليبيين ، غير انه لا بد من القيام في نفس الوقت بأعمال اخرى كيما يتحقق غرضه .

لم يحفل المؤرخون الى الآن بما لجأ اليه صلاح الدين من استخدام السياسة لعزل الصليبيين في الشام ، والحرص على أن يكون في وفاق وسلام او صداقة مع كل عدو خارجي ، قبل نشوب المعركة الحاسمة . فاتجهت سياسته الى ناحيتين .

ادرك المسلمون في مصر الشام ما للمصالح التجارية من اهمية في بقاء الامارات اللاتينية ، وما كان من تنافس بين المدن الايطالية ، بيزا وجنوه والبندقية . ومنذ أن تولى صلاح الدين الحكم ، صار يبذل الجهود لجذب تجارة هذه المدن الى مصر ، وبذلك يحصل على فائدتين : الاولى ازدياد موارده بسبب النشاط التجاري ، والثانية اضعاف تجارة الصليبيين ، لا سيما اذا عرفنا أن صلاح الدين كان يسيطر على البحر الاحمر . ولا شك في أن هذه التجارة ادت الى الاهتمام باعادة بناء الاسطول المصري ، وفي رسالة وجهها صلاح الدين

سنة ١١٧٥ الى الخليفة ببغداد يقـــول فيها « ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنويون ، كل هـــؤلاء غزاة لانطاق ضراوة ضرهم •• وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبة • وما منهم الا من هـــو الآن يلب الى بلدنا آلة قتالة وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائـــف اعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصلة » (٩) •

ومن اقوى العوامـــل التي خدمت صلاح الدين ما دار من المفاوضات السياسية بين صلاح الدين والامبراطور البيزنطي ، بعد وفاة مانويل سنة ١١٨٠ ، اذ تقرر سنة ١١٨١ عقد معاهدة بين صلاح الدين والكسيوس الثاني • وبينما ساءت العلاقات بين الصليبيين والبيزنطيين ، تحسنت الصلات بين صلاح الديـن والبيزنطيين ، ومن ادلة العلاقات الودية أن البيزنطيين اجازوا لصلاح الدين أن يعمر المسجد القائـــم بالقسطنطينية •

ولم تنته سنة ١١٨٦ حتى اصبح صلاح الدين مستعدا لتحقيق غرضه ولم يبق الا أن تسنح الفرصـــة لمهاجمة الصليبيين • غير أن صلاح الدين لم يزل متمسكا بالمعاهدة التي عقدها سنة ١١٨٥ ، وتحتم عليه أن ينتظر حتى تنقضي مدة المعاهدة • وسنحت الفرصة فعلا حين وقع النزاع بين ريموند امير طرابلس ، وجـــاي لوزجنان ملك بيت بيت المقدس • فالمعروف أن ريموند كان وصيا على مملكة بيت المقدس ، وأن جاي لوزجنان تزوج من سيبل وارثة الملك في بيت المقـــدس • ونجح جاي في استمالة البارونات وتتوج ملكا ، فأنهى بذلك وصاية

ريموند . غير أن ريموند اقام في طبرية التي تعتبر من املاك زوجته. على أن جاي لوزجنان صار يلجأ الى مقدم الداوية المعروف باسم جيرار بحشد قوته ، كيما يذعن ريموند ويوافق على تتويج جاي ملكا . غير أن ريموند لم يحفل بهذه التهديدات ، واتخذ من الخطوات ما ادى الى تنائج خطيرة ، اذ لجأ الى صلاح الدين يطلب منه المساعدة ضـد ملك بيت المقدس ، واستغل صلاح الدين هذا النزاع الداخلي فأرسل الى ريموند قوة من قبله ، وترتب علـى ذلك أن ريموند رفض كل المساعي التي جرت للتوسط بينه وبين جاي لوزجنان ، وظل الموقف بينهما على ما هو عليه من التوتر الى ما بعد عيد القيامة سنة ١١٨٧ .

وفي هذه الاثناء ظهرت أزمة جديدة ، سببها أن ريجنالد شاتيون صاحب الكرك والمعروف بالغدر والخيانة ، عمد اوائل سنة ١١٨٧ الى نقض الهدنة المعقودة بينه وبين صلاح الدين ، فتعرض لقافلـة عظيمة بها نعم جليلة متوجهة من القاهرة الى دمشق ، فأخذها بأسرها ، وكان معهم جماعة من الاجناد فأسرهم وحملهم الـى الكرك ، واخذ خيلهم وعدتهم فأرسل اليه صلاح الدين ينكر هذا العمل ، وطلب اليه رد مـا استولى عليه من المسلمين ، واطلاق سراح الاسرى ، فامتنع واصر على عصيانه فنذر السلطان دمه ، واعطى الله عهدا أن ظفر به أن يستبيح دمه . فانقضت بذلك الهدنة القائمة بين صلاح الدين ومملكة بيـت المقدس . وكان ذلك امرا خطيرا ، وحـاول جاي لوزجنان أن يلزم ريجنالد ، باصلاح ما أفسده ، غير أنه لم يستجب لرجائه ، اذ اعتبر نفسه مستقلا وليس بينه وبين صلاح الدين هدنة (١٠) .

أعلن صلاح الدين الجهاد ، وارسل الى سائر الاطراف يطلب العساكر فجاءته من كل ناحية • وخرج من دمشق في ١٤ مارس سنة ١١٨٧ (محرم سنة ٥٨٧ هـ) ، وتوجه الى بصرى مرتقبا قدم الحاج ، خوفا عليهم من غدر ريجنالد شاتيون • فلما وصل الحاج ، سار الى الكرك ونازلها وقطع ما حولها من الشجر ، وافسد زروعها وكرومها ، ثم سار الى الشوبك وفعل بها مثل ذلك ، وجاءته الامدادات من مصر فوجهها للاغارة على الشوبك والكرك ، ثم عاد بمن معه من القوات الى دمشق • أما عساكر دمشق وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر فاجتمعت في رأس الماء واغارت على طبرية ، ووقع الصدام مع الطليبيين في مايو سنة ١١٨٧ عند صفورية ، فهلك عدد كبير من الصليبيين منهم مقدم الاسبتارية ، ووقع في الاسر جماعة من فرسانهم (١١) ، وعاد المسلمون سالمين غانمين ، وتعتبر هذه الغارة مقدمة فتوح صلاح الدين • ثم توجه صلاح الدين الى عشتراء ، فاجتمعت عنده العساكر الاسلامية ، فكان في اثني عشر الف مقاتل فضلا عن عدد كبير من القوات الاضافية والقوات غير النظامية ، فعين مواقف الامراء • وطلب ألا يبرح كل جيش مكانه ، ولا يتزحزح جندي عن موضعه • وقال : « اذا دخلنا ارض العدو ، فهذا هو ترتيب عساكرنا وهذه هي مواضع قواتنا (١٢) »

وفي يوم الجمعة ٢٦ يونيه سنة ١١٨٧ خرج صلاح الدين الى فلسطين ، وبعد أن اقام خمسة ايام في الاقحوان في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ، ارتحل ونزل غرب البحيرة عند كفر سبت على سفح الجبل ، متوقعا أن الصليبيين اذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من

منزلتهم ، فنزل على طبرية بعد أن ترك جانبا من الجيش قبالة وجه العدو فلم تلبث ان سقطت في ايديهم ، وامتدت الايدي اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل غير أن قلعتها امتنعت عليه (١٣) .

أما الموقف الصليبي فيتمثل في أن الحاجة اضحت ماسة لمصالحة ريموند ، بعد ان توقع الصليبيون الحرب مع صلاح الدين ، كما أن ريموند نفسه اصبح في مركز حرج ، اذ أن نقض الهدنة سوف يؤدي امتناع صلاح الدين عن مساعدته ضد ملك بيت المقدس . وترددت السفارات بين جاي لوزجنان وبين ريموند ، لتسوية المشاكل التي بينهما . ولم تكد احدى هذه السفارات تغادر الفولة (من حصون الداوية) في ابريل سنة ١١٨٧ حتى قام احد ابناء صلاح الدين بالاغارة على ارض الصليبيين ، انتقاما لما وقع من ريجنالد من اعتداء على القافلة الاسلامية . ولما كان لزاما عليه أن يجتاز طبرية التابعة لريموند ، استأذن ريموند في عبور اراضيه . على ان هذا الطلب احرج ريموند الذي حرص على الابقاء على صداقة صلاح الدين . ومع هذا اجاب الطلب بشروط منها أن القائد الاسلامي ينبغي ألا يدخل المملكة الا بعد شروق الشمس ويغادرها قبل الغروب والا ينزلوا ضررا ببلاده . وفي هذه الاثناء اخطر اخوانه المسيحيين بما حدث ، فأرسل بهذا الخبر الى الناصرة والجهات المجاورة والى سفارة ملك بيت المقدس في الفولة (ابريل سنة ١١٨٧) (١٤)

وفي اول مايو ١١٨٧ وقعت اغارة المسلمين على الفولة ، وعزم

معركة حطين سنة ١١٨٧

الداوية ومن معهم بها على الدفاع ، والراجح أن هذا القرار انما جاء بناء على تحريض جيرار ، ومن المؤكد أنه يخالف رأي ريموند ، وترتب على ذلك حدوث وقعة عين كرسون قرب الناصرة ، فحلت الهزيمة بالقوات الصليبية ، ولم ينج الا جيرار وفارسان ، بينما خر صريعا نحو ٦٠ فارسا من الداوية ، ووقع في الاسر اربعون من الناصرة ، ولا شك أن المملكة انهارت قوتها المادية والمعنوية ، وازدادت العداوة بين ريموند وجيرار • وارتاع ريموند لاخبار الكارثة فأحب ان يرضي جاي لوزجنان • وأن يبذل كل جهده في انقاذ المملكة • فطلب الى القوة الاسلامية التي جاءت لمساعدته أن تنسحب • وصحب السفراء الى أحد معاقل الاسبتارية حيث كان جاي في انتظار قدومهم • فساروا جميعا الى بيت المقدس ، حيث اقسم ريموند يمين الولاء لجاي وسيبل• على أن الكراهية والعداوة ما زالت تشتعل بين الجانبين ، برغم هذا الوفاق الظاهري • فما زال جيرار وريجنالد يكنان الكراهية لريموند امير طرابلس ، وما زالا يساورهما الشك في خيانته ، وظلا يرفضان كل ما يقدمه من نصائح ، وسيطر هذا الرجلان على ملك بيت المقدس سيطرة تامة (١٥) •

وما واجه مملكة بيت المقدس من موقف اوائل صيف سنة ١١٨٧ ، يعتبر من أشد ما تعرضت له في تاريخها من اخطار • فبينما كان الخلاف الداخلي يوشك أن يؤدي الى حرب داخلية ، كان صلاح الدين ينتهي من خطواته الاخيرة في استعداده للهجوم الكبير • ففي مارس سنة ١١٨٦ عقد صلاح الدين معاهدة مع امير الموصل

لتسوية ما بينهما من المشاكل وعقد امير حلب هدنة مع امير انطاكية الصليبي كيما يتيسر له النهوض بعساكره لمساعدة صلاح الدين وسبق أن أشرنا الى اجتماع صلاح الدين في تل عشترة في الاسبوع الثالث من يونية سنة ١١٨٧ ، في جيش ضخم بلغ مجموعه عشرين الفا ،منهم فريق من ذوي الاسلحة الخفيفة، وفريق مزود بأسلحة ثقيلة .والمعروف في الجيوش الاسلامية أن الرماة الفرسان يؤلفون جانبا عظيم الاهمية. واتخذ هذا الجيش مواضعه قرب شاطىء نهر الاردن جنوب بحيرة طبرية (١٦)

أما قوات مملكة بيت المقدس فاجتمعت في صفورية ، واصدر الملك جاي لوزجنان الامر بالتعبئة العامة ، ومعنى ذلك أنه لا بد أن يتقدم لحمل السلاح كل الرجال القادرين ، ولا يلجأ الملك الى ذلك الا عند الضرورة القصوى لمخالفة ذلك لنظم الجيش الاقطاعي . أما البطريرك فأرسل قطعة من الصليب المقدس ، واعتذر عن عدم الحضور. وأرسل ملك انجلترا اموالا جرى اتفاقها في استئجار الفرسان والرجالة . ولم يأت من طرابلس وانطاكية الا قوات قليلة العدد ،وذلك لحاجة هاتين الامارتين الى من يدافع عنهما ضد المسلمين . ليس من السهل تقدير عدد الجيش اللاتيني ، والراجح أنه يبلغ عشرين الفا ، أي أنه يضارع في العدد الجيش الاسلامي ، ولم يختلف عنه في تركيبه من الفرسان والرجالة والرماة والقوات الاضافية . واجتمع هذا الجيش الصليبي الضخم في صفورية ، وانتظر أن يبدأ المسلمون بالهجوم .

والواقع أن ما دأب عليه صلاح الدين من العمل على توحيد العالم الاسلامي جعل انتصاره النهائي على الامارات الصليبية امرا محققا ، ومن الدليل على ذلك ما احرزه من انتصارات مستمرة في مصر والشام. ومع هذا فان مركز صلاح الدين سنة ١١٨٧ لا يجعل انتصاره محتوما فتهيأ للصليبيين طريقان لمناوءته : الاول أن باستطاعتهم أن يتمهلوا مثلما فعلوا سنة ١١٨٣ ويتجنبوا الاشتباك في معركة حاسمة ، يحدوهم الامل في تفرق جيش صلاح الدين ، والافادة من الحرارة الشديدة في بلاد الجليل الجبلية . على أن نجاح هـذه السياسة يتوقف على قرار السلطان ، بأنه سوف لا يخاطر بالاشتباك في معركة في ظروف غـير مقبولة ، وما ينتظر من تفكك جيشه وما يترتب عليه من ضعف نفوذه السياسي ، اذا فشل في احراز النصر .

أما الطريق الثاني ، وهو الذي وافق عليه القادة الصليبيون ،فهو أن يجري الاشتباك مع صلاح الدين في معركة حاسمة . وكيفما كـان الامر فان الصليبيين جعلوا في هذه الحملة كـل ما عندهم من قوى وجميع ما لديهم من موارد . واذا كان الجيشان متساويين في العدد ، فالنصر سوف يكون حليف الجيش الذي يسطتيع أن يدفع الجيش الآخر الى المبادرة بالقتال في ظروف غير ملائمة . واذ اختار الصليبيون لجيوشهم موضعا شديد الملائمة ، وعزموا على اتخاذ خطة الدفاع ، صار لهم بذلك من الموضع الممتاز ما يحفزهم على اثارة المسلمين ليبدأوا القتال . والواقع انهم قرروا ذلك ، غير أن الخطة لم تتحقق بسبب ما وقع في صفوف الصليبيين من اضطراب ، وما لم يدركوه من وحـدة

المسلمين وتعاونهم بفضل ايمانهم بوحدة غرضهم وثقتهم في قائدهم(١٧)

اقام الجيش الصليبي معسكره قرب عين صفورية الذي اشتهر بوفرة مياهه ، حتى في زمن الصيف • ويقع هذا النبع على مسافة ميل واحد الى الجنوب من القرية ، وتوافرت المواد الغذائية في الجهات المجاورة والمسافة بين صفورية وبحيرة طبرية تبلغ خمسة عشر ميلا ، اشتهرت الارض في هذه المنطقة بالارتفاع ، وهي شبيهة بالهضبة ، تكثر فيها الوهاد والمنخفضات ، وتكون خالية من الماء زمن الصيف • هذه البقعة القاحلة يحف بها من الشرق والشمال سلسلة من التلال ، تنحدر جوانبها الشمالية والشرقية انحدارا فجائيا الى سفح الهضبة الى شاطىء بحيرة طبرية • ولا يجتاز هذه التلال الا دروب قليلة العدد ، وعلى مسافة خمسة اميال الى الغرب من طبرية التي تقع على شاطىء البحيرة ، يجري في الحافة الشمالية درب من هذه الدروب ، وبالقرب من النقطة التي يبدأ منها هذا الدرب ، ارتفع تل له قمتان اشتهر بقرون حطين ، وهو الموضع التي حدثت عنده المعركة (١٨) •

أما صلاح الدين فانه عبر نهر الاردن جنوب البحيرة حيث تهيأ له ما يحتاج اليه من المؤونة والماء ، ولخبرته ودرايته بطبيعة الارض شرق صفورية ، حرص على الافادة منها ، في أن يعمل على اجتذاب الصليبيين للخروج من موضعهم • فأرسل طائفة من جنده الى كفر سبت على الحافة الجنوبية للهضبة ، فحاولوا اثارة الصليبيين بما قاموا به من غارات مفاجئة غير أن الصليبيين لم يتحركوا ، وعندئذ عزم صلاح الدين

على أن يقوم بهجوم على طبرية ذاتها، وهذا الهجوم يعتبر نقطةالتحول في المعركة (١٩) •

وفي يوم الخميس ٢ يوليه سنة ١١٨٧ تحرك صلاح الدين بالجانب الرئيسي من الجيش الى الارض المرتفعة الواقعة اسفل الحافة غرب طبرية • وفي هذا الموضع يستطيع أن يوصد الطريق المؤدي الى طبرية ويسيطر في الوقت ذاته على الدروب التي تجتاز الحافة الشرقية الى طبرية وتنتهي الى الماء • ثم تقدم بقوة صغيرة من الجيش فاستطاع بسهولة أن يستولي على طبرية ، وأخذ في مهاجمة القلعة التى لجأت اليها زوجة ريموند • وبرغم ما يحف بخطة صلاح الدين من الخطورة، فانه قدر أن اخبار الهجوم على طبرية وتعرض قلعتها للهجوم ، سوف تثير ريموند كونت طرابلس المشهور بشدة الغيرة • واذا ادرك صلاح الدين أن الصليبيين سوف يجتازون الارض الوعرةالقاحلة التي تفصل بين الجيش ، ويخوضون المعركة حسبما تمليه الاحوال •

وما كادت اخبار الهجوم على طبرية تصل الى الصليبيين ، حتى دعا الملك مجلس الحرب الى الانعقاد ، فأشار ريموند على الملك بألا يتحرك من موضعه ، بل انه طلب اليه الارتداد الى المدن الساحلية الحصينة ، وأن يترك لصلاح الدين أن يجتاز الهضبة • غير أن جيرار مقدم الداوية المشهور بعدائه لريموند ، استطاع بفضل تسلطه على الملك ، أن يجعله لا يأخذ برأي ريموند • فأصدر الملك الامر الى الجند بالمسير (٢٠) ، فاتخذ في الصباح المبكر من يوم الجمعة ٣ يوليه طريقة الى طبرية ، يتقدمه ريموند ، لان الجيش يجتاز امارته • وبينما يتجه الجيش شرقا ، تعرضوا من جميع الجهات لكمائن المسلمين،

واشتدت الحرارة وازداد ظمأ الجند الى الماء • أما صلاح الدين فانه ازداد سرورا بنجاح خطته فانسحب من طبرية ، ولم يترك بها الا قوة صغيرة ، ورتب جيشه الرئيسي على التلال الواقعة قرب المدينة (٢١)

وعند الظهر ، وحينما بلغ جيش الصليبيين الموضع المعروف باسم اللوبيا ، الواقع في منتصف الطريق الى طبرية ، أضحى التقدم عسيرا وشاقا ، لا سيما على الداوية والذين اتخذوا أماكنهم في مؤخرة الجيش ، فأمر الملك بالتوقف ، اما لما حل بالداوية من الضيق ، واما لان المسلمين منعوا مقدمة الجيش الصليبي من الوصول الى الدرب الشمالي ، أو لاجتماع السببين معا •

على أن هذا القرار كان خطأ شنيعا ، اذ لم يتيسر الماء للرجال والدواب ، وتعتبر ليله ٣ يولية اختبارا عنيفا ، اخذ المسلمون يحكمون تطويق الصليبيين ، وأضحى النصر قريبا منهم • وفي الصباح المبكر من اليوم التالي ، تعرض المسلمون للجيش الصليبي الذي قاده ريموند الى الدرب الواقع عند قرون حطين ، فأوقفوا الصليبيين ، ومنعوهم من الوصول الى ماء البحيرة ، فاشتد بالصليبيين الظمأ ، وفرغ ما معهم من الماء ، وأخذتهم سهام المسلمين ، وكثر فيهم الجراح ، وقوي الحر ، وصاروا كلما حملوا ليتيسر لهم ورود الماء ، صدوا وردوا ، واستولى عليهم الاسر والقتل فأووا الى جبل حطين ليعصمهم من الهلاك (٢٢)، فضايقهم المسلمون ، حيث اشعلوا حولهم النيران في حلفاء كانت هناك ، فارتفع لهبها واجتمع عليهم «حر الهاجرة وحر النار وحر العطش وألم الجراح » ، وحطوا خيامهم على ظهر التل فمنعهم المسلمون من

ضربها ، واشتد الضرب والطعن وعلموا أنه لا ينجيهم من الموت الا الاقدام عليه ، فحملوا علـــى المسلمين حملات عديدة كادوا يزيلون المسلمين من مواضعهم ، غير أن المسلمين ثبتـــوا لهـم ، ولم يحمل الصليبيون حملة الا وقتل منهم طائفة وأسر جماعة ، فوهنوا وهنـــا عظيما ، ثم قام المسلمون بهجوم شامل انهوا به المعركة ، والقوا خيمة الملك واستولوا علـــى صليبهم الاعظم ، واسروهم كلهم ، فترجـل السلطان وسجد وشكر الله تعالى على ما احرزوه من النصر (٢٣) .

وما أصاب الصليبيـــين من مصرع عدد كبـير من عساكرهم وأسرهم يعتبر من افدح الكوارث التي حاقت بهم . ومـــا أورده المؤرخـــون من الاشارات الى عـــدد الضحايا انما يشوبه الخلط والاضطراب . والواضح أنه لم ينج الا عـــدد قليل من المحاربين ، بالاضافة الى من نجا مـــن جند مؤخرة الجيش بقيادة باليان ابلين ، وريجنالد صاحب صيدا ، او جند مقدمة الجيش بقيادة ريموند صاحب طرابلس . أما معظم الجيش الرئيسي ، بقيادة الملك جاي لوزجنان ، فاما أن يكون لقي مصرعه واما أن يكون وقع في الاسر ، ومن الذين وقعوا في الاسر الملك جاي ، وريجنالد شاتيون ، واوك صاحب جبيل وهنفري بن هنفري صاحب تبنين . وأسر من نجا من القتل من الداويـة ومقدميها ، ومن الاسبتارية معظمها ، ومن البارونات من اخطأه الهلاك ثم اطلق صلاح الدين سراح عدد كبير من الاسرى الفرسان مقابل تسليمهم ما بأيديهم من القلاع والمدن . أما الاسرى من الرجالة والاجناد الفرسان الذين نجوا من القتل ، فأخذهم احاد الجنـد من المسلمين وباعوهم

رقيقا . ومن المناظر المألوفة وقتذاك أن ثلاثين او اربعين منهم يربطهم حبل واحد ، وزخرف اسواق الرقيق في سوريا بهؤلاء الاسرى (٢٤).

ثم امر السلطان فضرب له دهليز سرادقة ، فنزل فيه وصلى لله تعالى صلاة شكر على هذه النعمة التي تمناها من سبقه من الملوك ولم تتحقق لهم . ثم احضر ملوك الصليبيين ومقدميهم ، فأجلس الملك جاي الى جانبه واجلس ويجنالد الى جانب الملك ، وفي عزمه أن يفي بنذره، فقتله جزاء له على غدره ومكره ، ثم جمع السلطان الاسرى المعروفين وامر بنقلهم الى قلعة دمشق حيث جرى الاحتياط عليهم (٢٥) .

ثم توجه السلطان الى طبرية ، وراسل زوجة ريموند صاحبتها ، فأجابت الى التسليم ، فأمنها السلطان هي ومن معها ، فسلمت الحصن بما فيه ، وخرجت بمالها الى طرابلس بلد زوجها . (٢٦) .



الفصل السادس

صـــلاح الدين بعـد حطـين

اصبح الموقف الحربي ، بعد معركة حطين ، شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس ، وامارتي طرابلس وانطاكيه ، فلا شك أن انتصار صلاح الدين أدى الى جرمان المملكة من المدافعين عنها ، بعد أن القت بكل قوتها ومواردها في معركة حطين • وعلى الرغم من أن عددا من القلاع والمدن ، ما زال يحتفظ بحاميات قوية تستطيع ان تقاوم ، فانه لم يكن ثمة من الجيوش ما يمد اليها يد المساعدة او ينقذها • على أن قوات صلاح الدين استطاعت أن تقطع عنها المئونة والامدادات ، وان تلزمها بالخروج من هذه الحصون • ولم يبق عند الصليبيين من الامل الا أن يقدم عليهم من الغرب فورا امدادات حربية • ومن الواضح أن اوربا لم تتنبه الى الخطر قبل سنة ١١٨٧ ، ولذا لا بد أن يستغـــرق قدوم الامدادات ــ اذا جاءت ــ زمنا طويلا • يضاف الى ذلك أنهمن العسير ان يستعيد الصليبيون الممتلكاتالتي استولىعليها صلاحالدين، الا اذا توافر لهم من الوسائل ما يسهل على القوات الصليبية المرتقبة النزول الى البر بأسلحتهم وقوتهم • ولذا فان اجتماع اللاجئين مـــن بقايا الجيش الصليبي في صور يعتبــر أمرا عظيم الاهمية للامدادات الصليبية القادمة من الغرب (١) •

أما صلاحالدين فانه وجه اهتمامه بعد حطين مباشرة الـــى أن

يستولي على اكبر عدد من الحصون والمدن الهامة في اقصر وقت . ولذا صوب ضرباته المباشرة الى الموانىء الهامة ، ولم يتوقف الا ريثما يستولي على القلاع والمدن الداخلية التي لم تبد الا مقاومة ضئيلة (٢) .

سار صلاح الدين بعد حطين مباشرة الى عكا ، وبينما هو يرتاد موضعا للنزال ، اذ خرج اليه كثير من اهلها يتضرعون ويطلبون الامان، فأمنهم على انفسهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والرحيل ، فاختاروا الرحيل ، فدخل صلاح الدين والمسلمون المدينة في ٩ يوليه سنة ١١٨٧ . واستولوا على ما فيها من الاموال والذخائر ، واطلقوا سراح من كان بها من الاسرى المسلمين (٣) .

وفي اثناء مقام صلاح الدين بعكا ارسل عساكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة فاستولوا عليها ، ثم جرى الاستيلاء على نابلس وصيدا وبيروت . وتسلم جبيل مقابل اطلاق سراح صاحبها الذي وقع في الاسر يوم حطين . ثم سار السلطان الى عسقلان ، لما لها من اهمية بسبب وقوعها على الطريق المؤدي الى مصر ، فاستولى في طريقه اليها على الرملة وتبنين وبيت لحم والخليل ، ثم اجتمع بأخيه العادل الذي جاء بالعساكر المصرية ، وتقرر منازلة عسقلان ، غير انها لم تلبث ان استسلمت في سبتمبر سنة ١١٨٧ مقابل اطلاق سراح الملك جاي ومقدم الداوية ، واستولى صلاح الدين ايضا على حصون الداوية وهي غزة والبطرون وبيت جبريل ، وكذلك اذعنت المدن والحصون الداخلية الواقعة

جنوب بحيرة طبرية ما عدا الشوبك والكرك ، اذ بقي هذان الحصنان ، وحصون كوكب وصفد وشقيف أرنون على المقاومة (٤) .

اضحت المدن الساحلية جنوب طرابلس ، فيما عدا صور ، في يد صلاح الدين ، فاجتمع بصور عدد كبير من الصليبيين ، لان صلاح الدين صار يعطي الامان لاهل كل مدينة يفتحها ، فلجأوا الى صور ، وكثر جمعهم بها ، الا انه ليس لهم رأس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم ، وعزموا على مكاتبة السلطان وطلب الامان منه وتسليم البلد له ، غير ان كنراد دي مونتفرات شقيق اول زوج للملكة سبيلا . قدم اليهم مع طائفة من الفرسان من اوربا فردهم عن عزمهم ، وقوى نفوسهم ،وضمن لهم حفظ البلد ، وشرط عليهم ان تكون المدينة واعمالها له ، فاجابوه لذلك . وعلى الرغم من ان صلاح الدين عرض اطلاق سراح وليم مونتفرات والدكنراد مقابل تسليم صور ، غير ان كنراد لم يقبل هذا العرض (٥) .

ورفع صلاح الدين الحصار عن صور بعد اسبوع ، وبذلك اشتد اهتمام الصليبيين بتحصين المدينة . وتعرض صلاح الدين للانتقاد لانه اجاز للصليبيين ان يجتمعوا في صور لما ترتب على ذلك من نتائج خطيرة ، اذ اضحت القاعدة التي اتخذوها للمحافظة على ما تبقى لهم من أملاك ، ومنها صاروا يوجهون حملاتهم لاسترداد ما استولى عليه صلاح الدين من ممتلكات (٦) .

سقوط بيت المقدس

ولما فرغ صلاح الدين من الاستيلاء على عسقلان وما حولها من الجهات ، توجه الى بيت المقدس ، وبه البطريرك وباليان صاحب يبنه ، ومرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وهو الذي تولى امرها ، وبه ايضا من خلص من فرسانهم من حطين وغيرها ، وانضم اليهم اهل عسقلان ، فحشدوا قواتهم ، وعزموا على الدفاع عنه لما له من قدسية عندهم • ونزل السلطان في عساكره على بيت المقدس في سبتمبر سنة ١١٨٧ • ثم رأى ان يبدأ القتال جهة الشمال (كنيسة صهيون) فنصب المنجنيقات وتقاتل الفريقان اشد قتال شهده الناس • ولما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات في السور ، وانهم اشرفوا على الهلاك ، اجتمعوا وصاروا يتشاورون ، فاستقر رأيهم على طلب الامان وتسليم المدينة ، وارسلوا جماعة من كبرائهم في طلب الامان ، غير ان صلاح الدين رفض اول الامر طلبهم ، وعزم على ان ينتقم لما ارتكبه الصليبيون منذ قرن من القتل والتخريب والتدمير ، ثم لم يلبث ان قبل ان يعطيهم الامان بشروط ، بعد ان هدد باليان بتدمير المدينة وبقتل من بها من المسلمين (٧) •

ومن شروط التسليم انه يجوز ان يغادر المدينة كل من يستطيع ان يدفع ما هو مقرر عليه من الفدية ، خلال اربعين يوما ، وقدرها عشرة دنانير للرجل ، وخمسة للمرأة ، وديناران للطفل ، على ان يترك ما عنده من خيل وسلاح • وبذل باليان عن الفقراء ثلاثين الف دينار

فأجابه السلطان الى ذلك • وسلمت المدينة في ٢ اكتوبر سنة ١١٨٧ وثبت السلطان على كل باب من ابواب المدينة امينا من الامراء ، ليأخذوا من اهلها ما تقرر عليهم ، فاستعملوا الخيانة ، واقتسم الامناء الاموال ، ولو اديت لملأت الخزائن ، اذ كان بالقدس ستون الفا ما بين فـارس وراجل سوى ما يتبعهم من النساء والاولاد والاطفال ، كما ان باليان اطلق ثمانية عشر الف رجل مقابل ما دفعه عنهم من الفدية وقدرهـا ثلاثون الف دينار (٨) • يضاف الى ذلك انه جرى اطلاق سراح عدد كبير من الصليبيين بوسائل غير مشروعة (٩) •

وما كاد صلاح الدين يتسلم بيت المقدس وينتهي من الاحتفالات التي قامت ابتهاجا بما احرزه من نصر ، حتى اندفع نحو ساحل الشام لمهاجمة الموانى الكبيرة ، ولم يحاول اقتحام الحصون التي تستطيع ان تصمد زمنا طويلا ، لاعتقاده انه يجوز عزلها والاستيلاء عليها بعد فتح الساحل • واحرز صلاح الدين نصرا باهرا في كل ما هاجمه من المواضع ما عدا موضع او موضعين • واهم هذه المواضع كان صور التي حصنها موتنفرات واستظهر بالعدد والعدد ، وانتهز فرصة انصراف صـــلاح الدين الى فتح بيت المقدس ، فنظم اللاجئين اليها من الصليبيين وجعل منهم قوة تستطيع مقاومة ما يفرضه عليها صلاح الدين من الحصار (١٠)

اما صلاح الدين فانه حشد قواته وما جاءه من العساكر من حلب ومصر والشرق وديار بكر والموصل وماردين لحصار صور ، وقـدم الاسطول المصري من عكا لطرد سفن الصليبيين • وطال الحصار على

صور وتعسر فتحها على المسلمين ، فأشاروا على صلاح الدين بالرحيل لئلا يهلك الرجال • وكان الشتاء قد حل • وكان من رأى صلاح الدين وجماعة من بين اتقياء امرائه الثبات الى الفتح ، لئلا يضيع ما قام به من اعمال وما انفقه من اموال ، غير انهم لم يوافقوه ، فلم يسع السلطان الا الرحيل ، فامر بنقل الامتعة والادوات الى صيدا وبيروت • فرجعت عساكر الشرق الى بلادها ، وارتحل السلطان الى عكا ، وتوجه العادل الى مصر والظاهر غازي الى حلب (١١) •

ثم خرج صلاح الدين سنة ١١٨٨ من عكا لمنازلة حصون كوكب والشوبك والكرك ، وتعتبر من امنع الحصون ، واستمر حصار المسلمين لها زمنا طويلا حتى فنيت ازواد الصليبيين وذخائرهم واكلوا دوابهم • فراسل الصليبيون بالكرك الملك العادل يطلبون منه الامان مقابل تسليم القلعة ، فتم تسليمها في نوفمبر سنة ١١٨٨ ، ثم استسلمت ايضا حصون الشوبك والوعر والسلع ، فأمن السلطان شر الصليبيين من هذه الجهات (الشوبك والكرك) • (١٢) •

ثم توجه صلاح الدين الى قلعة صفد فحصرها . ولم يلبث اهلها ان طلبوا الامان ، فامنهم وتسلم منهم القلعة في ديسمبر سنة ١١٨٨ ، وخرجوا الى صور ، ثم استولى على حصن كوكب في يناير سنة ١١٨٩ وسار اهله الى صور ، فاجتمع بها من الصليبيين عدد كبير واشتدت شوكتهم ، وصاروا يطلبون الامداد من الغرب ، التي ما لبثت ان قدم اليهم منها قدر كبير ، ومن الاخطاء التي انكرها المؤرخون على صلاح

الدين ما اجازه لهؤلاء الصليبيين بالالتجاء الى صور (١٣) ، ولم يبق من حصون المملكة من غير استسلام سوى حصن شقيف ارنون • وهـذا الحصن اعتصم به ريجنالد صاحب صيدا ويعتبر من امنع الحصـون الصليبية ، فضلا عن سيطرته على الطريق بين صور ودمشق • غير ان حصار صلاح الدين له (مايو سنة ١١٨٩) توقف بسبب ما حدث من مهاجمة الصليبيين عكا • وبذلك سقطت كل مملكة بيت المقدس في يد صلاح الدين ما عدا صور وشقيف ارنون ، وصمدت طرابلس ، وبرج انطرطوس وحصنان اخران للدواية ، وحصن الاكراد للاسبتارية ، اما أنطاكية فلم يبق منها الا انطاكية ذاتها وحصن المرقب (١٤) •

وحدث تغييرات هامة نتيجة فتوح صلاح الدين ، فمن الطبيعي ان يعود الاسلام الى سابق عهده من المجد والسؤدد ، فعادت الكنائس الى مساجد على ما كانت عليه قبل قدوم الصليبيين • وفقدت المسيحيـة اللاتينية ما كان لها من وضع يميزها على المسيحية الشرقية ، ولم يتعرض المسيحيون اليونانون لخطر من الاخطار ، فقاموا بدفع ما درجوا عليه من الجزية ، وكان لاتجاه الاورثوذكسية اليونانية وسائر المذاهـب المسيحية المحليةاهمية كبيرة، اذ انها رحبت بعودة الحكم الاسلامي ،لما هو معروف من تسامح المسلمين ، وللعداء التقليدي بين القسطنطينية وروما ، فضلا عن عداء الامبراطورية البيزنطية للصليبيين لاسيمـا بعد وفاة مانويل كومنين • ونزع اندرونيكوس كومنين الى اقامة نوع من التحالف مع المسلمين ، وارسل اسحاق كومنين الى صلاح الدين يهنئه باستيلائه على بيت المقدس ، وطلب تجديد التحالف ضد اللاتين ، على

ان يعود القس الارثوذكسي الى بيت المقدس • وسادت هذه الاحوال في سائر الجهات •

والخلاصة ان سياسة صلاح الدين المبنية على الرحمة والمروءة أثرت في حياة الناس على اختلاف مذاهبهم ، ولم يحدث اضطهاد ديني للعناصر المخالفة في الدين للمسلمين •

اما المسيحيون الغربيون فاعتبروا انتصارات صلاح الدين كارثة خطيرة ، وتطلعت الارستقراطية الاوربية الى الامل في استعادة ما ضاع من الممتلكات ، وشجعهم على ذلك ان بعض المعاقل والحصون ما زالت قائمة على مقاومتها • كما ان صور صارت قاعدة قوية لهم ، واكثر من ذلك ان اوربا ادركت ما ينتظر المسيحيين اللاتين في فلسطين من مستقبل عابس ، ولم تلبث ان وصلت الاخبار الى الاراضي المقدسة بان حملة صليبية في الطريق اليها بقيادة امبراطور المانيا وملكي انجلترا وفرنسا ، فانتعشت امال اللاتين (١٥) •

اما صلاح الدين فانه سار الى عكا واقام بها حتى فبراير سنة ١١٨٩ ، وطلب الى بهاء الدين قراقوش باتمام عمارتها ، ثم عاد الى دمشق بعد ان غاب عنها زمنا طويلا ، واستقبل بها رسول الخليفة الناصر لدين الله ، وبعدئذ سير مع رسول الخليفة رسولا من قبله يحمل للخليفة هدايا واسارى من الصليبيين وتاج ملكهم الاسير والصليب الذي كان فوق الصخرة ، وشيئا كثيرا من الملابس والطيب • (١٦)

على ان صلاح الدين حرص على الاستيلاء على الحصن الباقي في

مملكة بيت المقدس وهو شقيق ارنون ، وكان صاحبه ريجنالد ،معروفا عند المسلمين بالمكر والدهاء ، ومن اكبر الصليبيين مكانة واكثرهم دراية باللغة العربية ، ومعرفة بالتواريخ والاحاديث ، فصار يتردد الى صلاح الدين ، ويظهر له الخضوع ، ويشير انه مملوكه وتحت طاعته ، وانه سوف يسلم له الحصن دون قتال ، مقابل الحصول على موضع واقطاع بدمشق لانه يخشى الصليبيين • فظن السلطان صدقه واعطاه ما طلب مقابل تسليم الحصن ، ولم يدرك السلطان مكره الخبيث الا بعد ان تحرج الموقف في عكا بسبب مبادرة الصليبيين الى حصارها ، فرتب عدة من الامراء ظلوا على محاصرة الحصن حتى تسلموه في ابريل ١١٩٠، ولم يشأ على عادته ان ينتقم من صاحب الحصن ، بل اطلق سراحه وعفا عنه فتوجه الى صور • (١٧)

الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا

لما فتح صلاح الدين عسقلان وبيت المقدس ، اطلق سراح الملك جاي لوزنجان ، فانتقل الى صور حيث اتفق مع كونراد موتنفرات ، وحشد قوا تكبيرة لاسترداد البلاد التي استولى عليها صلاح الدين ، فاثار ذلك خاطر السلطان ، لاسيما لان الملك نكث في عهده الذي قطعه لصلاح الدين بالا يشهر عليه سيفا ، ويكون مملوكه وطليقه ، كما جرى ارسال المبعوثين الى غرب اوربا يستنجدون بالمسيحيين ، ويحثونهم على استرجاع بيت المقدس ، وصاروا يحثونهم على المبادرة بالقدوم

لمساعدتهم ، واستطاعوا ان يؤلبوا المسيحيين في غرب اوربا ، فحشدوا القوات ، حتى النساء خرجن للقتال ، ومن لم يستطع الخروج استأجر من خرج عوضه او اعطاهم مالا على قدر حاله .. ولما عظمت الجموع عزموا على التوجه الى عكا ومحاصرتها (١٨) .

احكم الصليبيون الحصار على عكا ، فحفروا خندقا على معسكرهم حوالي المدينة من البحر الى البحر ، واداروا حولهم سورا رتبوا عليه الرجال ، وقطعوا بذلك طريق المسلمين الى عكا ، بينما قامت السفن الجنوية باغلاق الميناء ، فمنعت كل مساعدة يقدمها الاسطول المصري لاهل عكا والعساكر بها ، وصارت الامداد تتوالى على الصليبيين دون انقطاع . من الاسكندناويين ومن الانجليز والنرمان الايطاليين فضلا عن فلول حملة فردريك بربروسه . ومن الادلة على ضجر العساكر الاسلامية ما اشار اليه صلاح الدين في كتابه الى الخليفة الناصر لدين الله في اغسطس سنة ١١٨٩ من شدة بأس الصليبين وحماسهم للقتال، ولم تكن النساء باقل بسالة من الرجال ، وحرم عليها البابا بروما المطاعم والمشارب ، وقال « من لا يتوجه الى القدس مستخلصا فهو عندي محروم » ، ولاجل هذا يتهافتون على القتال . اما اهل الاسلام فانهم يتضجرون ولا يصبرون ، ويتسللون ولا يرجعون ، وانما يقيمون ببذل نفقة ، واذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة (١٩) .

وتوافر عند الصليبيين من الاسلحة ما فاق اسلحة المسلمين ، ومع ذلك فان صلاح الدين نجح في صد هجومين قام بهما الصليبيون

واستطاع ان ينفذ الى داخل عكا قوات وامدادا ومئونة ، ولما ادرك خطورة الموقف ، امر بتدمير استحكامات طبرية ويافا وارسوف وقيصرية وصيدا وجبيل حتى لا تقع في ايدي الصليبيين • (٢٠)

ثم قدم فيليب اغسطس ملك فرنسا ، ورتشرد قلب الاسد ملك انجلترا بقواتهما وازداد بقدومهما قوات الصليبيين ، فتمكنت من الخندق (يونيه ١١٩٠) • وعلى الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الديـن وعساكره لفك حصار الصليبيين عن المدينة ، فان الرجالة من الصليبيين وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح من وراء اسوارهم ، وظلـت الحرب مستمرة ، وتمكن العدو من نقب سور البلد ، فدخل اليها ، ولم تلبث ان سقطت عكا في ايديهم في ١٢ يوليه سنة ١١٩١ ووقع جنـد الحامية في الاسر ، وقتل الصليبيون من وقع في ايديهم في الاسر ، ولم يبق العدو « من المسلمين الا رجلا معروفا مقدما ، او قويا له يد للعمل في عمائرهم » (٢١) •

على ان سقوط عكا في يد الصليبيين ، برغم فداحته ، لم يكن الا حافزا قويلا لصلاح الدين للمضي في منازلة الصليبيين ومقاومتهم ، فضايقهم في ارسوف اثناء مسيرهم نحو عسقلان ، ثم عمد الى تخريب عسقلان حتى لا يفيد منها العدو ، ثم خرب حصن الرملة قبل مسيره الى بيت المقدس ، حيث شرع في تحصين المدينة وعمارة اسوارها وحفر خنادقها • وعمل السلطان في هذه العمارة بيده هو واولاده واجنـاده وامراؤه ومعهم القضاة والعلماء • (٢٢)

على ان ما عاناه صلاح الدين من اختلاف اراء قادته في امـر الدفاع عن بيت المقدس ، وحدوث النزاع بين العناصر التركية والعناصر الكردية في جيشه ، واصرار الانجليز والفرنسيين على المضي في القتال لم يثبط همته ، وكان لذلك من الاثر ما جعل رتشارد يستمع لنصيحة الداوية والاسبتارية والبارونات ، بانه اذا اقدم على مهاجمة بيـت المقدس تعرض للوقوع فريسة لجيش صلاح الدين والجيش المصري المرابط على التلال خارج المدينة ، فضلا عن انه لا يستطيع الابقاء مدة طويلة على الصليبيين الذين جاءوا لتأدية الحج • فقرر رتشرد الارتداد والانصراف عن مهاجمة بيت المقدس • (٣٢)

ارتد رتشرد الى الرملة ، ومنها توجه الى عسقلان ١١٩٢ ، حيث اقام بها اربعة شهور ، صار يحصنها حتى اضحت اقوى حصن علـى ساحل فلسطين ولم يتعرض صلاح الدين لهم ، وادرك بعض اتبـاع رتشرد ان صلاح الدين لم يفعل ذلك لما اشتهر به من المروءة والفروسية فامتنع عن مهاجمتهم وهم في متناول يده مما ادى الى سخط امرائه • والواقع ان صلاح الدين اراد ان يهيء لجيشه فترة من الراحة ، وان ينتظر قدوم امداد من الجزيرة والموصل (٢٤)

وجاءت الانباء تشير الى ما حدث في عكا من انقسام الصليبيين على انفسهم ووقوع النزاع بين البيازنة والجنويين ، وتنازع مونتفرات وجاي لوزنجان على عرش مملكة بيت المقدس ، وقدم رتشرد الى عكا لتسوية هذه المنازعات غير انه لم يتيسر له مصالحة مونتفرات ، فعـاد الى عسقلان بعد ان ازداد اقتناعـا بضرورة عقد الصلح مع صـلاح

الديـن • (٢٥)

جرت المفاوضات بين الجانبين بشأن الصلح ـ وفي ٢٠ مـارس سنة ١١٩٢ استقر الرأي على الشروط الاتية للصلـح : ان يحتفـظ المسيحيون بما افتتحوه من البلاد حتى يافا جنوبا ، ولهم الحق في تأدية الحج الى بيت المقدس ، وان يكون لهم به قسس وان يعود اليهم صليب الصلبوت ، ويجوز التنازل لهم عن عسقلان بعد تدمير استحكاماتها (٢٦)

وبلغ رتشرد من الاخبار السيئة عن انجلترا حيث عمد اخوه الى اغتصاب الحكم ما جعله يتعجل اتمام الاتفاق للعودة الى بلاده ، فضلا عما حل به من المرض ، وحلول التعب بالصليبيين • وفي ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ (٢٢ شعبان سنة ٥٨٨) وقع رتشرد المعاهدة التي تقضي بالسلام لمدة خمس سنوات ، وفي اليوم التالي وقع صلاح الدين المعاهـدة بحضور مبعوث رتشرد • وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثالثة (٢٧) •

ومن نصوص المعاهدة ايضا ان يكون للمسلمين والمسيحيين الحرية في ان يجتازوا ارض بعضهم بعضا •

وما كاد يتم الاتفاق حتى سارت جماعات من جيش الصليبيين ، بعد ان تجردت من السلاح ، وتحمل جوازا من الملك رتشرد ، لزيارة الاماكن المقدسة في بيت المقـدس ، ومنهـم هيوبرت والتراسقـف سالسبوري ، فلقوا من السلطـان الترحيب ـ وطلب الاسقف مـن السلطان ان يسمح لقسيسين وشماسين من اللاتين بالبقاء في كنيسـة

القيامة وفي بيت لحم والناصرة ، فأجاب صلاح الدين طلبه ، ولم يلبث ان قدم هؤلاء القسس ليؤدوا اعمالهم في امن وطمأنينة .

وارتحل رتشرد من عكا ، غير انه وقع اسيرا في يد الامبراطور هنري السادس امبراطور المانيا ، ولم يطلق سراحه الا بعد ان دفع فدية كبيرة ، ولما عاد الى انجلترا وقع في نزاع مع اخيه ومع فيليب ملك فرنسا ، ولم يلبث ان لقى مصرعه في ٢٦ مارس سنة ١١٩٩ . (٢٨)



الفصل السابع

اواخر ايام صلاح الدين

توقفت اعمال صلاح الدين الحربية ، بعد الحروب الطويلة الامد التي انهكت القوى الاسلامية ، وانحسر ملك الصليبيين حتى اضحى شريطا من الارض لا يزيد عرضه على عشرة اميال ، ويمتد على طول الساحل من يافا الى صور نحو تسعين ميلا • واستطاع بوهمند امير انطاكية بفضل ما التزمه من الحياد ان يحافظ على امارته الممتدة من مدينة انطاكية حتى ميناء سان سيمون ، واصبحت طرابلس بيد ابنه بوهمند ، واستمر الاسبتارية في حصن الاكراد ، بينما احتفظ الداوية بحصن انطرطوس •

بلغ صلاح الدين من العمر وقتذاك اربعة وخمسين عاما ، غير ان ما تعرض له من الارهاق والتعب طوال هذه الحروب مع الصليبيين ، انهك صحته • اقام في بيت المقدس الى ان سمع بمغادرة رتشرد عكا ، فالتفت الى تنظيم ادارة اقليم فلسطين ، ووجه مائة من النقابين لتدمير

(*) مات ريموند امير طرابلس ، سنة ١١٨٧ ، دون ان ينجب من يخلفه على حكم طرابلس ، فعهد بحكم امارته الى ابن اقرب الأمراء اليه ، وهو بوهمند امير انطاكية ، غير انه اشترط انه اذا قدم الى الشرق امير من بيت تولوز ، فينبغي ان ينتقل اليه حكم الامارة (طرابلس) — انظر

Runciman : History of the Crusades I. P. 470

عسقلان واخراج الصليبيين منها ، حتى يستريح سره من جانبها . واحب صلاح الدين ان يزور مصر وان يؤدي فريضة الحج ، غير ان العمل الح عليه بضرورة المسير الى دمشق . وبعد ان قام بجولة ، استمرت ثلاثة اسابيع — في البلاد التي فتحها . واجتمع (١) مع بوهمند في بيروت لتوقيع صلح نهائي ، وصل الى دمشق في نوفمبر سنة ١١٩٣ . والواقع انه كان ينتظره بها من الاعمال الكثيرة ، ما تجمع في اثناء السنوات الاربع التي امضاها في القتال . واذا اشتد برد الشتاء ، وتراكمت الاعمال ، اجل زيارته الى مصر وتأدية الحج . وما تهيأ له من وقت الفراغ امضاه في المناقشة مع العلماء في المسائل الدينية ، وصار يخرج احيانا للصيد . على ان كل من شاهد صلاح الدين ممن يعرفه ، في اواخر الشتاء ، ادرك ان صحته انهارت ، فصار يشكو من التعب والنسيان . ولم يعد في استطاعته ان يستقبل الناس . وفي يوم الجمعة ١٩ فبراير سنة ١١٩٣ عزم على الركوب لاستقبال الحاج القادم من مكة، وفي المساء شكا من الحمى والالم الشديد ، وتحمل المرض بجلد وهدوء وقد علم ان النهاية اقتربت ، وفي اول مارس انتاب صلاح الدين غيبوبة. ولما رأى الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق اليأس منه ، شرع في تحليف الناس ، واستحضر القضاة ، فعملوا له نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله (الافضل) من بعد وفاته ، واعتذر الى الناس بان المرض قد اشتد بوالده وما فعل هذا الا احتياط (٢) .

وبات بالقلعة ليلة وفاة صلاح الدين ، الشيخ ابو جعفر امام الكلاسة كيما يحضر وفاته ويذكره بالشهادة وذكر الله ، فصار يتلو القرآن ،ولما

انتهى الى قوله تعالى : لا اله الا هو عليه توكلت » تبسم صلاح الدين وتهلل وجهه وسلمها الى ربه • وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ (٣ مارس سنة ١١٩٣) • ويذكر العماد الاصفهاني : « كان يوما مشهودا لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى• ولوقبل الفداء لفداه الناس بالنفس• كان يوما عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة حتى ان ينظر الى غيره » •

ولما حان وقت دفنه ارتفعت الاصوات عند مشاهدته ، وعظم الضجيج حتى ان العاقل يتخيل ان الدنيا كلها تصبح صوتا واحدا ، وغشى الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة • ودفن رحمه الله في البستان الذي مرض به (٣) •

وكان الناس شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد ، فما يوجد قلب الا حزينا ، ولا عين الا باكية الا من شاء الله وذكر انه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد • وكان ذلك برأى القاضي الفاضل (٤) •

اشتهر صلاح الدين بالتقوى والورع ،يؤدي الصلاة في اوقاتها ، ويواظب على الصوم ، شديد الرغبة في سماع الحديث ، ويشاركه في ذلك اولاده ومماليكه • يعتمد على الله في تصرفاته واعماله ، فحين نزل الصليبيون في ببت نوبة قاصدين الصعود الى القدس ، واشتد

خوف المسلمين ، وادرك صلاح الدين تردد الامراء وضعف عزيمتهم ، صلى بالمسجد الاقصى وصار يدعو الله في سجوده •

« الهي قد انقطعت اسبابي الارضية في نصرة دينك ، ولم يبق الا الاخلاد اليك ، والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك ، انت حسبي ونعم الوكيل » (٥) •

ومن صفات صلاح الدين ، شدة البأس وقوة المراس ، لم يكترث بقوة العدو وعدده ، واذا اشتد القتال اخذ يطوف بين الصفوف • ولم يزل رحمه الله مصابرا للعدو ، وهم في العدة الوافرة ، الى ان ظهر له ضعف المسلمين فصالحهم (٦) •

وبلغ من حبه للجهاد انه لم يكن له حديث الا فيه ، ولا اهتمام الا برجاله ، وفي سبيل الله هجر صلاح الدين اهله واولاده ووطنه ، وسائر بلاده ، وجمع له ابن شداد كتابا ضمنه آداب الجهاد والايات والاحاديث التي وردت فيه • ومن اكبر امنيات صلاح الدين التي صرح بها لابن شداد ١١٨٨ (٥٨٤ هـ) بعد سقوط بيت المقدس « انه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، واوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائره واتبعتهم فيه حتى لا ابقى على وجه الارض من يكفر بالله او اموت (٧) •

كان صلاح الدين كثير المروءة ، عظيم السخاء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف • لا يرى ان يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ؛ ويكرم الوافد عليه وان كان كافرا • ولما كان ببيروت بعد ابرام الصلح

مع رتشرد وصل الى خدمته بوهمند صاحب انطاكية ، فأكرمه واجزل له ولمن معه من البارونات العطاء . وعلى الرغم من العداء بين الصليبيين والمسلمين لم يتردد صلاح الدين ، في ان يمد رتشرد في اثناء مرضه بما احتاج اليه من الفاكهة والعلاج (٨) .

وما احرزه صلاح الدين من نجاح ملموس ، لا يرجع الى ما امتاز به من صفات عسكرية عالية فحسب ، بل يرجع ايضا الى ما اشتهر به من صفات خلقية عظيمة . اذ جعل نصب عينيه مثلا اعلى لا يحيد عنه وقد التزم به ، وفي سبيله خاض سلسلة طويلة من المعارك الحربية . كانت اعماله الحربية حتى سنة ١١٨٦ موجهة الى ان يخضع لارادته نظام الاقطاع الحربي السائد ، ويحوله الى اداة طيعة لتحقيق اغراضه التي تتمثل في توحيد القوى الاسلامية وجمعها على غرض واحد ، بعد ان يهبها قدرا من صلابته وبصيرته ، وهو القضاء على قوة الصليبيين ، واستخلاص البلاد من ايديهم . وظهر اثر هذه الخطة في معركة حطين والاستيلاء على بيت المقدس وسائر المدن الساحلية . وافاد الصليبيون مما اشتهر به صلاح الدين من مباديء الشرف والمروءة والسخاء والبذل والوفاء بالوعد والتقوى ، بأن خرجوا من البلاد والحصون التي اذعنت لصلاح الدين ، ولجئوا آمنين الى صور ، وتعرض صلاح الدين بذلك للوم (٩) والواقع ان هؤلاء الذين وجهوا له اللوم ، لم يجعلوا في تقديرهم ما يجري عند قدوم الحملة الصليبية الثالثة ، ووجد الصليبيون ان صلاح الدين ما زال مشتبكا في القتال للاستيلاء على الحصون والمواقع الداخلية ، دون ان يتوفر له من الحرية ما يطلق

حركاته ، ودون ان يكون ثمة ما يؤمن مؤخرة جيشه • على ان السبب في عدم استيلاء صلاح الدين على صور يرجع اولا الى مصادفة قدوم كنراد مونتفرات اليها ، ويرجع ثانيا الى قلق الجند المشارقة وتمردهم . وهذا السبب يظهر في وضوح العيوب التي اتصفت بها العساكر التي واجه بها صلاح الدين الصليبيين القادمين من الغرب • والمعروف ان صلاح الدين ركز خطته منذ البداية على الحرب الهجومية لا الدفاعية . ولتحقيق هذه الخطة اعد الجيوش ، وتحققت هذه الخطة الى حد كبير • وعلى الرغم من ان امراءه وعساكره لم يستمروا في قتال الصليبيين في صور وانطاكية سنة ١١٨٨ ، فانه كان يرجو ان يصلح ما ظهر من هذه العيوب في حملاته التالية • (١٠)

غير ان المفاجأة لم تلبث ان حدثت بوصول طلائع الحملة الصليبية الثالثة الى عكا في اغسطس سنة ١١٨٩ • فمنذ هذه اللحظة تغيرت خطة صلاح الدين ، وواجهته تجربة بالغة العنف لم يتعرض لمثلها قائد اسلامي منذ قرون عديدة • ذلك انه تحتم عليه ان يبقى مع عساكره في اعمال حربية مستمرة ثلاث سنوات ، وفي ظروف غير ملائمة • ولو ان صلاح الدين كان من القادة العاديين لما قام بهذا العمل ، اذ التزم بأن يحارب في جهتين ضد الصليبيين ، وضد ما اشتهرت به الجيوش الاقطاعية من القلق والاضطراب ، فأرغموه على رفع الحصار عن صور بعد ان كادت تستسلم وتعللوا « بكثرة الجراح وقلة العلوفات (١١) • ولما اشتد القتال على عكا تركز هجوم الصليبيين على الديار بكرية ، وكان بهم غرة عن الحرب فانهزموا » • (١٢)

وسبقت الاشارة الى ما كان من اختلاف قادة صلاح الدين بالقدس والنزاع بين الاكراد والترك • واشار صلاح الدين الى الاسباب التي دعته الى قبول الصلح : فمنها ازدياد قوة العدو ، وتوقعه حدوث الخلاف بعد وفاته بين اهل بيته وانصرافهم عن الاهتمام بالمصلحة العامة

للمسلمين • (١٣) على انه بفضل قوة شخصيته ، والحماس الديني المتأجج في صدره ، وما اشتهر به من المثابرة والصبر ، اثار المقاومة العنيفة التي ارهقت الاعداء ، وبددت جهودهم وجعلتهم ينزلون على ما فرضه من شروط للصلح •

اشتهر صلاح بالادراك السليم والحكم السديد ، وبالقدرة على اختيار مستشاريه ، والاستماع اليهم والاخذ بارائهم • لا يقدم على عمل الا بعد تفكير وتدبير ، فاذا قام به ، ظهر اثر مواهبه وقدرته • فلم يعلن سقوط الدولة الفاطمية الا بعد ان مهد لذلك بما قام به من اعمال ؛ ولم ينشب القتال ضد بيت المقدس الا بعد ان اعد لذلك عدته ، فتغلب على المشكلات التي واجهته في مصر وسوريا ، ووحد القوى الاسلامية•

ويشير المؤرخون الى ان عهد صلاح الدين لم يكن الا امتدادا لما كان معروفا من قبله من التقاليد ، ومحاكاة لما استقر من النظم في جهات اخرى • اذ ان صلاح الدين ادخل بمصر من طرق الحكم ما تلقاه بالموصل ودمشق • والمعروف ان اباه ايوب شغل بعض الوظائف السلجوقية ، قبل ان ينتقل الى خدمة الزنكيين ، كما ان الشرق الاوسط تأثر الى حد كبير او صغير في هذه المرحلة من التاريخ بهذه الاسرة السلجوقية التي اشتهرت بدفاعها عن المذهب السني ، بما نهضت به من الحروب ، وما انشأته من نظم حربية واقتصادية ، وما لجأت اليه من انشاء المدارس • والراجح ان صلاح الدين درس في شبابه ، وانتهج ما جاء في كتاب جرى تأليفه بناء على رغبته ، واشتمل « على طريق من الحكمة واصول من السياسة وتدبير الرعية ومعرفة المملكة ، وما يلزم الجيش من حقوق الجهاد »• ونبه فيه صاحبه على الصفات الكريمة، واشار فيه الى فضل المشورة ، وكيفية مصابرة الاعداء وسياسة

الجيش (١٤) . وهذا الكتاب هو المعروف بالمنهج المسلوك في سياسة الملوك الذي الفه عبد الرحمن بن عبد الله الشيزري . على ان صلاح الدين لم يكن ، فيما يبدو ، يجهل في صباه امر الوصية السياسية التي وضعها الوزير السلجوقي نظام الملك، وهي المعروفة باسم سياستنامه (١٥).

واشتهر صلاح الدين منذ صباه بالاقدام والشجاعة والصراحة المتناهية ، ومن الدليل على ذلك انه اقدم على القبض على الوزير الفاطمي شاور وساقه الى الموت ، لما ارتكبه شاور من الخيانة ، وما عمد اليه من اساليب الغدر والدهاء ، على ان ايوبا نبه ابنه صلاح الدين الى خطورة صراحته في وقت سادت فيه المكائد والمؤامرات ، وذلك حين وقعت الجفوة بينه وبين نور الدين سنة ١١٧٢ .

وادرك صلاح الدين ما ترتب على ما جرى من الحوادث في النصف الاول من القرن الثاني عشر من دروس ، الم يشاهد عند قدومه الى القاهرة وزيرا يلتمس المساعدة من الصليبيين لمقاتلة جند نور الدين . الم يكتب مؤرخ في القرن الثالث عشر (وليم الصوري) « وشهد صغار الامراء المسلمين بالشام ببالغ السرور ما جرى من استقرار الصليبيين اذ كانوا يأملون ، ان هذا الجار سوف يكفل لهم بقاء الامارات التي اقامها كل منهم ، نتيجة ما حدث من تفرق كلمة المسلمين (١٦) »

وعهد صلاح الدين يمتاز بالفطانة وحسن التدبير ، ويدل صراحة على الحافز النبيل الذي ساير اعماله طوال حياته . اما القول بان صلاح الدين دفعه الطموح الشخصي الى العمل على توسيع ممتلكاته على حساب اخوانه في الدين ، فينقضه ما قام به من اعمال ، وما تعرض له من سوء تصرف بعض الامراء المسلمين ، مما يقف حجر عثرة في

سبيل تحقيق غرضه الاصلي ، وهو توحيد القيادة ثم مهاجمة الصليبيين فأعداء صلاح الدين من المسلمين هم الذين استنجدوا بأمير المـوصل والاسماعيلية وبكونت طرابلس • وما اشتهر به صلاح الدين من متانة الخلق اكسبه الهيبة والكرامة • ولسنا في حاجة الى القول بان الزنكيين هم الذين هادنوا العدو وانهم اطلقوا مقابل فدية كبيرة سنة ١١٧٦ سراح كونت طرابلس ، وكذلك جوسلين صاحب الرها ، وريجنالد شاتيـون الذي كان عدوا لدودا لصلاح الدين (١٧) •

وترجمة حياة صلاح الدين دونها اثنان من معاصريه ، يعتبـران بسبب اتصالهما بخدمته ، مؤرخين خاصين له ، واحدهما وهو العمـاد الاصفهاني كتب في لغة مغرقة في الادب ، تاريخ فتح الشام وفلسطين ، وهو الكتاب المعروف بالفتح القسي في الفتح القدسي ، حرص العماد فيه على تسجيل اعمال صلاح الدين وحروبه منذ الاستيلاء على بيت المقدس سنة ١١٨٧ • غير ان ما التزمه العماد من السجع والتزويـق في الاسلوب جعل الوقائع التاريخية تكاد لا تظهر • اما ابن شـداد فانه دخل في خدمة صلاح الدين سنة ١١٨٧ ، فصار لا يفارق صلاح الدين ، فسطر ما شاهده بنفسه ، او اخبره به من يثق به (١٨) •



الفصل الثامن

الملوك الايوبيون بعد صلاح الدين

عصر السلطان العـــادل

احس صلاح الدين بان ادارة امبراطورية شاسعة سوف تؤدي الى مشكلات خطيرة ، فحاول قبل وفاته ان ينظمها بنفسه ، وان يجعل امراءه وخاصته يقبلون حله • ففي سنة ١١٨٤ اعلن نصوص وصيته السياسية التي تقضي بان تكون سلطنة مصر لابنه الملك العزيز عثمان بوصاية ابن اخيه المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة ، وان تستقـــر حكومة الشام لابنه الملك الافضل بوصاية اخيه الملك العادل ، وجعل امد الوصاية الوقت الذي يرى المسلمون فيه ان ابناءه اضحوا قادرين على ان يستقلوا بالحكم ، وغدا لهم من القوة ما يمكنهم من تصريف الامور • ثم تقرر سنة ١١٨٦ ان يسير العادل الى مصر ليكون اتابكا للملك العزيز عثمان ، الذي طلب الى أبيه أن يكون الملك العادل معه (١) • تولى حلب الظاهر غازي ابن صلاح الدين سنة ١١٨٦ عوضا عن العادل • أما تقي الدين فاستمر على ما كان بيده من البلاد وهي حماه ، والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، وزاده السلطان ميافارقين ، وحران والرها وسميساط • ثم استولى على خلاط ، وتوفـي سنة ١١٩١ ، فجعـل السلطان للمنصور بن تقي الدين حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقـلعة نجم • وما كان بيد تقي الدين من البلاد الجزرية والشرقية صار للملك العادل ، بالاضافة الى ما بيده من البلاد وهي الشوبك والكرك والبلقاء وبعض جهات مصر (٢) . وما بقي من امارات الشام صار على الوضع

التالي : بعلبك بيد الملك الأمجد بن توران شاه ، وحمص بيد الملك مجاهد بن ناصر الدين بن شيركوه • وعلى هذا النحو ظهر قبل وفاة صلاح الدين ، حرص أفراد أسرته على امتلاك البلاد والتنافس بينهم على زيادة ما بأيديهم من الأملاك •

ومنذ سنة ١١٩٣ ، السنة التي مات فيها صلاح الدين حتى سنة ١٢٥٠ ، وهي السنة التي هلك فيها آخر سلطان أيوبي بمصر ، لم يكن تاريخ الأيوبيين سوى قصة طفحت بما وقع من المؤامرات والحروب بين امراء الاسرة الايوبية • فكل منهم يطمع في ان يكون نصيبه يضارع نصيب جاره أو يفوقه • واتفق جميع أمراء الشام على ألا يعترفوا بسيادة سلطان مصر ، الذي زعم أن له السيادة عليهم . لما لدمشق من أهمية في توجيه السياسة المصرية السورية والجزرية (٣) ، ولذا أضحت هدف الحروب التي استمرت بين الأيوبيين ما يزيد على ستين سنة • أما الحروب الصليبية فانها دخلت في مرحلة جديدة امتازت بأن ما أحرزه الصليبيون بالمفاوضات الدبلوماسية يفوق ما أحرزوه بالحروب

الملك العزيز عثمان — تولى عرش مصر دون مقاومة ، وبلغ عند وفاة والده الثانية والعشرين من عمره ، فاستقل بالحكم وامتد سلطانه حتى شمل جنوب فلسطين ما عدا الكرك • وانصرف الى توطيد قواعد حكمه في مصر ، فتنازل عما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة ، وخفف وطأة المجاعة بالقدس . فأرسل اليها الغلات ، ثم توجه بعساكره لمهاجمة دمشق سنة ١١٩٤ بسبب انصراف أميرها الى اللهو والعبث ، وخضوعه لسيطرة الوزير ضياء الدين بن الأثير ، وممالأته للصليبيين • غير أن العادل استطاع أن يحسم النزاع بين الأمراء الايوبيين ، بما جرى من اتفاق أبرمه في ٣ يوليه ١١٩٤ ، لتنظيم العلاقات بينهم • وبمقتضى هذا الاتفاق اصبح العادل يسيطر على السياسة الايوبية ، بفضل املاكه

في الجزيرة والكرك ، فصار أميرا حمص وبعلبك يدينان بالولاء للملك الأفضل صاحب دمشق ، واعترف أمير حماة بسيادة الظاهر غازي صاحب حلب (٤) .

واستغل العادل تجدد العداء بين الأخوين الأفضل والعزيز عثمان، فتارة ينحاز الى جانب الأفضل ،وتارة ينضم الى العزيز ، وترتب على تحالفه مع العزيز سنة ١١٩٦ أن هاجم العزيز دمشق ، ولم يلبث أن أعلن الأفضل ادعاءه في يونيه سنة ١١٩٦ فتقرر نفيه الى صرخد بحوران حيث عكف على التقوى والعبادة وكتابة القرآن ولبس الصوف الخشن : فأضحى العزيز زعيم البيت الأيوبي من الناحية الاسمية ، تخضع له فلسطين ودمشق فضلا عن مصر ، وجرى ذكر اسمه في خطبة الجمعة بحلب ، على أن العادل أصبح بعد اقامته في دمشق يسير هذه الامبراطورية وفق هواه ومشيئته (٥) .

على أن العزيز لقي مصرعه في نوفمبر سنة ١١٩٨ بسبب سقوطه عن ظهر جواده في أثناء خروجه للصيد . وأضحت مصر في حاجة الى أن يتولاها أمير قوى لما حدث بها من اختلال الأمن وفساد الأمور ، وسوء الأحوال المالية ، فضلا عن أن الامير الذي تولى حكمها ، وهو المنصور بن العزيز ، لم يكن الا صبيا لم يتجاوز العاشرة من عمره : فتولى الوصاية عليه عمه الأفضل ، على ألا يذكر اسمه (الأفضل) في خطبة الجمعة ، ولا ينقش على النقود ، وألا تتجاوز وصايته سبع سنوات (٦) . غير أن الأفضل استغل الفرصة لاعادة سلطانه الى دمشق . فخرج من القاهرة للاستيلاء عليها ، وتقدم الظاهر صاحب حلب لمساعدته في ذلك ، لولا أن العادل استطاع أن يسبقهما في الوصول الى دمشق ، وتعقب الأفضل في أثناء ارتداده الى مصر ، ووقعت معركة بينهما في بلبيس ، تعرض فيها الأفضل لهزيمة ساحقة

فاعلن خضوعه ، واستولى العادل على القاهرة في فبرايـر سنة ١٢٠٠ وحصل على موافقة الأمراء بعزل المنصور ، وفي ٢٥ يوليه سنة ١٢٠٠ صار العادل سلطانا على مصر فضلا عن احتفاظه بامارة دمشق وأملاكه بأعمال الجزيرة (٧) •

على أن دولة العادل لم تكن بنجوة من تهديد الصليبيين ، فضـلا عما أصاب مصر من انخفاض النيل سنتي ١٢٠٠، ١٢٠١ (٨) ، وما نجم عنه من الأوبئة والمجاعات وهجرة السكان • وأفاد العادل من المنازعات التي وقعت بين الصليبيين في شمال سوريا على حكم أنطاكية وأدى ذلك الى العداء بين ملك أرمينيـة وملك بيت المقدس وأمـيري أنطاكيـة وطرابلس • يضاف الى ذلك ما حدث من الحروب الداخلية بين سلاجقة آسيا الصغرى • فجرى عقد معاهدة في سبتمبر سنة ١٢٠٤ لمدة ست سنوات بين العادل وأملريك ملك بيت المقدس ، وبمقتضاها عـادت التجارة مع سواحل الشام (٩) •

وجرى توجيه الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ بتحريض البنادقة الذين عقدوا في تلك الفترة معاهدة تجارية مجزية مع الأيوبيين (١٠) • والمعروف أن معاهدات الهدنة بين المسلمين والصليبيين لم يجر تطبيقها في جميع المملكة اللاتينية ، بل شملت بعض مناطق أو بعض طـوائف دينية حربية مثل الداوية والاسبتارية • ففي سنة ١٢٠٥ أغار الاسبتارية على شمال الشام وهاجموا اللاذقية وجبلة وحماه وحمص ، وترتب على ذلك ان العادل اعد حملة لتأديبهم ، فحاصر الكرك ، ثم مدينة طرابلس ثم عقد معاهدة جديدة مع الاسبتارية في يوليه سنة ١٢٠٧ (١١) •

ولما استولى الكامل على اقليم أرمينيا ١٢٠٧ فرح العادل فـرحا شديدا : وارسل الى الخليفة يطلب التقليد بمصر والشام واخلاط وبلاد

الجزيرة ، وجاء التقليد بذلك الى دمشق فتلقاه العادل بسرور شديد وكان يوما مشهودا (١٢) •

ونظم الملك العادل الامبراطورية على ما أجراه أخوه صلاح الدين من تقسيم فاحتفظ لنفسه بنوع من السيادة العليا • وبمقتضى هذا التقسيم اصبح ابنه الكامل أميرا على مصر ، وصار ابنه المعظم عيسى يحكم امارة تمتد من العريش الى حمص ، كما تولى الأشرف موسى البلاد الشرقية ، أما أمراء حلب وحمص وحماه فالتزموا الهدوء والسكينة ، بعد أن صارت اماراتهم تطوقها أملاك العادل (١٣) •

وجعل هذا التنظيم الجديد للملك العادل الحرية المطلقة في تصريف الأمور ، وهيأ له الاشراف العام على الأيوبيين ، وجعله ينصرف الى الدفاع عن المملكة ، فقام في منتصف سنة ١٢٠٩ ، بحملة لقتال الكرج الذين أغاروا على أخلاط ، وانتهز هذه الفرصة لمهاجمة أمير سنجار التركي ، غير أنه ارتد عنه بناء على نصيحة الخليفة ، وترك لاحد أبنائه أمر رد الكرج ، وعاد الى الشام (١٤) •



الفصل التاسع

الحملة الصليبية الخامسة

سبق ان اشرنا الى ما حدث سنة ١٢٠٤ من توقيع هدنة بين العادل وبين اماريك ملك بيت المقدس ، وافاد الجانبان من هذه الهدنة. ذلك ان العادل انصرف الى توطيد مركزه وتدعيم ممتلكاته ، ورد الاخطار الخارجية عنها ، ولم يحفل بمهاجمة المملكة الصليبية لانه لا يخشى من جانبها ضررا من الاضرار ، على حين انه اذا هاجمها فالراجح ان هذا الهجوم يؤدي الى اثارة حرب صليبية جديدة (١) . وفي يوليه سنة ١٢١٠ انقضى امد الهدنة ، فارسل السلطان العادل يطلب تجديد الهدنة ، وقبل الملك الجديد لبيت المقدس المعروف باسم حنابريين ، الذي تولى الحكم سنة ١٢١٠ ، تجديد الهدنة لمدة خمس سنوات ، وبدأ تنفيذها في يوليه سنة ١٢١٢ ، غير انه ارسل في نفس الوقت الى روما يطلب اعداد حملة صليبية وارسالها الى الشام عند انتهاء اجل الهدنة . (٢) على ان ما ورد من الانباء من اوربا عن اعداد حملة صليبية ادى الى توحيد القوى الاسلامية ، واخذ الظاهر غازي صاحب حلب يلتمس صداقة عمه العادل ، بينما وقع الاختلاف والاضطراب في صفوف الصليبيين في الشرق بسبب التنازع بين الامارات الصليبية ، وبينها وبين الامارات الارمنية ، وما حدث من مشاحنات بين الطوائف الدينية العسكرية من جهة اخرى . يضاف الى ذلك ان المسيحيين الوطنيين صاروا يكرهون اللاتين ويفضلون حكم المسلمين ، وانصرف اولئك اللاتين الى حياة الترف والمجون ،

وفسد رجال الدين وشاركوا في تدبير المؤامرات ، وافادت الجاليات الايطالية من العلاقات الودية مع المسلمين في تنشيط تجارتها وزيادة رخائها ، ولذا حرص الايطاليون على المحافظة على السلام (٣) .

والمعروف ان الملك رتشارد قلب الاسد اوصى بمهاجمة مصر ، كما ان مجمع اللاتران الذي عقده البابا انوسنت الثالث سنة ١٢١٥ اشار الى ضرورة مهاجمة مصر ، فان الصليبيين اذا استطاعوا الاستيلاء على وادي النيل ، فان المسلمين سوف لا يفقدون اقليما غنيا فحسب ، بل لا يستطيعون ايضا المحافظة على اسطولهم في شرق البحر المتوسط ، ولن يستطيعوا البقاء في بيت المقدس بعد ان تقع قواتهم بين القوات الصليبية في عكا ومصر . واتخذ الصليبيون قرارا بأن تكون دمياط هدفهم الاساسي . (٤)

وظل العادل على اعتقاده بان الصليبيين سوف لا يقدمون على نقض الهدنة ، وايده في ذلك ابنه الكامل نائبه على مصر ، وذلك لما كان من صلات ودية بين الكامل والبنادقة الذين عقدوا معه معاهدة تجارية سنة ١٢٠٨ ، ولم يكن يقل عدد التجار الاوروبيين بمصر عن ثلثمائة . (٥)

قدمت القوات الصليبية الى عكا في ابريل سنة ١٢١٨ ، ثم ارتحلت على سفن فريزية قاصدة مصر ، ولم يلبث ان القى الاسطول الصليبي مراسيه امام دمياط في ٢١ مايو سنة ١٢١٨ ، ونزل الجيش بقيادة حنا بريين الى البر على الشاطىء الايسر للنيل دون ان يلقى مقاومة . ويحمي دمياط خندق عميق وسور ضخم ، مكون من ثلاث حوائط ، فلا بد ان يستمر الحصار طويلا . وحرص الصليبيون على ان يتجنبوا كل هجوم مفاجىء فاحاطوا معسكرهم بخندق وحائط .

ولم يتيسر للاسطول ان يسير قدمـا الى المدينة بسبب ما امتد عبـر النيل من سلسلة ضخمة بين برجين قويين مشحونين بالجند ، احدهما يقع على الشاطىء الشرقي للنيل والثاني في جزيرة بالنهر ، فوجه الصليبيون جهدهم اول الامر للاستيلاء على البرج الذي يقع في النهر، فهاجموه باسطولهم وبالات الحصار التي اقاموها على سفن مسطحة ، مربوطة بعضها الى بعض • (٦)

اما الملك الكامل الذي ناب عن ابيه العادل في حكم مصر ، والذي اعتقد بان الاوربيين لن يقدموا على مهاجمة المسلمين ، فانـه انتقل سريعا الى موضع القتال حيث تولى قيادة الجيش ، وامر بحشد جميع العربان باقليم وسط الدلتا ، غير انه استطاع قبل قدوم هؤلاء العربان ان يثير في نفوس حامية دمياط روح الجهاد والحماس الديني• وما قام به الملك الكامل من هجوم مضاد بلغ من الشدة ان الصليبيين خسروا كثيرا من اسلحتهم ولجئوا ان يقيموا برجا ضخما من الخشب نصبوه على سفينتين ، يصل بينهما جسور وحاملات ، وبهذا الحصن المتحرك استطاع الصليبيون ان يستولوا على برج السلسلة • (٧)

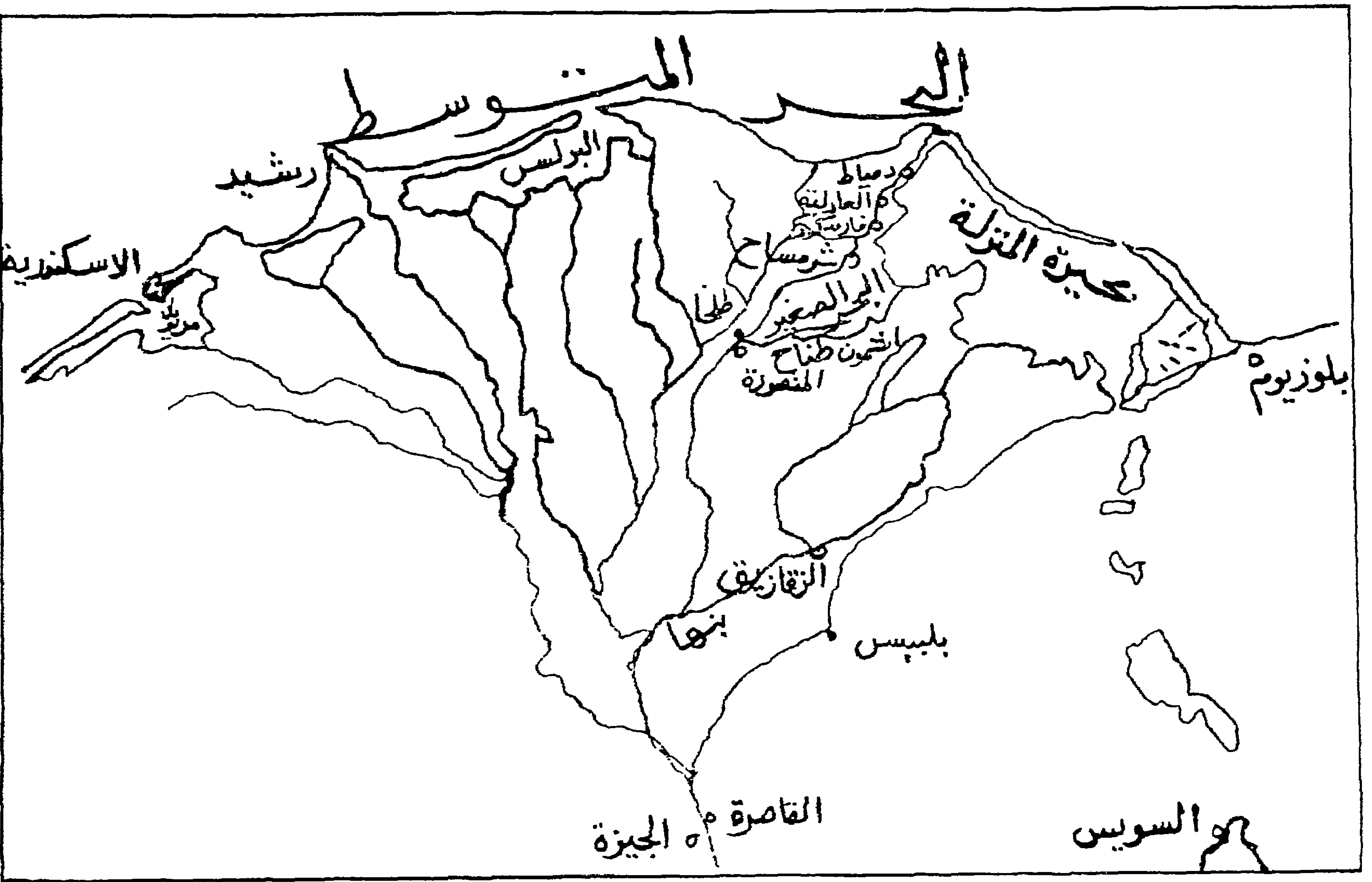
وبينما تجري الامور على هذا النحو في مصر ، وتصل انباؤها الى العادل المقيم في مرج الصفر في الشام ، التي منها ارسل الامدادات الى ابنه الكامل ، خر العادل مريضا فأسرع بالسير الى دمشق ، غـير انه قضى نحبه في اثناء الطريق في ٣١ اغسطس سنة ١٢١٨ • (٨)

تحتم على الكامل ان ينهض بالعبء الثقيل الذي نجم عـن الهجوم المفاجىء الذي قام به الصليبيون • وتبدد خبر وفاة العـادل وسط ما جرى من الاستعداد الحربي للدفاع عن دمياط ، اذ لـم يفكر الكامل الا في مواصلة الجهاد • ولو ان الصليبيين هاجموا دميـاط

عقب سقوط برج السلسلة في ايديهم ، لاستطاعوا ان يستولوا عليها ، غير انهم ترددوا وقرروا الانتظار حتى تقدم لهم الامدادات . فلما قدم الكاردينال بيلاجيوس بحملته في سبتمبر سنة ١٢١٨ ، لم يلبث ان دب النزاع بين الصليبيين . اذ اصر بيلاجيوس على ان يتولى قيادة الحملة باعتباره نائبا للبابا ، على حين ان حنا بريين اعترف به الصليبيون قائدا لهم . (٩)

وتوافر للملك الكامل من الامداد ما يكفي للقيام بمهاجمة المعسكر الصليبي ، فلم يلبث ان اقام جسرا على النيل ، على مسافة قصيرة شمالي المدينة . غير انه لم يتبع ذلك بتسيير جيشه لاجتياز النهر ، بل عمد الى شن الهجوم من ناحية الماء ، فاشتد القتال ، واوشك المسلمون ان يقتحموا المعسكر . لولا ان توالت الامداد على الصليبيين فارتد المسلمون . على ان الصليبيين تعرضوا لمتاعب شديدة منها ان معسكرهم غمرته مياه البحر المتوسط نتيجة الرياح العاصفة . ومنها انتشار الوباء بين الجند فهلك منهم ما لا يقل عن سدسهم . فضلا عن شدة برودة الشتاء (١٠) .

ورأى السلطان الكامل ان يرتد الى داخل البلاد . فاقام معسكره عند فارسكور التي تقع على مسافة ستة اميال من جنوب دمياط ، واستعد لمهاجمة مؤخرة الصليبيين اذا هاجموا دمياط . وقدم المعظم صاحب دمشق على رأس جيش كثيف ، بعد ان خرب اسوار بيت المقدس وتبنين وصفد وبانياس حتى لا يفيدوا منها اذا قبلوا الحصول على بيت المقدس مقابل الجلاء على مصر . وبعث الكامل والمعظم الى سائر امراء العالم الاسلامي والى الخليفة العباسي في طلب النجدة والمساعدة . وبفضل ما بذله المدافعون عن دمياط لاحباط هجوم الصليبيين ، واستخدام النيران الاغريقية في تدمير معدات الحصار


البحر المتوسط
رشيد
البرلس
الاسكندرية
مريوط
دمياط
العادلية
شرمساح
طلخا
البحر الصغير
أشمون طناح
المنصورة
بحيرة المنزلة
بلوزيوم
الزقازيق
بنها
بلبيس
القاهرة
الجيزة
السويس

التي نصبوها على المدينة ، قاموا بهجوم كبير على الجيش الصليبي ، ترتب عليه ان هلك عدد كبير من نبلائهم وقادتهم فضلا عن كثرة القتلى والاسرى ، ولم يلبث ان دب الخلاف بين قادة الحملة ، فانزل المسلمون بالصليبيين هزيمة ساحقة (١١) • وعرض الصليبيون على الكامل ، وقف القتال ، وعقد الهدنة •

وقبل الكامل رجاء الصليبيين ، لما تعرضت له مصر وقتذاك من المجاعة نتيجة انخفاض النيل ، ولحرص المعظم على الرجوع بعساكره الى الشام ، ولما ورد من الاخبار عن نشاط الاشرف موسى في شمال الشام ، ولما حدث من خضوع الخليفة العباسي الناصر لدين اللـه لسلطة خوارزم شاه الذي اقام امبراطورية امتدت من السند الى نهر دجلة • واعلن الكامل استعداده للتنازل عن بيت المقدس مقابـل الجلاء عن دمياط ، غير ان الصليبيين لم يلبثوا ان رفضوا هذا العرض، فتجددت العداوة بين الفريقين (١٢) •

ووقع بين الفريقين معارك عديدة بعد سقوط دمياط فـي يـد الصليبيين في٥ نوفمبر سنة ١٢١٩ ، ولم تكن نتائجهـا في صالـح الصليبيين • واتخذ الملك الكامل معسكره في موضع يقع على النيل عند التقائه بالبحر الصغير ، وشيد به مباني عديدة ، وصار هـذا الموضع مدينة المنصورة ، واصر الصليبيون على مواصلة السير حتى بلغوا البحر الصغير فاصبحوا يواجهون الجيش الاسلامي ، غير انه وافق سيرهم ارتفاع النيل • وقدمت الامداد من الشام ، واستطاعت ان تتخذ مواضعها بين الصليبيين ودمياط ، وبذلك احاط المسلمـون بالجيش الصليبي من كل جانب ، ولم يكن لديه من المئونة ما يكفيه مدة طويلة ، فقرر الصليبيون الارتداد في اغسطس سنة ١٢٢١ ، فأمر السلطان بقطع جسور النيل وفروعه فاغرقت مياهه الاراضي التـي

سوف يجتازها الصليبيون ، فصاروا يتعثرون في سيرهم ، وتعقبهم فرسان السلطان من الترك ورجالته من النوبيين . فلقى عدد كبير من الصليبيين مصرعهم ، ووقع منهم كثيرون في الاسر . وقبل السلطان بعد انتصاره الساحق الهدنة على اساس جلاء الصليبيين عن دمياط وعقد هدنة لمدة ثماني سنوات ، واطلاق سراح الاسرى من كلا الجانبين ووافق السلطان على ان يعيد لهم صليب الصلبوت ، وان يقدم الصليبيون رهائن من قادتهم الى ان يتم الجلاء عن دمياط . وفي ٨ سبتمبر سنة ١٢٢١ ابحرت الحملة من دمياط (١٣) .

النزاع بين الامراء الايوبيين :

ترتب على زوال الخطر الخارجي عن البلاد ان عاد الامراء الايوبيون الى ما درجوا عليه من صرف ايامهم في المنازعات الداخلية لتحقيق مطامع اقليمية ، ولذا ادت هذه المنازعات الى قيام الصليبيين والخوارزمية تخريب سوريا وفلسطين ونهبهما .

واضحى للملك الكامل من النفوذ والسلطان ما جعله يفرض على امراء الشام بان يلتزموا الهدوء والسكينة ، ولم يخرج عن طاعته الا الملك المعظم صاحب دمشق ، الذي سعا سنة ١٢٢٥ ، بعد ان نجح الملك الكامل في عزله عن سائر الامراء الايوبيين . الى اتخاذ حليف من خارج البيت الايوبي . فاتصل بخوارزم شاه الذي اصبحت املاكه تجاور املاك الايوبيين ، بل انه عمد الى الاغارة على بلاد الجزيرة ونهبها والواقع ان احد امراء البيت الايوبي هو الذي استقدم الخوارزمية لمساعدته ، ففي سنة ١٢٢٥ (١٤) اغار الخوارزمية على ربض من ارباض اخلاط يقع في امارة الاشرف موسى ، وحدث في اثناء مهاجمة الخوارزمية اخلاط ، وزحف صاحب اربل على الموصل ، ان قام الملك

المعظم بحصر حمص ، واستغل السلاجقة باسيا الصغرى هذه الحوادث وهاجموا ديار بكر . وهددوا املاك حلب . وخشى الاشرف ان يتم تطويقه ، بعد ان تبين له ان الملك الكامل لم ينهض لمساعدته ، ولـذا توجه لزيارة المعظم ، وجرت تسوية الامور بينهما . وفي مايو سنة ١٢٢٧ تم الاتفاق على ان يقوم الاشرف بتأييد المعظم صاحب دمشق ومساندته ضد اميري حمص وحماه والملك الكامل ، فلم يسع الكامل الا ان يلتمس محالفة الصليبيين بان وعدهم بالتنازل لهم عن بعض املاك صاحب دمشق (١٥) .

الاتفاق مع فردريك الثاني :

حسبما ورد في المقريزي ارسل الملك الكامل الامير فخر الدين الى ملك الفرنج يحثه على القدوم الى عكا(*)، ووعده بان يعطيه مدنا عديدة على ساحل فلسطين ، اذ هو شغل اخاه الملك المعظم ، فارسل الامبراطور جيشا الى الساحل . هذه الرواية الواردة في حوادث سنة ١٢٢٧ اثارت شيئا من الاضطراب والخلط ، لان الامبراطور فردريك لم يقدم الى الشرق الا في السنة التالية . وفي روايات اخرى ما يشير الى وعد الكامل بالتنازل عن بيت المقدس (١٦)

(*) لم يكن في استطاعة الكامل ان يستنجد بالمغول ضد اخيه المعظم الذي تحالف مع الخوارزمية والمعروف ان المغول كانوا مصدر خطر على الخوارزمية ، غير انهم كانوا وقتذاك منصرفين الى تسوية مشكلاتهم الداخلية، ولذا ارسل الكامل سنة ١٢٢٦ الامير فخر الدين الى فردريك الثاني بصقلية يطلب مساعدته مقابل التنازل عن بيت المقدس ، الذي كان من املاك المعظم . فخروج فردريك الى الشرق يرجع من جهة الى ضغط البابا، ومن جهة اخرى كان بتأثير الكامل . انظر

Runciman : History of the Crusades 11 P. 184 - 185

ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ١٦٢ — ١٦٨

ابو الفدا ص ٩٩ - ١٠٢

على ان الملك المعظم مات في ١١ نوفمبر ١٢٢٧ ، وخلفه على ممتلكاته ابنه الناصر داود ، وهو شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره ، لم يكن على حظ من التجربة والخبرة ، فتوجه الكامل بعساكره في ٢٠ يوليه سنة ١٢٢٨ ، فاستولى على بيت المقدس ونابلس ؛ وعندئذ استنجد الناصر داود بعمه الاشرف موسى ، فقدم لمساعدته . غير ان الكامل والاشرف اتفقا على الاستيلاء على دمشق في نهاية سنة ١٢٢٨ (١٧) ، واقتسام ممتلكات ابن اخيهما حتى لا تقع في يد الصليبيين (١٨) .

تسليم بيت المقدس الى فردريك :

لما قدم فردريك الى عكا في سبتمبر سنة ١٢٢٨ ، ارسل الى الكامل يخطره بقدومه ، ويعلنه بعزمه على احتلال بيت المقدس ، وفقا لما تم الاتفاق عليه . اما الكامل فانه لم يعد يخشى اخاه بعد ان استولى على دمشق ، انما ادرك سخط الناس عليه لما اقدم عليه من الاتصال بفردريك ، فاراد ان يطيل امد المفاوضات بينه وبين فردريك والمعروف ان الهدنة التي تمت عقب جلاء الصليبيين عن مصر لا ينتهي اجلها الا في نهاية سنة ١٢٢٩ . وانتهز فردريك فرصة تحرك جلال الدين خوارزم شاه نحو الغرب ، وفراغه من تحصين يافا ، فارسل من قبله رسولين الى الكامل في فبراير سنة ١٢٢٩ وتم الاتفاق بين الجانبين ، وبمقتضى هذه المعاهدة حصل فردريك على بيت المقدس ما عدا الحرم الشريف حيث قبة الصخرة والمسجد الاقصى ، وبيت لحم والناصرة وعلى شريط من الارض يصل بين بيت المقدس والساحل . ولفردريك الحق في ان يعيد بناء اسوار بيت المقدس ، وينبغي اطلاق سراح الاسرى من كلا الجانبين ، وتحدد اجل الهدنة بعشر سنوات وخمسة شهور واربعين يوما ابتداء من ٢٤ فبراير سنة ١٢٢٩ . (١٩)

على انه لم تلق معاهدة من السخط وعدم الرضا مثلما لقيت هذه المعاهدة ، اذ ارتاع المسلمون لتوقيعها ، واعلن الناصر داود الحداد ، وتعرض الكامل نفسه لتأنيب الفقهاء والعلماء ، وصار يعلن بأنه لم يعط الفرنج الا الكنائس والبيوت المخربة ، على حين ان المسجد الاقصى والمشاهد ما زالت باقية على حالها ، وان المسلمين ما زالوا سادة الاقليم وما زالت تجري الشعائر الدينية • اما المسيحيون فانهم علقوا اهمية كبيرة على الموقف الحربي ، فعلى الرغم من ان المعاهدة جعلت لهم القرى التي تكفل سلامة الطريق الممتد بين بيت المقدس وقاعدتهم في عكا، فان المتطرفين منهم حزنوا لانه جرى الاستيلاء على بيت المقدس من غير قتال ، وادركوا ان بيت المقدس سوف لا يبقى طويلا في يد المسيحيين ، طالما بقيت الحصون الواقعة شرق الاردن في بد المسلمين ، ولذا لم يطلب احد من المسيحيين رفع الحرمان عن الامبراطور ، برغم ما اداه من الخدمة لهم • (٢٠)

ووقعت معارك عنيفة في ابريل سنة ١٢٢٩ حول الاستيلاء على دمشق ، ولم يلبث ان تخلى الامراء والعساكر عن الناصر داود لانه لم يدفع لهم من المال ما يكفي لدفع نفقاتهم ، فأعلن خضوعه واذعانه• (٢١)

وتقرر عقد اتفاق جديد ، ترتب عليه ان اتسعت املاك سلطان مصر ، فأخذ الاشرف امارة دمشق ، اما الناصر داود فقنع بالكرك والصلت والبلقاء وبيت المقدس وبيت جبرين ، واحتفظ الكامل بما تبقى من فاسطين ، فضلا عن جهات الجزيرة التي حصل عليها من الاشرف مقابل التنازل عن دمشق ، فعين من قبله ولاة على حران والرها والرقة وسروج والاماكن الواقعة باعالي الفرات • وبلغ من شدة اهتمام السلطان الكامل بها انه توجه اليها بنفسه •

غير ان الكامل لم يستطع ان يبقى طويلا بعيدا عن حاضرة ملكه ٠اذ بلغه خبر وفاة ابنه مسعود الذي يحكم اليمن ، غير ان ثمة امرا اخر سيطر على تفكيره ٠ وجعله يبادر بالعودة الى القاهرة ، اذ جاءه الخبر بان ابنه الصالح ولي عهده في مصر ، وضع خطة لعزل ابيه عن الحكم، اذ اشترى عددا كبيرا من المماليك الترك والف منهم حرسا خاصا به، كما انه استنفد ما في الخزانة من الاموال ، ولسد هذا العجز لجأ الى ابتزاز اموال التجار ٠ وفي مايو سنة ١٢٣٠ عاد الملك الكامل الى القاهرة واعلن نزع ابنه من ولاية العهد ، وامر بحبس الامراء الذين تواطئوا معه ، واعاد الى التجار ما اغتصبه ابنه الصالح من اموالهم (٢٢) .

المغول والخوارزمية :

على ان خطرا شديدا دفع السلطان الى مغادرة مصر ، اذ ان ما وقع من الحروب بين المغول والخوارزمية تجاوز الان حدود بلادهم، وصار المغول والخوارزمية مصدر خطر على سلامة العالم الاسلامي٠ وما تعرض له شمال الجزيرة من تهديد من قبل الخوارزمية اضحى موجها مباشرة الى املاك الدولة الايوبية ؛ ثم تعرضت اخلاط الواقعة على الشاطىء الغربي لبحيرة وان ، التي امتلك جانبا منها الاشرف موسى الايوبي ، للتخريب والتدمير ، فسبى الخوارزمية نساءها ، وقتلوا الاطفال والرجال ، ثم ركنوا الى الرحيل ٠ غير انهم لم يلبثوا ان ادركوا لذة هذا النوع من الغارات ، فعادوا من جديد واغاروا على نفس المدينة سنة ١٢٢٩ بعد ان اصبحت من املاك الكامل ، ثم نهبوها مرة اخرى في ابريل سنة ١٢٣٠ ، بعد ان عاد الكامل الى القاهرة للقضاء على مؤامرات ابنه الصالح (٢٣) ٠

على ان التتار اغاروا على مملكة خوارزم شاه ، ولم يستطع

منكبرتي ان يقاومهم ، ولقى مصرعه في اغسطس سنة ١٢٣١ في اثناء فراره من وجههم ، وتفرق جنده من الخوارزمية وساءت احوالهم وقصد فريق منهم بلاد سلاجقة الروم ، فاستخدمهم السلطان كيقباد السلجوقي (٢٤) • ولم يلبث التتار ان استولوا على ارمينيا سنة ١٢٣١ واضحوا خطرا على الخلافة ، وعلى املاك الايوبيين في اقليم الجزيرة •

خرج الكامل من القاهرة ، بعد ان استنجد به الخليفة العباسي ضد المغول ، وبعد ان تعرضت ممتلكاته لخطرهم ، وصحب معه ابنه الصالح الذي جعله على رأس الجيش الذي وجهه لقتال المغول • ثم القى الحصار على ديار بكر ، وهي في حوزة الاراتقة ، لخوفه من ممالاتهم للتتار ، واثبتت الحوادث صدق شكوكه ، فمنذ ان حاصر التتار اخلاط للمرة الاخيرة ، اتخذوا من امير ارضروم الارتقي حليفالهم، فاستولى الكامل على املاكه تأديبا له ، وذلك في اكتوبر سنة ١٢٣٢ وجعل ابنه الصالح على امارة حصن كيفا (٢٥)

الحرب مع سلاجقة الروم :

على ان حادثا هاما ارغم الملك الكامل مرة اخرى على ان يتوجه بعساكره الى تلك الجهات ، اذ ان هذا الاقليم الجبلي الذي يقع بين الجزيرة وارمينيا واسيا الصغرى والشام • كان دائما بسبب موقعه الجغرافي هدف الطامعين • فما حدث من استيلاء الايوبيين على الامارة الارتقية ، حصن كيفا سنة ١٢٣٢ ، اقلق خاطر سلاجقة الروم ، فعزموا على مهاجمة اخلاط التابعة للايوبيين • ولما علم الكامل بهذا الخبر ، غادر القاهرة في ٦ مايو سنة ١٢٣٤ ، وطلب الى امراء الشام ان يوافوه بجيوشهم • غير ان ما اكتشفه الكامل من مكايد الامراء ومحاولتهم الاستعانة بالاراتقة ، في امارة خاربوط والسلطان كيقباذ السلجوقي ،

جعله يبادر بالعودة الى القاهرة دون ان يحقق غرضه (٢٦) : بل ان سلاجقة الروم استغلوا هذه الاحوال فاستولوا على حران والرها واضحوا بذلك يهددون الاطراف الشامية • وقلق الكامل لما حدث في الشمال ، فقرر ارسال قوات لاستعادة هذه الاملاك ، غير انه لم يغادر القاهرة الا في ١٢ مايو سنة ١٢٣٥ بعد ان اطمأن الى سلامة مركزه في مصر والشام ، فاستولى على الرها وحران في ديسمبر سنة ١٢٣٥ ، وبعد ان وطد مركزه في الجهات الشرقية المقابلة لماردين ، جعل ابنه الصالح على هذا الاقليم ، ثم عاد الى دمشق ، ومنها سار الى مصر حيث قام باصلاح اسوار دمياط والاسكندرية (٢٧)

تحالف امراء الشام ضد الكامل :

ثم اعد السلطان كيقباذ جيشا لمهاجمة ديار بكر في اغسطس سنة ١٢٣٦ ، غير ان ما حدث من وفاة كيقباذ سنة ١٢٣٧ وضعف خليفته كيخسرو الثاني اوقف الهجوم ، وانكشف للكامل ما اخفاه الامراء الايوبيون بالشام ، ثلاث سنوات ، من مكائد ودسائس ، اذ تألف منهم حلف لمناهضة الكامل ومناوأته ، وتزعم هذا الحلف الاشرف موسى صاحب دمشق ، وانحاز اليه صاحب حلب الناصر يوسف المعروف بصلاح الدين الصغير ، وصاحب حماة المظفر تقي الدين محمود، على ان الصالح بن الكامل الذي ولى البلاد المشرقية ظل على ولائه واخلاصه ، وكذلك كان شأن صلاح الدين داود امير الكرك وارسل الاشرف موسى سفارة الى السلطان السلجوقي يطلب محالفته ، غير ان هذا السلوك تعرض للانكار والتقريع . بسبب الاستنجاد بسلطان اجنبي تعسكر قواته على اطراف املاك الايوبيين • ومن سوء حظ الملك الصالح ان املاكه سار بحيط بها الاعداء من كل جانب ، فالتمس من ابيه ان يأذن له في استخدام

طوائف من الخوارزمية ، الذين لم يكن لهم عمل منذ ان استولى التتار على بلادهم ، يضاف الى ذلك انهم صاروا يكرهون سلاجقة الروم بعد ان كانوا في خدمتهم (٢٨) فاذن له بذلك .

وحان الوقت لوقوع نزاع رهيب ، غير ان الفوضى لم تلبث ان انتشرت عقب وفاة الاشرف موسى صاحب دمشق في اغسطس سنة ١٢٣٧ ، فاضعفت هذه الوفاة قوة امير حماة الذي بادر بالاعتراف بسيادة الكامل . على ان الكامل قرر المضي في القتال ، فتوجه وبصحبته صلاح الدين داود امير الكرك ، فحاصر دمشق التي تولى الدفاع عنها الصالح اسماعيل الذي وليها بعد وفاة الاشرف موسى(٢٩)

وفاة الكامل :

استولى الكامل على دمشق في ٢٩ ديسمبر سنة ١٢٣٨ ، واستقبل سفارتين من قبل الخليفة العباسي ، الاولى تعرض التحكيم فيما حدث من نزاع بين الايوبيين ، والثانية تلتمس من مصر المساعدة ضد التتار ، فوجه الكامل ثلاثة الاف رجل الى بغداد ، ثم شرع في التجهز لغزو امارة حلب . وفي تلك الاثناء اصابه مرض اردى بحياته في ٩ مارس سنة ١٢٣٨ .

ومن الملحوظ ان الكامل تعرض حين جرى استدعاؤه ليخلف اباه في الحكم ، لمؤامرة ترمي الى منعه من الوصول الى دست السلطنة ، وانه حين توفى وقع النزاع بين اقاربه للاستيلاء على الحكم.

ويعتبر الكامل اعظم شخصية في الاسرة الايوبية بعد صلاح الدين ومن اهم ما اشتهر به من الصفات كراهيته للحرب وجنوحه الى اجراء المفاوضات ، وحين يباشرها بنفسه كان يحرص على ان يتجنب

ما يعترضها من عقبات ، ويحاول ان يقضي على مواطن الخطر • ومن الامور التي انكرها عليه الناس انه عقد اتفاقا مع فردريك الثاني ضد اقاربه ، على ان هؤلاء الاقارب قاموا بمثل هذا العمل حين لجئوا الى الخوارزمية ثم سلاجقة الروم • غير ان هذا الاتفاق اوجد حالة من السلم لم تكن معروفة من قبل في الحروب الصليبية • وفي الوقائع الحربية كان الكامل يخرج منها مظفرا منتصرا على الصليبيين والسلاجقة واقاربه •

الا يصح ان نصف الكامل بالطموح الشخصي . لانه زعم لنفسه السيادة على كل الامراء الايوبيين ؟ والواقع ان ما قام به الكامل من اعمال انما كان الغرض منها المحافظة على ارث صلاح الدين وتقاليده . اذ ان الاسرة الايوبية قامت بمصر وذاع صيتها في سائر الاقاليم السورية • فالملك الكامل لم يستخدم الا حقا مشروعا بل واجبا • يضاف الى ذلك ان الكامل جرى تفويضه من قبل خليفة بغداد ، الذي جعل لسلطان مصر من الالقاب ما يسمو على القاب الامراء الايوبيين بالشام ، كما ان القاهرة اصبحت المقصد الذي تقدم اليه السفارات • وينبغي ايضا الا نغفل حساب ما يجري ضده من تدبير المؤامرات ، هذه المؤامرات ، التي تنبت منذ وفاة صلاح الدين ، ولم المؤامرات ، هذه المؤامرات ، التي نبتت منذ وفاة صلاح الدين ، ولم تتوقف الا بزوال الأسرة (٣٠) •



الفصل العاشر

انحلال الدولة الايوبية وسقوطها

ترتب على وفاة الملك الكامل أزمة شديدة ، اذ جرى اعلان ابنه الملك العادل الثاني سلطانا على مصر باعتباره وليا للعهد ، ولم يكن يتجاوز الثانية عشرة من عمره • ومن الطبيعي ان الامراء الذين كرهوا الكامل ، كرهوا كذلك حكم سلطان لا يزال صغير السن • فلم يعترف به مثلا الناصر صلاح الدين يوسف أمير حلب ، يضاف الى ذلك أن العادل انغمس في الفجور والفسق وشرب الخمر ، وغمر عساكره بالمال حتى يضمن ولاءهم ثم أقصى عن البلاط رجال أبيه ، وأحل مكانهم رفقاء السوء ، فلم يلبثوا ان بددوا اموال الدولة ، وانكر القادة وذوو المكانة ما جرى من سوء السيرة •

وتفصيل ما حدث من المنازعات والعداوات في أثناء الحكم الأيوبي ، أن المظفر تقي الدين محمود أمير حماة حلف يمين الولاء الكامل عقب وفاة الأشرف موسى صاحب حلب سنة ١٢٣٧ ، فاتفق أمير حمص صلاح الدين شيركوه (الثاني) ، وأمير حلب الناصر صلاح الدين يوسف على القيام بتأديبه ، وطلب أمير حلب المساعدة من سلطان سلاجقة الروم كيخسرو الثاني ، فنهض لمساعدته ، كما أنه استقدم الخوارزمية الذين هبطوا نحو الجنوب في حالة قلق واضطراب (١)

والمعروف أن الخوارزمية لا يحفلون الا بالنهب والسلب ، وأنهم

لذلك أثاروا سخط من استخدمهم من السلاطين ، فانتقلوا من خـدمة سلاجقة الروم الى خدمة الصالح ايوب ، ثم لم يلبثوا ان تخلوا عنه حين شرع في مهاجمة حمص ، وانحاز فريق منهم الى أمـير حلب ، وبقي منهم فريق مع الملك الصالح ، غير أنهم انتقضوا عليه وأرادوا القبض عليه فهرب الى سنجار ، تاركا خلفه امواله وامتعته ، فـأخذ السلطان السلجوقي كيخسرو يوزع أملاكه على حليفيه أميري حلب وحمص ، وعلى الأمين الأرتقي بماردين ، ثم توجه لمحاصرة سنجار ، غير أن لؤلؤ أتابك الموصل سبقه الى ذلـك ، لأنه أراد أن يسـوق الصالح أيوب الى بغداد في قفص من حديد لأنه يكرهه لما اشتهر به من الظلم والعنف والاستبداد • واستطاع الصالح أيوب ، بفضـل قاضي سنجار الذي استطاع ان يفلت مـن الحصار المضروب عـلى المدينة ، أن يستميل الخوارزمية بأن وعدهم بأن يجعل لهم مدن سنجار والرها وحران • وترتب على ذلك أن هؤلاء الخوارزمية الذين كانـوا يحاصرون الصالح لم يلبثوا أن هاجموا قوات أتابك الموصل فألزموهم بالفرار ، وتولى الملك الصالح قيادتهم ، فأجبروا الجيش السلجوقي على رفع الحصار عن ديار بكر التـي دافع عنها ابنه توران شاه ببسالـة وشجاعة • (٢) ثم أصهر اليهم فتزوج مقدمهم حسام الديـن بركـة خان من أخت الصالح من أمه ، لكن الخوارزمية عادوا الى نهب البلاد شمال الشام ، وأخذوا يعلنون لأهل حلب وحمـص ودمشق أنهـم يفعلون ما يفعلون لخدمة الصالح أيوب (٣) •

وفي اثناء ذلك كان الناصر يوسف امير حلب يصر على عـدم الاعتراف بسلطان مصر العادل الثاني ، وعمـل على توثيق عـلاقته بالسلطان السلجوقي كيخسرو ، وتزوج كل منهما أخت الآخر • أما دمشق فولى حكمها نيابة عن سلطان مصر ، أحد أحفاد العادل ، وهو

المعروف باسم الملك الجواد ، وشغل نفسه بمهاجمة الناصر داود صاحب الكرك فحلت به هزيمة منكرة • وانصرف الجواد الى اللهو والصيد• وجعل أحد خدامه يقوم بتسيير أمور دمشق فاستبد بالرعية وأمعن في مصادرتهم ، ثم عرض الجواد على الصالح أيوب أن يتناول له عن دمشق ، مقابل الحصول على سنجار ومدن أخرى بالجزيرة • فقبل الصالح ذلك العرض وتوجه فورا الى دمشق (٤) •

ومنذ هذه اللحظة أخذت نوايا الصالح أيوب تظهر ، اذ ترك مقره في حصن كيفا الى ابنه توران شاه ، وأنزل جنده من الخوارزمية في حران والرها • ولما سار الى الشام ، صحبه عساكره من الموصل • وترتب على انتقال الصالح أيوب الى دمشق في ديسمبر سنة ١٢٣٨ ، أن تغير وضع الأمراء الأيوبيين ، اذ صار للأمير الجديد لدمشق أهمية كبيرة عند أمراء سائر الجهات • اذ حاول أمير حماه المظفر الثاني أن يستولي على حمص بمساعدة الخوارزمية ، وتحالف أمير بعلبك الصالح اسماعيل مع ابن أخيه الصالح أيوب (٥) •

لم يتعجل الصالح أيوب سير الأمور ، بل أخذ يعمل على احداث الشقاق والفرقة في جيش أخيه العادل الثاني ، فانضم اليه عدد كبير من الأمراء المصريين • وأكثر من ذلك ، أن الجند الترك بجيش العادل الثاني أعلنوا التمرد والثورة ، فأرسل اليهم العادل حرسه من الكرد لقتالهم ، فحلت الهزيمة بالترك ، غير أنهم مضوا في طريقهم الى دمشق دون أن يطلبوا العفو من السلطان • وهذه هي الفرصة التي اغتنمها الصالح أيوب ليبدأ فيها حملته على مصر لينتزعها من أخيه العادل الثاني • فزحف بجيش تألف من ستة آلاف فارس ، وكتب اليه الامراء المماليك المصريون يعدونه بالمساعدة ، ويؤكدون له أن كل البلاد سوف تعترف به سلطانا • ومع ذلك تريث الصالح أيوب في

نابلس ، لأن الموقف العام ما زال مضطربا وماثعا ، فضلا عن حرصه على ألا يرتكب خطأ من الأخطاء • ذلك أن الناصر داود صاحب الكرك حرص على مساعدة الصالح أيوب في الاستيلاء على مصر ، غير أنه طلب مقابل هذه المساعدة أن يجعل له دمشق • فلما رفض الصالح طلبه ، توجه الناصر داود الى مصر وجعل نفسه تحت تصرف العادل الثاني • وانحاز الى العادل أيضا من الأمراء الأيوبيين ، أصحاب بعلبك ، وحلب وحمص ، بينما بقي أمير حماه محتفظا بولائه للصالح أيوب بسبب تطويق بلاده بالأعداء • وتدخل الخليفة في هذه المنازعات ، غير انه لم يوفق في الوصول الى اتفاق يقضي بالاعتراف بسلطنة العادل في مصر ، والصالح أيوب في دمشق •

وانتهز أميرا بعلبك وحمص خروج الصالح بعساكر من دمشق قاصدا مصر . حتى بادرا بمهاجمتها والاستيلاء عليها في ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٩ • ولما أحس عساكر الصالح بحرج مركزه . تخلوا عنه ،فلم يبق معه بنابلس سوى مائة من رجال حرسه . فاختطفه جماعة من البدو : غير ان الناصر داود امير الكرك انتزعه منهم واعتقله بقلعته . وصحب الملك الصالح في معتقله زوجته شجر الدر ومملوكه بيبرس• وحين علم العادل بهذا الخبر . كتب الى الناصر داود يطلب منه أن يسلمه أخاه الصالح كيما يتولى حبسه . غير أن ذلك أثار قلقا واضطرابا شديدا (٦) •

استرداد بيت المقدس من الصليبيين

ولم تجد نفعا ما قام به الخليفة من محاولات للتوفيق بين الأمراء الايوبيين • وفي أثناء هذه الفتن الداخلية انتهى أجل الهدنة المعقودة مع الصليبيين وذلك في أول سبتمبر سنة ١٢٣٩ • والواقع أن الصليبيين

أفادوا من المنازعات بين الأمراء الايوبيين . فأقاموا الاستحكامات في بيت المقدس على الرغم من مخالفة ذلك لنصوص المعاهدة بين فردريك الثاني والكامل ، بل انهم لجأوا الى اخراج المسلمين من المدينة المقدسة • غير أن الناصر داود حاصر المدينة واستولى عليها ، وطرد الصليبيين منها وعين عليها حاكما في يناير سنة ١٢٤٠ (٧) •

خلع العادل الثاني

هذه الحوادث أوقفت الأيوبيين على نواحي ضعف الصليبيين ، فارتفع شأن الناصر داود بعد استيلائه على بيت المقدس ، وأرسل الى خليفة بغداد يبشره بما أحرزه من انتصار ، وتطلع الى الاستيلاء على دمشق وانتزاعها من الصالح اسماعيل ، على أنه تعرض لعداوة العادل الثاني سلطان مصر ، لأنه لم يسلمه الصالح أيوب الذي لا يزال في حبسه بالكرك • ولم يجهل الناصر داود أهمية الصالح أيوب ، ولذا عمد الى أن يوجه باسم أسيره ضربة محكمة ،اذ أرسل باسم الصالح أيوب الى مقدم الخوارزمية رسالة تتضمن أنه أنزل الصالح أيوب بالكرك للمحافظة على سلامته ، وخوفا عليه مما يضمره له من الشر أخوه العادل وعمه الصالح اسماعيل ، وأنه سوف يطلق سراحه ويجعله سلطانا ، وطلب اليهم ان يزحفوا على حلب وحمص (٨) •

ومن الواضح أن العلاقات بين الصالح أيوب والخوارزمية أخذت تتحسن منذ أن تخلى لهم عن اقليم الجزيرة ، وتزوج زعيمهم بركة خان من أخت الصالح • غير أن الدعوة الى تدخل الخوارزمية جاءت متأخرة وحدثت في وقت كاد يتم فيه الاتفاق بين الامراء الايوبيين ، غير أنها لا تخلو من أهمية في تحديد المسئوليات وأسبابها •

وكيفما كان الأمر ، فقد أطلق الناصر داود سراح الصالح أيوب

في ٢١ أبريل سنة ١٢٤١ ، واعترف به سلطانا ، وتوجه الاثنان الى بيت المقدس ليحلفا يمين الاخلاص ، على أساس أن يتولى الصالح سلطنة مصر ، وأن يحكم الناصر داود الشام واقليم الجزيرة . على أن هذا التحالف أدى الى توثيق العلاقات بين العادل الثاني والصالح اسماعيل أمير دمشق ، فاستعد لمنازلة خصومهما ، ولجأ الصالح أيوب داود الى الكرك حتى لا يقعا فريسة في يد قوات دمشق والقاهرة .

وعبأ العادل قواته وحشدها في بلبيس ، غير أن أمراءه انتهزوا هذه الفرصة للتخلص منه ، فأحاطوا بفسطاطه في ليلة مقمرة ، وتقدم الجنود الترك في ٣ مايو سنة ١٢٤٠ وجردوا الحرس الكردي من سلاحه . وما اشتهر به العادل من الفجور والاستهتار والضعف وعدم الاكتراث بشئون الحكم ، كل ذلك معروف ومسلم به ، غير أن ما هو أهم من هذا كله ، هو أن العنصر التركي قام لأول مرة في مصر بدور سياسي كبير ، مثلما حدث في بغداد في القرن التاسع الميلادي ، وعرفوا منذ هذه اللحظة مقدار قوتهم ، فاذا استطاعوا أن يتخلصوا من سلطانهم اليوم ، فانهم سوف يتخلصون قريبا من الاسرة الايوبية بأكملها (٩) .

الصالح أيوب :

ثم خلع العادل الثاني ، وتولى الصالح أيوب الحكم بناء على طلب الامراء ، بعد أن أعلنوا رأيهم في هذا الموضوع لاول مرة منذ قيام الدولة الايوبية . فتولى الصالح السلطنة في وقت استبد به اليأس وانقطع امله ، حيث أحس وقد استحوذ عليه الخوف ، واضحى تحت رحمة حليف لا يطمئن الى وفائه واخلاصه ، انه سوف لا يستطيع ان يصمد لما يوجه اليه من هجوم . تعرض الملك الصالح أيوب لتجارب ومغامرات خطيرة غير انها لم تبلغ في شدتها حد اغتياله .

قدم الصالح ايوب الى مصر وبصحبته الناصر داود ، الذي لم يلبث ان ضجر به ، وحقد عليه لما اصاب الصالح ايوب من الحظ الطيب، ففكر في اغتياله واطلاق سراح العادل ، غير ان الصالح لم يحفل بذلك، وامر بحبس اخيه العادل بقلعة الجبل بالقاهرة • ثم تفــرغ لتوطيــد سلطانه وتثبيت اركان ملكه •

تولى الصالح الحكم ، وقد اشتدت الحاجة الى المال • فلجأ الى حيلة جريئة ، ذلك انه امر بالتحفظ على الموظفين الذين اتهمهم بتبديد الاموال العامة ، بما ركنوا اليه من الاسراف والتبذير ، حتى يــؤدوا الاموال التي انفقوها في وجوه غير مشروعة ، واستطاع الصالح بهــذه الحيلة ان يجمع نحو ٧٥٠ الف دينار ، ٢،٣٠٠،٠٠٠ درهم ومع ذلــك فانهم ظلوا في حبسه • وانفق الصالح هذه الاموال في تدبير امــور الدولة ومصالحها • اما الناصر داود فانه قرر العودة الى الكرك بعــد ان ادرك اهمال الصالح له ، واغفاله شأنه • (١٠)

وفي سبيل توطيد مركزه ، قام الصالح بتطهير الجيش من العناصر المتمردة ، فامر بالقبض على اولئك الذين خلعوا العادل من السلطنة ، واحل مكانهم طائفة من المماليك الترك الموالين له • ومع ذلك فانه لم يطمئن على حياته ، وعزم على الايقيم بالقلعة ، واختار جزيرة الروضة لتكون مقرا له • وفي ٢٠ فبراير سنة ١٢٤١ شرع الصالح في تشييــد قلعة بالروضة ، فنزع ممتلكات السكان المقيمين بها ، وامر بتدمير كل ما بها من الدور والمساكن ، ثم شيد له بها قصرا ، واحاطه بسور • ثــم انتقل السلطان بحريمه ومماليكه ، بعد الفراغ من البناء ، فأقاموا بهذه الدور الجديدة التي تكلف بناؤها اموالا طائلة ، فضلا عن الالتجاء الى استخدام مواد المعابد القديمة الاربعة القائمة في مقبرة قلاوون كانت بقلعة الروضة • على ان الصالح ظل حتى الانتهاء من اعمال البناء فــي

الروضة ، لا يشعر بالهدوء والاستقرار في القلعة بين اجناده الذين لم يثق فيهم ، ولم يستطع ايضا ان يستغني عنهم ، لانه يحتاج الى عناصر تحل مكانهم ، لاسيما ان الاحوال تطلبت ان يرسل حملة لتوطيد سلطان الايوبيين في مكة واليمن ، واشتدت حاجته الى الجيش ايضا بسبب ما تم من اتفاق الامراء الايوبيين في دمشق وحمص والكرك سويا ، ومـا لجئوا اليه من التحالف مع الصليبيين ، لمقاتلة الصالح مقابل الوعـد بالحصول على قلعتي شقيف ارنون وصفد ، وجانب من ساحل الشام • وبمقتضى الاتفاق جاز للصليبيين ان يحصلوا من دمشق على مئونـة جيشهم ، غير ان فقهاء دمشق اعلنوا بان هذه التجارة تعتبر مخالفة للشريعة الاسلامية ، وترتب على ذلك ان لجأ الى القاهرة عالمان مـن علمـاء دمشق • (١١)

وترتب على انحياز الداوية والصليبين الى الصالح اسماعيل صاحب دمشق وارسالهم القوات لمساندة جيوشه ، ان شرع الاسبتارية فـي الاتصال بالصالح ايوب . وقوى عزتهم حين انضم فريق من عساكـر الصالح اسماعيل الى معسكر الجيش المصري . فارتد الحلفاء . وتهيأت الفرصة للصالح ايوب للقضاء على التحالف بين الصالح اسماعيـل والصليبيين بان قبل الاتفاق مع الصليبيين ، على اطلاق سراح الاسرى الذين سقطوا في يده في غزة مقابل التزام الحياد • غير ان الداويـة والنبلاء الصليبيين ظلوا على عهدهم في المحافظة على المعاهدة مع دمشق ومقاومة الغزو المصري • (١٢)

وترتب على معركة غزة وانحياز طائفة من عساكر دمشق الى المعسكر المصري ، وازدياد كراهية اهل دمشق للصالح اسماعيل ،ان اعلن سلطان دمشق الخطبة باسم سلطان سلاجقة الروم في مايو سنة ١٢٤١ ، ثـم اراد ان يصالح سلطان مصر فذكر اسمه في الخطبة في السنة التالية •

ولم يلبث ان تم الاتفاق بين الصالح اسماعيل والصالح ايوب على حساب الناصر داود ، فانتزعا منه امارة الكرك (١٣) • ومن شروط الاتفاق ايضا ان الصالح اسماعيل يصير سلطانا على دمشق والكرك ، على ان يذكر اسم الصالح ايوب في خطبة الجمعة وينقش اسمه على النقود ، غير ان الاتفاق لم يتم في اللحظة الاخيرة لما عمد اليه الصالح ايوب من استدعاء الخوارزمية وتحريضهم على مهاجمة دمشق •

وتجهزت طوائف الخوارزمية للقتال من جديد ، لان الصالح اسماعيل استعان بالناصر داود مرة اخرى (١٤) ، وكذا استنجد بالصليبيين ، الذين رحبوا بدعوته وبحدوث هذا النزاع الجديد ، لانهم افادوا منه بحصولهم على عسقلان وطبرية وبيت المقدس فاعادوا بناء استحكاماتها سنة ١٢٤٣ (١٥) •

على ان هذه الاستعدادات الموجهة للهجوم على مصر ، لم يوقفها الا اغارة الخوارزمية الذين عبروا نهر الفرات في ١٠ الاف مقاتل سنة ١٢٤٤ ، وامعنوا في سيرهم حتى بلغوا دمشق ، فانزلوا بالبلاد والاراضي التي اجتازوها الخراب واشعلوا الحرائق ، وسفكوا الدماء ، وساد الذعر واشتد خوف الناس ، فصارو يهربون من وجوههم • ثم هبط الخوارزمية على طبرية ، فاستولوا عليها ، ثم توجهوا الى نابلس وبيت المقدس • وادرك الصليبيون ما يحيق بهم من الخطر ، فسارع بطريرك المدينة ، ومن معه من مقدمي الداوية والاسبتارية ، الى تعزيز الحاميات التي تحصنت وراء الاستحكامات التي شيدها من جديد الداوية ، غير ان ذلك لم يجد نفعا ، ففي ١١ يوليه سنة ١٢٤٤ اقتحم الخوارزمية المدينة وجرى القتال في الشوارع ، واستنجد الصليبيون بالناصر داود صاحب الكرك غير انه لم يساعدهم ، وكل ما قام به انه

توسط في خروج من يرغب منهم في مغادرة المدينة الى الساحل ، غير انه لم يصل منهم الى يافا سوى ثلثمائة (١٦) •

وفي هذه الاثناء اجتمعت جيوش الصليبيين وقوات دمشق وحمص والكرك قرب عكا ، وتوجهوا قاصدين مصر، فوقعت معركة حربية عنيفة بينهم وبين الجيش المصري المؤلف من المماليك والخوارزمية بقيادة بيبرس ، وذلك شمال شرقي غزة في اكتوبر سنة ١٢٤٤ فهلك من الصليبيين ما لا يقل عن خمسة الاف قتيل ، وحمل المصريون معهم من الاسرى ما يزيد على ثمانمائة اسير (١٧) •

وعقد الخوارزمية الامال على الصالح ايوب وانه سوف ينزلهم بالاراضي الخصيبة في مصر مقابل مساعدتهم له ، غير ان الصالح ادرك خطورتهم فلم يسمح لهم باجتياز الحدود ، فتحولوا الى الاغارة والنهب بفلسطين ، ثم اشتركوا مع الجيش المصري في الاستيلاء على املاك الناصر داود بالكرك ، ثم حاصروا دمشق . ولم يلبث ان اذعن الصالح اسماعيل في اكتوبر سنة ١٢٤٥ . وطلب الصلح ، وقبل ان يتنازل عن دمشق مقابل الحصول على بعلبك وحوران على ان يتولاهما من قبل الصالح ايوب • غير ان الخوارزمية انحازوا الى الصالح اسماعيل وحاولوا استرداد دمشق ، انما حلت الهزيمة الساحقة بهم بفضل القوات المصرية ومساعدة قوات حمص وكراهية الناس لهم (١٨) . ولقى زعيمهم مصرعه سنة ١٢٤٦ ، وانحاز بعض الخوارزمية الى التتار واستولى الصالح ايوب على بعلبك ، فاعترف الامراء الايوبيون بشمال الشام بسلطنة الصالح ايوب (١٩) •

وقام الصالح ايوب برحلة الى الشام ليقف على ما ناله من نصر ، وليعزز مركزه ، فتوجه الى دمشق حيث لقي بها استقبالا حافلا في

٢٦ مارس سنة ١٢٤٧ ، ثم سار الى بعلبك وبصرى وبيت المقـدس ، ثم عمر ما تخرب من المبان ، واقام عمائر جديدة في البلاد التي خضعت له، وتشهد النقوش على ما قام به من مباني وانشاءات في دمشق والشوبك وصرخد وبصرى وبيت المقدس (٢٠)

وتوج السلطان اعماله بعد استقرار ملكه ، بان اعطى الصليبيين درسا قاسيا • فهاجم الجيش المصري طبرية واستولى عليها ، وخـرب ما اقامه الصليبيون بها من استحكامات ، ثم احتل عسقلان ودمـر اسوارها واستحكاماتها في ٢٤ اكتوبر سنة ١٢٤٧ ، ولما فرغ السلطان من انجاز مهمته عاد الى القاهرة • وكانت الرحلة مثيرة وشاقة ، ذلك ان السلطان كان يعاني مرضا خطيرا في حنجرته ، تطلب نقله في محفة الى القاهرة • ومع ذلك فانه لم ينس ان يأمر باعدام اخيه العادل الثاني في سجنه (٢١) •

وما التمسه الصالح ايوب من الاعذار لتبرير ذلك ، هو انه توقع حدوث نزاع في شمال الشام ، سوف يؤدي الى تدخل السلطان ، فاذا تغاضى عنه ، فان الفوضى سوف تقضي على كل ما استرده من البلاد • ففي سنة ١٢٤٨ تولى حكم حمص امير طفل هو الاشرف مظفر الديـن موسى ، فانتهز الناصر صلاح الدين صاحب حلب ، هذه الفرصـة للاستيلاء على املاكه • على ان الصالح ايوب اعتبر حمص قلعة متقدمة بأطراف مملكته ، فاذا تعرضت للخطر ، ترتب على ذلك ان دولتـه اضحت مهددة من قبل اعدائه ، واستطاع الصالح ايوب ان يجعل امـير حمص يتنازل له عن حصن يقع الى شمال شرقي حمص ، فاتخذ امير حلب من هذا التنازل ذريعة لمهاجمة حمص ، فتوجه الصالح ايوب برغم ما يعانيه من المرض الشديد الى حمص فحاصرها ، وكادت تسقط في يده لولا ان توسط رسول الخليفة (٢٢) ببغداد لوقف العداء ، واجـرى

الصلح بين الامراء الايوبيين على ان يتنازل الناصر داود عن الكـرك مقابل الحصول على الشوبك ، غير انه حينما سار الامراء المصريـون لتسلم الكرك ، رفض ان يسلمها لهم ، وذلك لعلمه بان الصليبيين اخذوا ينزلون بالاراضي المصرية • (٢٣)

حملة لويس التاسع

في ٢٧ نوفمبر سنة ١٢٤٤ ، اي بعد هزيمة الصليبيين في معركة غزة ، ارتحل اسقف بيروت الى الغرب بالنيابة عن بطريرك بيت المقدس يطلب الامداد حتى لا تسقط كل المملكة في يد المسلمين ، واستجاب لطلبه كل من البابا انوسنت الرابع وملك فرنسا لويس التاسع الـذي ظل ثلاث سنوات يتجهز لهذه الحملة ، فقرر ضرائب اضافية للانفـاق منها على الحملة ، وعهد بالوصاية على العرش لامه اثناء غيابه ، وحمل ملك انجلترا وملك صقلية على التزام الهدوء والسلام • (٢٤)

ثم غادر لويس باريس في اغسطس سنة ١٢٤٨ ، وتوجه بحملته الى قبرص ، وصحب معه الملكة واخويه ، ولحق بقبرص عدد كبير من الامراء والنبلاء الذين اشتركوا في الحملات الصليبية السابقة ، ومـن بين هؤلاء حنا جوانفيل مؤرخ حملته • (٢٥) ولما تكامل وصـول الجيوش الصليبية الى قبرص ، تقرر ان تكون مصر هي الهدف الذي يقصدونه لما اشتهرت به من الثروة ولمركزها الحربي ولما لسلطانها مـن اهمية ومكانة في الشرق الاوسط • وعزم لويس على المبادرة بالاقلاع من قبرص الى مصر فورا ، على الرغم من نصائح البارونات والطوائف الدينية وتحذيرهم له من اقتراب فصل الشتاء والعواصف وخطورة رسو السفن في الموانى المصرية بسبب ما يحف بالدلتا من الكثبان الرملية ، غير انه نزل على ارادة الناصحين له • ومكث ما يقرب من سنة بقبرص

استقبل في اثنائها الرسل والسفارات من الملوك والامراء المجاورين ، من ارمينيا وطرابلس ، والقسطنطينية ، والمورة ، وعكف طوال هذه السنة على تزويد حملته بالاسلحة • على ان طول المقام بالجزيرة اضعف الروح المعنوية في جنوده ، وكادت المؤن تنفذ ، فقرر الرحيل ، وفي مايو سنة ١٢٤٩ ارتحل الى مصر فبلغ دمياط في ٤ يونيه سنه ١٢٤٩ (٢٦) •

اما الصالح ايوب ، فانه حينما تبين له ان الهجوم الصليبي موجه الى مصر ، لا الى الشام ، رفع الحصار عن حمص ، وعجل بالعودة الى مصر وطلب الى عساكره اللحاق به • غير ان المرض اشتد عليه ، فلم يستطع ان يقود الجيش ، فعهد بالقيادة الى وزيره فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وطلب اليه الاسراع الى دمياط كيما يحول دون نزول الصليبيين الى البر غرب فرع دمياط ، كما انه ارسل اليها مقادير وافرة من المؤن وجعل بها حامية من بني كنانة المشهورين بفروسيتهم ، واتخذ الصالح مقر قيادته في اشمون طناح ، شرق فرع دمياط (٢٧) •

وصل لويس بعساكره ، وبدأ نزولهم الى البر في ٥ يونيه سنة ١٢٤٩ فنشبت معركة حامية على شاطىء البحر لمنع الصليبيين من النزول الى البر على الضفة الغربية من النهر ، غير ان فخر الدين انسحب بجنوده واجتاز جسرا من المراكب الى دمياط • ولم يلبث ان قرر الرحيل من دمياط بعد ان تبين له ان الاحوال ساءت في دمياط واستبد الخوف بالناس ، فتسللوا من المدينة ، وتلاهم بنو كنانة بعد ان اشعلوا النيران في الاسواق ، غير انهم لم يدمروا الجسر الذي يصل بين ضفتي النيل • ولم يلبث ان ملكها الصليبيون ، بعد ان تبين لهم خلوها من المقاومة ، بما حوت من العدو والاسلحة والذخائر والحبوب والمجانيق (٢٨) •

شعر الصليبيون بالسرور لسقوط دمياط في ايديهم دن مقاومة ، فاقام بها لويس طوال اشهر الصيف حتى تنخفض مياه الفيضان ، وتقدم الية الامداد ، ويرتب امر قاعدته الحربية ، غير ان هذا الركود اضعف الروح المعنوية عند الجند الصليبيين ، واخذت الاقوات في النفاد ، وانتشر الوباء في المعسكر (٢٩) •

وارتاع المسلمون لسقوط دمياط . فلما وصلت عساكر الحامية التي كانت بدمياط ، وقدم الهاربون من سكانها الى السلطان الصالح ايوب اظهر حنقه وسخطه عليهم وامر بشنق هؤلاء الجند ، ثم ارتحل بالجيش الى المنصورة ونزل بالموضع الذي نزل به ابوه من قبل ، وهرع الجند من جميع الجهات الى المنصورة ، فاجتمع بها عدد كبير من العربان والمتطوعة ، وشرعوا في الاغارة على الصليبيين ومناوشتهم وقتل من يصادفهم منهم واستمر ذلك اشهرا ، وتحتم على لويس ان يقيم السدود ويحفر الخنادق لحماية معسكره (٣٠) •

جاءت الامداد التي انتظرها لويس ، وحان الوقت الذي ينبغي ان يسير فيه الى القاهرة بعد انخفاض النيل • وفي ٢٠ نوفمبر ارتحل جيش الصليبيين من دمياط ، واتخذ طريقه الى المنصورة ، وخلف لويس بالمدينة حامية قوية (٣١) •

على ان الصالح اشتد به المرض ويئس الاطباء من شفائه ، ولم يلبث ان قضى نحبه بالمنصورة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ (٣٢) •

اشتهر الصالح بانه كان مهيبا عزيز النفس ، كثير الصمت ، شديد الميل الى العزلة ، كثير التجبر والتعاظم على اصحابه ، وليس عنده شيء من صفات اقاربه من حيث السخاء والكرم ، غير انه كان سلطانا كفئا ذا همة عالية ، اعتبره المؤرخون اخر سلاطين الايوبيين (٣٣) ، ويشير

احدهم الى انه يعتبر اعظم سلاطين الايوبيين واحسنهم رأيا وشجاعة بعد صلاح الدين ، « ولو لم يكن من محاسنه الا تجلده عند مقابلة العدو بالمنصورة ، وهو بتلك الامراض المزمنة ، وموته على الجهاد ، والذب عن المسلمين ، ما كان اصبره واغزر مروءته » (٣٤) •

على ان ما اشتهر به الصالح ايوب من روح التآمر لا يخرج عما اشتهر به اقاربه الذين ناضلوه طوال حكمه • والتآمر كان على درجات ، فالملك المعظم والملك الكامل اتبعا في تآمرهما الاساليب الدبلوماسية لما اشتهرا بـه من المهارة الادارية والسياسة ومتانة الخلق (٣٥) •

ثم صار للشخصية العسكرية والادارية اهمية كبيرة بعد الكامل ويمثل ذلك الصالح اسماعيل والصالح ايوب • ومن الواضح ان سياستهما تعتبر رد فعل للسياسة السابقة ، نظرا لما اصابهما من ضربات شديدة ونكبات ضخمة • فالصالح ايوب امر بحبس عدد كبير من امرائه دفعة واحدة ، وصادر ثرواتهم ، ومات بسجنه ما يزيد على خمسة الاف شخص ، ولم يعبأ بالمماليك الذين اتخذهم عساكر ، فاغرق منهم في النيل عددا كبيرا (٣٦) •

ولما مات الصالح ايوب لم يحزن لموته الا القليل على الرغم من استيلاء الصليبيين على دمياط ، اذ سر الناس بموته وفرح خواصه لذلك فانهم لم يكونوا يأمنون سطوته ولا يقدرون على الاحتراس منه (٣٧٧) •

وما ارتكبه الصالح ايوب من قتل اخيه العادل يعتبر عملا بغيضا مهما كان سلوك هذا الامير التافه الذي حكم عليه بالسجن ، والواقع ان الصالح كان يخشى ان يعود العادل الى الحكم بعد موته لاسيما انه ادرك بان منيته قد اقتربت وان ابنه توران شاه لا خير فيه (٣٨) •

ومن اخطاء الصالح الخطيرة ما لجأ اليه من تخريب بلاد خصومه، وما قام به الخوارزمية الذين يعتبر مسئولا عن قدومهم ، من انزال الخراب بالبلاد ، وادرك الصالح اخر الامر مدى خطورتهم حين طلبوا اليه ان يسمح لهم بالنزول في مصر ، فامرهم بالاقامة في غزة ، ووعدهم ببلاد الشام فضلا عما بيدهم من البلاد الفراتية ، وارسل اليهم الخلع والخيل والاموال في سبيل ابقائهم خارج الاطراف المصرية (٣٩)

ولم تكن هذه هي المسئولية الخطيرة الوحيدة التي يتحملها الصالح ايوب فالمعروف ان الصالح ايوبا اقبل على شراء المماليك الترك ، واخذ يؤمرهم ، وجعلهم من اهم عناصر جيشه ، والف منهم حرسه والمحيطين بفسطاطه اثناء القيام بحملته الحربية ، ومن اجلهم شيد قلعة الروضة على بحر النيل ، فاستمدوا منه اسمهم المماليك البحرية ، الذي اضحى يميز الدولة المملوكية الاولى • وهؤلاء الترك اقتدوا به في الاكثار من شراء المماليك لما ال اليهم الملك ، وبذروا في مصر جرثومة الاضطراب والفوضى ، وسوف يعزلون السلاطين كلما ضاقوا بهم ذرعا • (٤٠)

على ان هذا السلطان ربما توافر له من الاعذار ما يبرر سلوكه ، اذ ان ما لقيه اثناء ولايته للعهد من العنت ، وما تعرض له من النفي في امارته باعالي الجزيرة ، نتيجة تدخل ام اخيه العادل ، ولد في نفسه المرارة والكراهية وسوء الظن فيمن يعملون معه (٤١) •

يشير المؤرخون الى ميل الصالح ايوب الى تشييد العمائر ، اذ شيد من الاثار والمباني ما لم يقم به سلطان ايوبي قبله ، وسبق ان اشرنا الى نشاطه في سوريا ، والى ان اسمه ورد كذلك في نقش على سور ديار بكر ، وفي مصر قام بانشاء مدينة عسكرية جديدة اطلق عليها اسمه (الصالحية ، مديرية الشرقية) التي تقع على طرف الصحراء التي تفصل

مصر عن الشام والتي صارت مركزا لحشد الجند • وفي القاهرة اقام قصورا عديدة لم يبق شيء منها • كما زالت قلعة جزيرة الروضة برغم ضخامة المجهود الذي بذله في بنائها لان تشييدها تطلب جعل النيل يحيط بالروضة بصفة دائمة • لان المعروف وقتذاك ان الذراع الغربي للنيل كاد يكون جافا • على ان اثرا واحدا من اثار هذا السلطان لا يزال جانب منه قائما • وهذا الاثر يتمثل في المدرسة المعروفة بالمدرسة الصالحية قرب خان الخليلي وهي اول مدرسة جرى اعدادها للدراسات الدينية على المذاهب الاربعة شيد بها السلطان مقبرته والكتابة التي على المقبرة ترجع الى هذه الفترة المحزنة في تاريخ مصر التي اغار عليها العدو « هذا الضريح المبارك يشتمل على جثمان الملك الصالح ايوب انتقل الى رحمة الله وهو يقاتل بالمنصورة الفرنجة الذين قهرهم الله ، وقد عرض نحره للسيوف ، وجعل وجهه وصدره يستقبلان القتال ، ابتغاء الحصول على الجزاء من قبل الله ، بفضل سلوكه الطيب وشجاعته في قتال العدو » (٤٢) •

توران شاه ومعركة المنصورة

لما مات الملك الصالح ايوب ، اخفت زوجه شجر الدر الارمنية الاصل ، خبر وفاته خوفا من ان يتشجع الصليبيون ، على حد بعض الروايات على مواصلة هجومهم • على انه ربما كان السر في ذلك ايضا انها ارادت ان تقوم ، بعيدا عن المؤامرات ، بتنظيم الخطط التي تخدم اغراضها . فلم يعلم بخبر وفاة الصالح الا اثنان من خواصها ، وصار يوقع على الاوامر عبد من عبيد السلطان عرف كيف يقلد توقيعه •

ثم امرت شجر الدر بنقل جثمان السلطان سرا في سفينة من المنصورة الى جزيرة الروضة ، ومن ثم انتقل فيما بعد في موكب حافل

الى المدرسة التي شيدها حيث تم دفنه بها •

لم ينجب الصالح ايوب الا ولدا واحدا ، وهو الملك المعظم توران شاه الذي ولاه اعالي الجزيرة بعد ان غادرها ، وحلفت له شجر الدر يمين الولاء ، حين ارسلت من قبلها اميرا الى حصن كيفا يدعوه للقدوم الى مصر • وادرك الصالح ايوب قبيل وفاته ما اشتهر به توران شاه من صفات لا تؤهله للحكم ، وانه صرح قبل وفاته على حد قول احـد المؤرخين بانه يرى تسليم البلاد الى الخليفة المستعصم لا لاحـد من الايوبيين (٤٣) •

ولعل هذا هو السر في ان شجر الدر في سبيل المحافظة عـلى سلطتها طلبت الى توران شاه سرعة القدوم الى مصر ، وفي اثناء انتظار قدومه نظمت الوصاية بالاشتراك مع الامير فخر الدين •

استطاع الصليبيون ان يعبروا البحر الصغير ، فاضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع ، وتولى قيادة المصريين الامير بيبرس البندقداري فاقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة ، وانتظروا حتـى تدفـق الصليبيون بجموعهم الى داخلها • ولما ادركوا انهم بلغوا اسوار القلعه التي اتخذها المصريون مقرا لقيادتهم ، خرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب ، وامعنوا في قتالهم ، ولم يستطع الصليبيون ان يلتمسوا لهم سبيلا الي الفرار ، فوقع الاضطراب بين الفرسـان : ولم يفلت من القتل الا من القى بنفسه في النيل فمات غريقا ، او كان يقاتل في أطراف المدينة • (٤٤)

اما لويس وعساكره فانهم ظلوا خارج المنصورة ، وتوقعوا اشتداد ضغط المماليك عليهم ، وادركوا انه لن ينقذهم من المماليك الا نشوب ثورة تجعل الحكومة تعرض شروطا ملائمة للصلح • غير ان لويس طال

انتظاره ، فلم تحدث ثورات بل ان توران شاه وصل الى المعسكر المصري في ٢٨ فبراير سنة ١٢٥٠ . (٤٥)

وقوع لويس في الاسر

وتناقص عدد الجيش الصليبي بسبب الحروب المستمرة ، وانتشار المرض بين الجند . ونفاذ المئونة . ولما لم تجد محاولات لويس للدخول في مفاوضات مع المصريين ، رأى ضرورة تسيير المرضى بطريق النهر ، على ان يتخذ الجنود طريقهم برا مرتدين الى الشمال . وبدأت الرحلة في ٥ فبراير سنة ١٢٥٠ . وشهد المماليك بالمنصورة رحيل الفرنسيين وجلادهم ؛ فلجئوا الى مطاردتهم، وواتهم الحظ بأن الفرنسيين لم يدمروا الجسر الذي اقاموه على البحر الصغير ، فعبر عليه المسلمون في الليل ، واحدقوا بهم ، وصاروا يتخطفونهم قتلا واسرا ، فالتجأ الفرنسيون الى قرية ميت الخولى عبد الله شمال شرمساح (مركز فارسكور) وتحصنوا بها ، واحاط المسلمون بها وظفر الاسطول المصري بالاسطول الصليبي فغنم جميع المراكب بمن فيها . ولم يلبث ان طلب لويس الامان لنفسه ولاصحابه . فاستجاب المسلمون لهم ، غير ان الصليبيين استأنفوا القتال من جديد ، فاحدق بهم المسلمون . وصاروا يحملون عليهم فلم يسع الفرنسيون الا ان اعلنوا استسلامهم بدون قيد ولا شرط ، والقوا باسلحتهم ، وجرى تطويقهم وسوقهم الى الاسر ، وقد اوثقوهم بالحبال وصار تسييرهم الى المنصورة ، فنزل لويس في دار قاضيها ابن لقمان، اما الامراء والقادة فحلوا بسجن كبير ، وامر توران شاه بضرب اعناق اصحاب الحرف والصنائع . وبقي لويس في الاعتقال الى ان قتل توران شاه ، وتقرر ان يفتدى لويس نفسه بتسليم دمياط ، ودفع مبلغ مقداره خمسمائة الف دينار . ولما تم الاتفاق جرى نقل الملك وكبار البارونات على سفن الى فارسكور التي اتخذها السلطان توران شاه

مقرا له ، وتقرر المسير الى دمياط حيث تم تسليمها في ٣٠ ابريل سنة ١٢٥٠ • (٤٦)

على ان هذا النصر كلف توران شاه ثمنا باهظا ، فمهما اشتهر به من الطموح ، كان ينبغي ان يعالج الامور في شيء من الحكمة والاتزان وان يسترضي امراءه الذين حافظوا على نظام الحكم ، ونجحوا في تخليص البلاد من خطر خارجي ، وذلك كي يحفظوا الملك له • وما نعته به ابوه من العجز وعدم الكفاية كان له ما يبرره ، لما اتصف به توران شاه من الاستبداد والعنف • اذ لم يلبث ان امر باعتقال جماعة من امراء اسرته وابعد مماليك ابيه الذين احرزوا له النصر ، وجعل المناصب العالية للامراء الذين صحبوه من الشرق • ولم يكتف توران شاه بان ينزع من مماليك الصالح ايوب كل سلطان ونفوذ ، بل صار يحقرهم ويسخر منهم ، ويمضي في اهانتهم والاساءة اليهم • والواقع ان ذلك نجم عن ضعف شخصيته ، والدليل على ذلك انه كان اذا سكر يجمع الشموع ، ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها ويقول كذا افعل بالبحرية، يعني مماليك ابيه (٤٧) • ولم يكتف بذلك بل دأب على ان يهاجم شجر الدر التي حافظت له على ارث ابيه ، فبعث يهددها ، ويطلب اليها المال والجواهر ، فخافت منه ، فاثارت عليه المماليك البحرية ، واتفق الجميع على قتله • (٤٨) •

وكان لدى السلطان توران شاه من الوقت ما يكفي لاتمام المفاوضات مع لويس التاسع قبل ان تحل به نكبته • وتضمنت نصوص المعاهدة « بان يتعهد السلطان بان نخرج من السجن ، ويسمح بالسير لنا ولجميع الذين اسرهم المسلمون منذ وصولنا الى مصر ، وكذا لجميع المسيحيين من مختلف البلاد الذين وقعوا في الاسر ، منذ ان عقد السلطان الملك الكامل جد السلطان الحالي ، هدنة مع الامبراطور

فردريك الثاني ويحافظ المسيحيون على السلام في كل البلاد التي يملكونها في مملكة بيت المقدس متى وصلنا اليها ٠امانحن فعلينا ان نرد دمياط ، وان ندفع ثمانمائة الف بيزنطة (دينار) اسلامية لاطلاق سراح الاسرى ، وان نسلم كل الاسرى المسلمين الذين وقعوا في ايدي المسيحيين بمصر ، منذ قدومنا الى هذه الجهات ، وكذا الذين وقعوا في الاسر في بيت المقدس ،منذ ان تم توقيع الهدنة بين الامبراطور المذكور والسلطان المذكور ٠٠ وكل امتعتنا ، وامتعةالاخرين بدمياط ، تكون بعد رحيلنا في حماية السلطان ، ويصير نقلها متى حانت الفرصة، الى بلاد المسيحيين ٠ ولجميع المرضى من المسيحيين ومن بقي من المسيحيين بدمياط لبيع ما يمتلكون بها ، نفس الضمانات ولهم ان يرتحلوا برا وبحرا متى ارادوا ، دون اي تعطيل وتعهد السلطان بان يبذل امانا لجميع المسيحيين الذين يرغبون في السير برا حتى يبلغوا بلاد المسيحيين ٠ (٤٩)

ولما تم اعداد هذه الشروط من قبل الجانبين ، تحرك الجيش الاسلامي ومعه الاسرى ، وتوجه لاستلام دمياط ٠ اما توران شاه فانه اقام في ٢ مايو سنة ١٢٥٠ سماطا احتفالا بتخليص الاراضي المصرية من الصليبيين ، فحانت بذلك الفرصة التي اغتنمها المماليك البحرية للتخلص من السلطان ٠ اذ لما هم السلطان بمغادرة مكان الاحتفال ، نهض بيبرس وضربه بالسيف ، فقطع ذراعه ، فهرب الى البرج الخشب الذي نصبه بفارسكور ، غير ان المماليك اشعلوا النيران حول البرج ورموه بالنشاب ، فرمى توران شاه بنفسه في النيل ، فاسرع المماليك الى مطاردته ولحقوا به ، وظلوا يضربونه بالسيف حتى مات بعد ان حكم واحدا وستين يوما ٠

وما اشتهر به توران شاه من الطيش لم يؤد الا الى ما حل به من الهلاك . واذ انتصر المماليك على الصليبيين ، فانهم استهلوا عهدهم بما ارتكبوه من جريمة اغتيال خطيرة تجاوزت الحدود . (٥٠)



الفصل الحادي عشر

الجيش زمن الايوبيين

اولا ــ الجيش المصري :

في حملة شيركوه الثالثة على مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩) ، امره نور الدين بالتجهيز الى مصر . واعطاه مائتي الف دينار ، سوى الثياب والدواب والاسلحة ، وسمح له ان يختار من العسكر من يشاء ، فاختار الفي فارس واخذ المال . وجمع ستة الاف فارس من التركمان ، والراجح انهم من قبيلة الياروقي ، لان قائدهم عين الدولة الياروقي كان بصحبته . واعطى نور الدين كل فارس ممن مع اسد الدين شيركوه عشرين دينارا للتجهيز للحملة (١) .

والى هؤلاء انضم جيش شيركوه الذي أنشأه باعتباره صاحب اقطاع حمص ، ويتألف من خمسمائة من المماليك والكرد ، وهم المعروفون بالاسدية ، فضلا عن عدد غير معروف من الجند . (٢)

ولما تولى شيركوه الوزارة بعد مصرع شاور ، واستقر في الامر ولم يبق من ينازعه السلطة ، استعمل على الاقاليم من يثق به من اصحابه واقطع البلاد لعساكره . (٣) وفي الوقت نفسه اقر اصحاب مصر على قواعدهم وامورهم الى ان انقضت ايامه وقضى نحبه . (٤)

ولما خلف صلاح الدين عمه شيركوه في الوزارة ، انسحب من مصر التركمان وعدد من الامراء الترك . ورجعوا بمن معهم من الفرسان

الى الشام ، حيث لحقوا بنور الدين ، وبقي في خدمة صلاح الدين الاسدية والكرد • ولم تكد تنتهي تلك السنة ، حتى الف صلاح الدين عسكره المعروفين بالصلاحية بقيادة الامير ابي الهجاء • (٥) وعلى الرغم مما اصاب جيش صلاح الدين من نقص في العدد بسبب انسحاب بعض الامراء الى الشام ، وما حدث من القتال ضد السودانيين ، شرع في اقصاء الامراء المصريين وانتزاع اقطاعاتهم ، فقطع منهم الدوائر من اجل من معه من العساكر فازدادوا له حبا وطاعة • (٦) وفي السنوات الخمس التالية ، ازداد عدد جيشه بفضل ما اضيف الى حلقته والى اجناد الامراء من الجند ، حتى اذا تهيأ توران شاه ، اخو صلاح الدين ، سنة ١١٧٤ ، للتوجه بحملته الى اليمن ، استطاع صلاح الدين ان يمده بقوة مقدارها الف فارس ، خارجا عمن سيره من حلقته • (٧)

لم يرد فيما لدينا من المصادر والمراجع ما يشير الى توزيع الاقطاعات على الاجناد ، او اقطاعات صلاح الدين ذاته ، على الرغم من انه ورث الوزراء المصريين في اقطاعاتهم وخراجهم ، وما ورد في المصادر انما يتعلق بما جعله لافراد اسرته من الاقطاعات • فلما قدم نجم الدين والد صلاح الدين الى مصر سنة ١١٧٠ (٥٦٥) جعل لهالاسكندرية ودمياط والبحيرة (٠) اقطاعا • وفي الوقت ذاته صار لاخيه توران شاه الجزء الجنوبي من الصعيد (قوص واسوان وعيذاب) ، وعبرته ٢٦٦ الف دينار (٩) ، وبعد شهور حصل ايضا على بوش (٠٠) والجيزة وسمنود • ولما قدم ابن اخيه تقي الدين عمر سنة ١١٧٢ بعساكره الذين بلغوا ٥٠٠ جندي ، تقررت نفقتهم على كورة البحيرة (١٠) •

---

(٠) مقدار اقطاع البحيرة ٤٠٠ الف دينار (السلوك ١: ٩١ حاشية ٣)

(٠٠) عبرة بوش وملحقاتها ٧٠ الف دينار ، وعبرة سمنود ٦٠ الف دينار (السلوك ١ : ١١).

ومن ملاحظة اوردها ابن الاثير ، يبدو ان الاقطاعات ، وفقا للنظام الاقطاعي (١١) الذي اقامه نور الدين ، كانت وراثية ، وانه ثمة سجل يحوي ما هو مقرر على المقطع من الرجال والسلاح (١٢) .

ولعل صلاح الدين اتخذ هذا النظام ، ففي التقليد الذي جعله لابن المقدم بولاية دمشق سنة ١١٨٢ ، تطلب منه ان يقدم من العساكر ما يتفق مع عبرة اقطاعه . وصار لكل من كبار الامراء والقادة اقطاع ، ولمماليكهم الجوامك او الاقطاعات او من له اقطاع وجامكية (١٣) . وتضمنت جرائد الاجناد مبالغ اقطاعاتهم ، ومقادير جامكياتهم ، ورواتب نفقاتهم (١٤) . والاجناد الذين لم يردوا في جرائد الاجناد اشتهروا باسم البطالين (١٥) .

وليس للمقطع ان يستحوذ على كل ما يرد من اقطاعه من خراج الا اذا جرى النص على ذلك . مثال ذلك ان تقي الدين عمر لما صار نائبا عن صلاح الدين بمصر سنة ١١٨٣ ، صارت له الاسكندرية ودمياط اقطاعا ، ثم اضيف اليه البحيرة والفيوم وبوش ، على ان تكون من خاصه (١٦) . ويعتبر المقطع مسئولا عن زراعة الارض وريها ، وعمارة الجسور وجباية الخراج (١٧) . والمعروف ان كل مقطع كان يتولى بنفسه الاشراف على ما ينتج من ارضه من المحصولات . وما حدث من مؤامرة الفاطميين في ابريل سنة ١١٧٤ انما تحدد موعدها في اثناء تفرق العساكر في جهات اقطاعاتهم للاشراف على جمع المحصولات ، ولم يكن قد عاد منهم الى القاهرة الا عدد قليل (١٨) ولما هاجم الاسطول الصقلي ميناء الاسكندرية في يوليه سنة ١١٧٤ ، جاءت الامدادات من الاجناد الذين كانوا باقطاعاتهم القريبة من الاسكندرية (١٩) . وفي خريف سنة ١١٧٣ ارسل صلاح الدين العساكر المصرية الى بلادهم على ان يعودوا بعد الانتهاء من جمع المحصول (٢٠) .

واورد ابن مماتي ملاحظة قصيرة عن فئات الرواتب والنفقات التي يتقاضاها عينا الفئات المختلفة من الجيش على اساس عبرة الاقطاع (٢١) ، وجرى التقدير نقدا على اساس ما هو معروف بالدينار الجيشي، اذ ان الترك والاكراد والتركمان حصلوا على رواتبهم كاملة ، ومنهم تتألف الفئة الاولى من العساكر • اما الفئة الثانية ، وتألفت من الكنانية والعساقلة ومن يماثلهم من الاجناد ، الذين وردت اسماؤهم في السجلات المصرية ، وهؤلاء انما يحصلون على نصف الراتب (•) • وتألفت الفئة الثالثة من الجند الذين يخدمون بالاسطول ، ولا يحصلون الا على ربع الراتب (٢٢) • والفئة الاخيرة من المتطوعين العرب الذين لا يحصلون الا على الثمن • والراتب الكامل مصطلح يطلق على ما هو مقرر للاجناد فعن كل دينار جيشي اردب من الحبوب : اي ٢/٣ اردب من القمح ، و ١/٣ اردب من الشعير • وجرى تقدير المقرر في الخزانة على اساس صرف ربع دينار ، لكل دينار جيشي ، كما تم الاتفاق على ذلك ، غير ان هذه التقديرات تتفاوت وتتغير حسب الاحوال ، فتارة تصير ٢/٣ دينار وتارة تحسب على انها ١/٣ دينار • والخلاصة ان كل واحد من العساكر يتقاضى جانبا من راتبه نقدا لا يقل عن ١/٤ خراج اقطاعه ، فضلا عن مقدار من الحبوب تعتبر نفقة ، قدرها اردب عن كل ما قيمته دينار في الاقطاع وفي الفئات الدنيا تقل النفقات •

(•) الكنانية منهم امراء ومقطعون .. وهاجرت قبيلة كنانة من جنوب فلسطين بعد سقوط عسقلان في يد الصليبيين سنة ١١٥٣ ، وانزلها الوزير طلائع ابن رزيك في دمياط وضواحيها «القلقشندي : صبح الاعشى، جـ١ ص ٣٠٥» وفي حملة *Mont Gisard* الرمله صحب القاضي الفاضل الكنانية ولادلاء «ابو شامة ١ : ٢٧٣» والواضح ان العرب الكنانية اشتهروا بخبرتهم في حماية اقاليم الاطراف «الخطط ١ : ٨٧ ـ السلوك ١ : ٧٥ *Gibb: op. cit p 308*

والدينار الجيشي، دينار فرضي لا حقيقة . استعمله اصحاب ديوان الجيش في تقدير عبرة الاقطاعات، اذ جعلوا لكل اقطاع عبرة دنانير معينة. على انه يجوز الا يكون لبعض الاقطاعات عبرة معينة (انظر القلقشندي : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٤٢).

وفي المقريزي فقرتان من متجددات القاضي الفاضل ، توردان عدد الجيش المصري زمن صلاح الدين . ففي الفقرة الاولى ما يشير الى انه حدث في ٨ محرم سنة ٥٦٧ (١١ سبتمبر ١١٧٢) ان قام صلاح الدين بعرض جميع العساكر ، قديمها وحديثها ، وشهد العرض رسل الروم والفرنج . وكانت العدة الحاضرة ١٤٧ طلبا ، ولم يشهد العرض عشرون طلبا . والطلب بلغة الغز وحدة تتألف من قائد (امير) له علم معقود وبوق مضروب ، وعدد من الفرسان ، يتفاوت عددهم بين ٢٠٠ ، و ١٠٠ و ٧٠ فارسا ، وبلغ مجموع هؤلاء الفرسان نحو ١٤ الف فارس، وغالبهم من الطواشية (.) ، والبقية من القراغلامية (..) . وعرض ايضا مع هؤلاء العربان من جذام ، فكانت عدتهم سبعة الاف فارس ، غير ان من حضر منهم لم يزد على ١٢٠٠ (٢٣) . ولا شك ان هذا النظام الحربي استنزف موارد مصر، ودعاالى شكوى نور الدين بأنه لم يحصل على اية مساعدة مالية . لسد نفقات الجهاد (٢٤) ، والى ان يرسل مندوبا من قبله لمراجعة حسابات صلاح الدين واتخذ صلاح الدين نفسه الخطوات اللازمة لتخفيض عدد الجيش ، فارسل في سنة ١١٧٤ الى اليمن جيشا ضخما ، وفي نفس السنة تخلص من جانب كبير ممن تبقى من جند الفاطميين الذين دخلوا في جيش صلاح الدين ، فبعث بهم الى اقصى بلاد الصعيد (٢٥) . ثم حدث اخر الامر في سنة ١١٨١ ان اعاد صلاح الدين تنظيم عساكره في مصر . ويشير الى ذلك القاضي الفاضل فيمتجددات سنة٥٧٧ ١١٨١ (٢٦)فاستقر العددعلى ٢٨٦٤٠ منهم ١١١ أميرا ، ٦٩٧٦ طواشيا ، ١٥٥٣ قراغلامية . وبلغ مجموع ما رصد لهم

(.) الطواشي من رزقه من ٧٠٠ الى ١٠٠٠ ، الى ١٢٠٠ دينار وله برك من عشرة رؤوس الى ما دونها ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل ، وله غلام يحمل سلاحه . والطواشي يقصد به الجندي من الفئة الاولى من العساكر.

(..) القراغلام هو الجندي العادي 430-431 . xx William of Tyre

من المال نحو ٣،٦٧٠،٦٠٠ دينار ، وهذا العدد لا يدخل فيه الجند الذين ليس لهم اقطاعات ، ودخلوا في سجل مخصصات العشر ، ولا العرب المقطعون بالشرقية والبحيرة ، والكنانية ، والمصريون ، والفقهاء والقضاة والصوفية ، والجند المصريون (الفاطميون) ، والدواوين التي لا يقل جاريها عن الف الف دينار • (٢٧)

واعقب النص الوارد في الخطط ، فقرة من المتجددات تحتوي على تفاصيل حساب شهر شعبان سنة ٥٨٥ (اكتوبر ١١٨٩) ، فما استقر عليه عبر البلاد من اسكندرية الى عيذاب الى ٢٤ شعبان سنة ٥٨٥ بلغ ٤،٦٣٣،٠١٩ دينار ، منها ١،١٩٠،٩٢٣ دينارا جرى تخصيصها لاغراض معينة ، وما تبقى وقدره ٣،٤٦٢،٠٩٥ اختصت به القوات النظامية • ومن المبلغ الاول نحو ٧٢٨،٢٤٨ دينارا مرتبط بديوان العادل و١٥٨،٢٠٣ للامراء والاجناد الذين لم تكن اقطاعاتهم داخلة في الاراضي التي لها عبرة و١٣،٨٠٤ لصيانة اسوار القاهرة و٣٤،٢٩٦ للعربان و٢٥٤١٢ للكنانية ، ٧٤٠٣ للقضاة والشيوخ و١٢،٥٤٠ للقيمرية والصالحية والاجناد المصريين ، ١٠،٧٢٥ للغزاة والعساقلة المرابطين بدمياط وتنيس وغيرهم ، (٢٨)

وينبغي ان يكون معروفا ان صلاح الدين لم يستخدم كل الجيش في حملاته على الشام ، اذ ان ظروف اقامته بمصر ، وما تلا ذلك من الحملات البحرية الصليبية اقنعته بان الصليبيين لم يتخلوا مطلقا عن املهم في الاستيلاء على مصر بشن هجوم مفاجيء عليها • (٢٩) ولذا اصبح من العسير الاستغناء عن نصف الجيش ، وابقائه في داخل البلاد ، والفرصة الوحيدة التي توجه فيها صلاح الدين على رأس جانب كبير من الجيش المصري الى الشام ، انما كانت في حملته الى الرملة سنة

١١٧٧ • (٣٠) وما حدث من الهزيمة في معركة الرملة Mont Gisard جعله يصمم على الا يجاذف مرة اخرى بقواته (•) • وفي اثناء حملته الاولى على الشام ١١٧٥ ــ ١١٧٦ بعد الاستيلاء على دمشق ، كان عدد فرسانه نحو ٦ الاف فارس ، وهذا العدد يشمل عسكر دمشق وحلقته من الصلاحية ، ولا يزيد عدد الجيش المصري على اربعة الاف • (٣١) ولما خرج من مصر في نهاية سنة ٥٧٧ ــ ١١٨٢ اشار عماد الدين انــه اخذ معه نصف العساكر ، وترك النصف الاخر لحماية الحدود ، ويؤكد هذاالرأي ما كان من عدد العساكر الاسلامية في حطين • ولهذه السياسة ميزة اخرى وهي ان صلاح الدين استطاع ان يرسل باستمرار الــى المعركة قوات جديدة وان يعيد الذين اصابهم الضعف والتعب ، كــي يستريحوا بمصر • ثم يعودوا لمواصلة القتال • (٣٢)

ثانيا : جيوش الشام والجزيرة

ويضاف الى ما انشأه صلاح الدين من قوة حربية بمصر ، العساكر السورية والجزرية ــ وتفصيلها :

(١) دمشق ــ انقسمت قوات نور الدين بعد وفاته بين دمشــق وحلب وبعض الامارات الصغيرة (حمص وحماة وحران) • والراجح ان جانبا كبيرا من الجيش ، ولعله يبلغ ثلثي الجيش انحاز الى الصالح في حلب ، ومن بقي من العساكر في دمشق ، خضع لقيادة ابن المقدم الذي كان له اقطاع بعلبك • (٣٣) ولما تمرد ابن المقدم بسبب حرص توران شاه على الحصول على اقطاع بعلبك ، جعل صلاح الدين ابــن

(•) انظر وليم الصوري ـ على انه تجاوز في تقدير عدد الجيش المصري . ومع ذلك، فان صلاح الدين خرج بعد ثلاثة شهور الى سوريا مرة اخرى بقوات جديدة.

اخيه فروخشاه على عساكر دمشق ، وارسله لمواجهة قوة الصليبيين التي قادها Humphrey of Toron (صاحب تبنين) في سنة ٥٧٤ (١١٧٨) ويشير القاضي الفاضل في رسالته الى ما احرزه فروخشاه من انتصار على الصليبيين ، وان القوة التي كان يقودها لا يقل عددها عن الف فارس ، ومن ثم يصح تقدير عساكر دمشق ١٠٠٠ فارس او اكثر قليلا (٣٤)

(ب) حمص

أعقب حملة صلاح الدين الاولى في شمال الشام ١١٧٥ – ١١٧٦، ان جعل حمص لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، بالاضافة الى اقطاع الرحبة الذي حصل عليه من قبل . (٣٥) فلما مات تولى مكانه ابنه شيركوه الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى القلعة الامير الكردي الحاجب بدر الدين ابراهيم الهكاري . (٣٦) والمعروف ان قوات شيركوه في حمص بلغ عددها خمسمائة ، وربما بقي هذا العدد على ما كان عليه .

حـ – حماة

اول من تقلد حماة زمن صلاح الدين خاله شهاب الدين محمود الحارمي وذلك في سنة ١١٧٦ (٣٧) ، ثم خلفه عليها سنة ٥٧٤ (١١٧٩) تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين (٣٨) ، وشاركه ابن المقدم حيث ولي اقطاع بارين وكفر طاب ورعبان ، وابن المشطوب القائد الكردي المعروف (٣٩). ثم توجه تقي الدين وابن المقدم عقب ذلك مباشرة لحماية رعبان من سلطان سلاجقة الروم ، وبلغ عدد من معهما من العساكر نحو ١٠٠٠ رجل ولعل هذا هو عدد القوات التابعة لحماة وتوابعها . (٤٠)

ك ـ حلب ـ سبق ان اشرنا الى ان الجانب الاكبر من جيش نور الدين استقر بحلب ، وانضم الى الملك الصالح ، الذي استعان به في القتال ضد صلاح الدين سنة ١١٧٦ • ومع ذلك فان صلاح الديـن طلب الى عساكر حلب ان يساندوه في قتال اعدائه الخارجين عليه ، وجرى استخدامهم في القتال ضد الارمن في قلقية سنة ١١٨٠ • (٤١) وترتب على انفصال حماة وما يليها جنوبا من الجهات ، واقاليم الفرات ، ان نقصت موارد حلب فلم يعد في استطاعتها ان تحتفظ باكثر مـن العساكر النورية وسائر الامراء • والراجح ان عساكر حلب لم يزيدوا على الف فارس • (٤٢)

(هـ) الموصل والجزيرة : يشير ابن الاثير في اثناء حديثه عـن حملة الموصل ضد صلاح الدين سنة ١١٧٦ الى قوة الجيش ، اذا صحب عساكر الموصل جناد سائر الامراء . مثل اميري حصن كيفا وماردين، ولم يزد عدد الجيش على ٦٥٠٠ فارس • (٤٣)

وفي حملته الاولى التي جردها على الجزيرة سنة ١١٨٢ صارت له (صلاح الدين) السيادة على امارات حران وسنجار ودارا ونصيبيـن وغيرها • ثم انتقلت سنجار في السنة التالية الى عماد الدين زنكي،وفي سنة ١١٨٤ اعلنت اربل وتوابعها الاعتراف بسيادة صلاح الدين• (٤٤) سنة ١١٨٥ استسلمت ماردين وميافارقين ، ومنح صلاح الدين جميـع ديار بكر اقطاعا لمملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي • (٤٥)

فالمجموع الكلي لهذه القوات الاقليمية . والتي تأتمر بأمر صلاح الدين ، قدرها المجاورون بنحو ٤ الاف • (٤٦) اما عسكر الموصـل فلم يزيدوا على الفين • والمعروف ان هؤلاء العساكر صاروا بمقتضى معاهدة سنة ١١٨٦ يخضعون لاوامر صلاح الدين •

هذه الارقام مستمدة من الروايات الواردة عن حملات سنة ١١٨٧

ففي مارس من هذه السنة ارسل صلاح الدين ابنه الافضل ليشرف على القوات الشمالية التي اجتمعت عند رأس الماء ، بينما توجه بعساكره الصلاحية جنوبا للاشتراك مع العساكر المصرية في قتال العدو . وترتب على ما سبق ذكره ، ان يكون لدى صلاح الدين من العساكر الف فارس فضلا عن ٤٠٠٠ فارس ، وهو نصف الجيش المصري . وفي هذه الاثناء اجتمع عندرأس الماء فرسان الجزيرة والمشارقة وديار بكر بقيادة كوكبورى واجتمع عسكر حلب بقيادة دلدروم، وعسكر دمشق بقيادة صارم الدين قايماز النجمى . وفي اثناء غياب صلاح الدين اغارت هذه القوات على طبرية وانزلت الهزيمة بقوة من الداوية عند صفورية ، واشارت المصادر العربية الى ان عددهم كان نحو ٧ الاف . ثم لم يلبث ان جاء صلاح الدين من الجنوب ، وعرض العساكر في عشترة . فبلغت عدتهم ١٢ الف مقاتل وذلك قبل المسير الى القتال في حطين (٤٧) . ويصح توزيع هذا العدد على النحو الاتي :

- ١٠٠٠ أجناد الحلقة
- ٣٠٠٠ العساكر المصرية
- ١٠٠٠ عساكر دمشق
- ١٠٠٠ عساكر شمال الشام
- ٥٠٠٠ في الجزيرة والموصل وديار بكر

ثالثا القوات الاضافية :

والى جانب العساكر الذين يتالف منهم الرماة وحملة الرماح ، ضمت جيوش صلاح الدين قوات مساعدة من الفرسان والرجالة :

(١) التركمان : سبق ان اشرنا الى ان نور الدين افاد كثيرا من القوات الاضافية من التركمان . وسار صلاح الدين على نهج نـور

الدين • مثال ذلك انه قبل قيامه بالهجوم على قلعة مخاضة يعقوب سنة ١١٧٩ ، ارسل الى التركمان وعشائرهم • والى الاطراف يجمع منهم الجيوش ، وارسل اليهم الاف الدنانير المصرية لتوزيعها على جموعهم، ودفع لهم نفقات مقابل خدمتهم ، باعتبارهم قوات مساعدة ، وامر باعداد كميات كبيرة من الدقيق للتركمان ، وان يقدم لهم كل ما يحتاجون اليه (٤٨) • والواقع ان التركمان الياروقية قاموا بدور كبير في الحملة الصليبية الثالثة ، فما حدث من وصولهم في اللحظة الحرجة ، وما قاموا به من هجمات على خطوط تموين القوات الصليبية، اسفل بيت المقدس، كان له اثر كبير في انسحاب وتشرد •

(ب) الكــرد :

من المعروف ان عددا كبيرا من الكرد دخلوا في سلك العساكر النظامية : وحصلوا على اقطاعات كبيرة او جامكية مثلما حصل المماليك من الترك • لم يكونوا فحسب في القوات النظامية عند نور الدين ، بل كانوا ايضا من قوات الامراء الزنكيين والاراتقة • والى جانب هؤلاء الاكراد ، كان يوجد جند من الاكراد المغامرين ، في خدمة الامراء الايوبيين • ويشير عماد الدين الى رجال القبائل الكردية في جيش نور الدين الارتقي صاحب حصن كيفا • (٤٩) وفي اثناء الحصار الثاني على الموصل سنة ١١٨٥ ارسل صلاح الدين امراء من الكرد ، امثال ابن المشطوب الى كردستان للاستيلاء على ما بها من الحصون (٥٠) وليكونوا نوابا عنه فيما سوف يجري من عمليات حربية في سورية • غير ان العداء المستحكم بين الكرد والتركمان في ديار بكر والجزيرة في اواخر تلك السنة ٥٨١ (١١٨٥) قضى على كل امل في الحصول على جند من الاكراد من هذه الجهات (٥١) •

(ج) العرب :

شمل الجيش النظامي ايضا عددا من الفرسان العرب ، من اشهرهم بنو منقذ بشيزر الذين قاموا بدور كبير في حطين واليمن • وجرى ايضا ذكر البدو بمصر والشام ، وكانت اقطاعاتهم بالشرقية والبحيرة ، وكان بالجيش نحو ١٣٠٠ فارس من العرب الجذاميين • وفي سنة ١١٨١ ، امر صلاح الدين بمصادرة اراضيهم بالشرقية (٥٢) ، والزمهم بالارتحال الى البحيرة لما اشتهروا به من تهريب القمح الى الصليبيين • وبعد ثلاث سنوات ، تقرر ارسال جيش الى البحيرة للقضاء على ما قام به عرب جذام من الاضطرابات (٥٣) ، واشتهر البدو بجنوب فلسطين وشرق الاردن بما اثاروه دائما من اضطراب • ولم تكن حملة صلاح الدين الى الكرك سنة ١١٧٣ الا لطرد العرب من هذه المنطقة ، ومنعهم من مساعدة الصليبيين الذين اتخذوا منهم ادلاء (٥٤) • وتعرض جيش صلاح الدين بعد هزيمة Mont Gisard (الرملة) للنهب من قبل البدو • وعلى الرغم من كل هذه المساوىء فالمعروف ان العرب في سوريا ، امدوا صلاح الدين بقوات مساعدة افاد منها في الغارات ، لا سيما العمليات الحربية التي اجراها سنة ١١٧٩ • اذ ارسل رجال القبائل الى بلاد صيدا وبيروت ليحصدوا محصولات الاعداء ، بينما اقام ببانياس الى ان عادوا بما حصلوا عليه من الغنائم (٥٥) وقام العرب ايضا بدور كبير في القتال ضد رتشرد •

(د) الاجناد :

جرى استخدام هذا المصطلح للدلالة على معان عدة : اذ جرى اطلاقه على كل جندي بما في ذلك الجند بالجيش النظامي ، وكذلك جرى استخدامه عادة للدلالة على كل القوات الحربية في اقليم من الاقاليم

غير ان ثمة ما يدل على تخصيص اطلاقه على القوات الاضافية (المحلية)، تمييزا لهم عن العسكر ، اي انهم لم يكونوا رماة فرسانا ، انما مارسوا القتال بالرمح والسيف (٥٦) . والراجح ان الجيش المحلي لم يكن في هذه الاثناء مستخدما ، بسبب ازدياد استخدام العساكر التركية وزوال الامارات المحلية (٥٧) ، وحل مكانهم الجند المعروفون بالمتطوعة ، زمن صلاح الدين ، الذين جاءوا من سائر الجهات للاشتراك في الجهاد الديني ، يشير اليهم عماد الدين في معركة مخاضة جسر يعقوب في سنة ١١٧٩ ، والى ان بعض المتطوعة اشعلوا النيران في الحشيش في وقعة حطين (٥٨) .

(هـ) الرجالـة :

وترتب على سرعة حركة الحملات التي اعتمدت اساسا على الفرسان ، ان جرى استبعاد الرجالة من القتال ، فلم يظهر الرجالة الا في كل ما يرتبط بعمليات الحصار، وفي حالة الهجوم صاروا يعرفون بالصناع. ومنهم الحجارون والنقابون والخرسانية (٥٩) .

رابعا ـ الالات والمؤن :

جرى تنظيم الجيش على ان يرأس كل امير عددا من الاجناد يتراوحون بين ٧٠ ، ٢٠٠٠. وقبل المسير الى القتال، توزع الاسلحة والزرد على العساكر ، ويتم ايضا توزيع النفقات عليهم لسد حاجات الحملة ، وكل امير وجندي يأخذ معه ما تقرر له من كميات المؤن والعلوفة من الحبوب او ما يشتريه لحسابه الخاص ، اذ يجري شراء كميات اضافية من التجار الذين يتخذون لهم مكانا في قاعدة العمليات الحربية ليبيعوا للجند ما يحتاجون اليه (٦٠) يشير عماد الدين الى ان الجيش لما وصل الى سدير في حملة الرملة ٥٧٣ (١١٧٧) (٦١) جرى النداء في العسكر بان

يحصلوا من المؤن والزاد ما يكفي لعشرة ايام ، حيث انه ليس متوقعا ان يحصلوا على المؤن بعد الدخول الى ارض العدو • ثم يقول : ثم توجهت الى سوق العسكر لاشتري ما يلزمني من المؤن ، غير ان الاسعار نزعت الى الارتفاع ، فقلت لغلامي : عدلت عن رأيي ، بع كل ما عندي حتى تحصل على اسعار مرتفعة (٦٢) • ولما اشتبك صلاح الدين في اول حصار للموصل ٥٧٨ (١١٨٢) منع جند سنجار التجار من جلب مؤنهم (٦٣) • ويشير وليم الصوري الى ما كان يجري في معسكر المسلمين من حركة ونشاط مصدرها قيام المتعهدين بخدمة الجيش بعملهم على خير وجه (٦٤) •

وفي اثناء القتال لم يستطع الفرسان الابتعاد عن اثقالهم ومتاعهم، لان بها مؤونتهم وسلاحهم ، اذ ان الدروع لا يجري استخدامها الا عند التحام الصفوف ، ومن مساويء المباغتة اخذ هؤلاء الفرسان على غرة ، قبل ان يتخذوا اسلحتهم • والحملات القصيرة الامد كانت تجري احيانا جريدة ، اي بدون ان يكون بها اسلحة ثقيلة للفرسان ، ويجري ايضا استخدام هذا اللفظ للدلالة على القوات الخفيفة (٦٥) •



الفصل الثاني عشر

البحرية زمن الايوبيين

لما اخذ البيزنطيون في مناوءة المسلمين ، وعمدوا الى مد سلطانهم الى البلاد الشامية بعد سنة ٣٥٠ هـ ، (٩٦١م) ، وحرصوا على ان يمتلكوا مدن الشام ، ازداد الاهتمام بالاسطول في مصر • وذلك منذ قدم اليها المعز لدين الله الفاطمي ، فأنشأ المراكب الحربية • وجرى على نهجه من جاء بعده من الخلفاء ، فواصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر (الفسطاط) والاسكندرية ودمياط • فعمروا انواعا مختلفة من السفن الحربية كالشواني والشلنديات والمسطحات ، وسيروها الى بلاد ساحل الشام ، مثل صور وعكا وعسقلان • وورد في سجلات الاسطول ما يشير الى الفئات المختلفة التي تعمل بالاسطول ، وما يتقاضونه من مرتبات ، فضلا عن الاقطاعات التي نالوها • وتبين من هذه السجلات ان قادة الاسطول كانوا عشرة • يعين احدهم رئيسا للاسطول ، ويساعده المقدم والقاوش فاذا ساروا الى الغزو ، اقلع بهم فاقتدوا به ، فيقلعون باقلاعه ويرسون بارسائه • وكانت عدة الاسطول في ايام المعز تزيد على ستمائة قطعة ، واخر ما صارت في اخر الدولة الفاطمية نحو الثمانين شونة ، وعشر مسطحات ، وعشر حمالات • وجرت العادة بان يتولى النقباء احضار الرجال الذين يعملون في الاسطول ، وتقررت لهم المرتبات الشهرية والجرايات في مدة ايام سفرهم • (١)

وترتب على اعتداء الصليبيين على العالم الاسلامي ، ان حدث تغيير شامل في تنظيم البحرية بالبحر المتوسط، ولاشك ان مصر كانت اكثر البلاد

التي تأثرت بذلك • فالمعروف ان مصر والامبراطورية البيزنطية اشتهرتا قبل الحروب الصليبية بانهما اقوى دولتين بحريتين في البحر المتوسط• على ان سيطرة الاسطول المصري على مياه البحر المتوسط تعرضت اثناء الحروب الصليبية لتحدى القوى الصليبية • ومع ان صلاح الدين اشتهر بما انزله من هزائم ساحقة بالصليبيين برا ، فان ما قام به من اعمال بحرية جعلت له مكانة بارزة في التاريخ البحري في شرق البحر المتوسط

ويصح تقسيم ما حدث من تطور في البحرية زمن صلاح الدين وخلفائه الى المراحل الرئيسية التالية •

المرحلة الاولى : وامتدت منذ ان تولى صلاح الدين مقاليد الامور بمصر سنة ١١٦٩ حتى سنة ١١٧٣ ، وهذه المرحلة اشتهرت بما اصاب البحرية المصرية من الضعف والعجز ، وتعتبر تمهيدا لما حدث بعدئذ من اصلاحات بحرية •

المرحلة الثانية : وهي المرحلة التي بلغت فيها البحرية الايوبية اوج مجدها ، وامتدت من سنة ١١٧٩ الى سنة ١١٨٧ ، وامتازت هذه المرحلة بما قام به الاسطول المصري من عمليات ناجحة ضد سفن الشحن الصليبية •

المرحلة الثالثة : وتشمل السنوات الواقعة بين سنة ١١٨٧ وسنة ١١٩١ ويتجلى فيها اثر الحملة الصليبية الثالثة في اضعاف البحرية المصرية •

والمعروف ان صلاح الدين حكم مصر سنة ١١٦٩ ، ولم يكن بالبلاد من اثار قوتها البحرية الماضية الا قليلا ، فالقواعد الامامية في قبرص وكريت التي لعبت دورا كبيرا في حماية سواحل البلاد الاسلامية

استولى عليها الصليبيون في النصف الثاني من القرن العاشر (٢) • وحل هذا المصير بصقلية التي اضحت فريسة للغزاة النور منديين في اثناء القرن الحادي عشر • وحوالي نهاية هذا القرن صارت الشام مسرحا لغارات الصليبيين • وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الاسطول المصري زمن الفاطميين في المحافظة على المدن الساحلية بالشام ، فان هذه المدن لم تلبث ان سقطت الواحدة بعد الاخرى في يد الصليبيين (٣) وبذلك فقدت مصر قواعدها البحرية مثل عسقلان وصور وعكا ، فضاق محيط العمليات التي تقوم بها السفن الخارجة من الموانى المصرية • ولما انشأ الصليبيون ميناء ايلة على البحر الاحمر ، اصبحوا ينازعون مصر السيطرة على الطرق التجارية الى مصر • وساء الموقف بما حدث سنة ١١٥٣ من سقوط عسقلان ، اذ ترتب على ذلك اثار بالغة الاهمية ، منها ان المصريين خسروا اخر معقل لهم بالساحل، يصح ان يبعث اليهم باخبار حركات السفن المعادية ، ومنها ان القواعد البحرية في داخل البلاد تعرضت لهجمات الصليبيين : ففي سنة ١١٥٤ تعرضت تنيس لمهاجمة اسطول نورماني ، وفي السنة التالية اغار النورمان على دمياط ، ثم هاجموا تنيس مرة اخرى ، وهاجموا ايضا رشيد والاسكندرية • ولا شك في ان هذه الهجمات ضد المراكز البحرية الصناعية ترتب عليها خسائر فادحة في البحرية المصرية ، ويؤكد ذلك ما حدث من التغيير والاختلاف في موقف الاسطول • فبينما استطاع الفاطميون سنة ١١٥٢ ان يرسلوا اسطولا مؤلفا من سبعين سفينة للغارة والقتال ، لم يسعهم سنة ١١٥٥ الا ان يلجئوا الى اتخاذ الاساليب التي يحصلون بها على غرضهم ، وتجنبهم الاشتباك مع السفن الصليبية ، اذ ان قائد الاسطول المصري اختار جماعة من رجال البحر يتكلمون لغة الفرنج والبسهم ثيابهم ، ونهض بهم في عدة سفن الاسطول ، واقلع بهم في البحر لكشف الاماكن والمكامن ، وتعرف احوالها : قصد ميناء صور ، حيث رسا بها

قوة بحرية بيزنطية ، فهجم عليها وملكها وقتل من بها ، واستولى على ما حوته ، وقام ثلاثة ايام • (٤) ، وعاد منها الى البحر ثم الى مصر ، بما حصل عليه من الغنائم والاسرى •

وشجعت هذه الاحوال املريك ملك بيت المقدس على مهاجمة مصر برا وبحرا • فلم تقم السفن الصليبية بمساعدة املريك فحسب في عملياته الحربية ، بل حاصرت الاسكندرية فعلا في اثناء القتال الذي جرى بها سنة ١١٦٧ • ولما قام املريك بهجومه الكبير على القاهرة (٥)، اجتازت عشرون سفينة صليبية بحيرة المنزلة وسارت في الفرع الشرقي للنيل ، ولم يمنعها من المضي في طريقها الاالجسر الذي اقامه المصريون من بقايا السفن المحطمة • وفي اثناء هذه الاعمال ، تعرض الاسطول المصري لضربة خطيرة ، اذ ان شاور امر باشعال النيران في الفسطاط ، ليمنع الصليبيين من التقدم ، فتدمرت بذلك السفن الراسية في الميناء• (٦) والخلاصة ان حالة الاسطول المصري صارت بالغة السوء حين تولى صلاح الدين الحكم •

وما قام به صلاح الدين من الحملات على مصر سنة ١١٦٤،١١٦٧، ١١٦٨ جعله يدرك اهمية الدفاع البحري ، وما تسديه المساعدة البحرية من فائدة للاعمال الحربية في المناطق الساحلية ، وتبين له ذلك حين اشتد حصار الصليبيين للاسكندرية سنة ١١٦٧ . وما ترتب على ذلك من تحرج مركز قواته في داخل المدينة ، فضلا عن الاعتماد على سفن خصومه في نقل المصابين من المسلمين الى الشام بعد وقوع الاتفاق • (٧) فلما تولى صلاح الدين الحكم ، اهتم بامر الاسطول • وتبين له ان دواعي الحرب ضد الصليبيين تتطلب قوات بحرية فعالة • على ان الصليبيين لم يلبثوا ان ادركوا الوضع الجديد الذي نشأبعد ان تقلد صلاح الدين مقاليد الامور في مصر ، وما ترتب على ذلك من اجتماع

موارد مصر وسوريا من الناحيتين الحربية والاقتصادية ، وعبر عن هذه المخاوف وليم الصوري بقوله : ان نور الدين يستطيع ان يوقف نمو مملكتنا بما يرسله من سفن عديدة من مصر ، يضاف الى ذلك انه يستطيع بهذه السفن ان يحول دون قدوم الحجاج الينا (٨) • ولذا حرص الصليبيون منذ اول الامر على ان يستغلوا ما اصاب البحرية المصرية من ضعف طارىء ، ووجود حزب مناهض لصلاح الدين ، فعقدوا معاهدة تحالف مع البيزنطيين ، وقرروا القيام بهجوم مشترك على دمياط ، يبتغون من ورائه انشاء قاعدة حربية (٩) اما صلاح الدين الذي اخذ يوطد سلطانه في مصر ، ولم يكن تحت تصرفه الا قوات بحرية ضعيفة . ولم يكن في وسعه وقتذاك ان يؤمن السبل المؤدية الى مصر على امتداد سواحلها . فان كل ما استطاع ان يفعله هو ان يسعى الى الاحتراز والحرص على الا يؤخذ على غرة • ولما لم يكن لمصر من القواعد البحرية خارج حدودها ما تستطيع ان تبعث بالانذار مما يتوقع من الخطر . كان لزاما على صلاح الدين ان يرسل في ربيع سنة ١١٦٩ جانبا من الاسطول ليرتاد المسالك التي يجتازها المهاجمون ، وحصل صلاح الدين وراء ذلك على نتائج باهرة • ففي يوليه من تلك السنة (١١٦٩) . توجهت قوة بحرية بيزنطية من القسطنطينية الى فلسطين ، والتقت في اثناء سيرها باربع سفن من الاسطول المصري تجاه قبرص ،غير ان السفن المصرية استطاعت ان تفلت من البيزنطيين وتنتقل اخبار القوة البحرية الى مصر ، وبذلك تحققت اول رسالة لاسطول صلاح الدين (١٠) •

وترتب على فشل المفاوضات بين البيزنطيين وملك بيت المقدس سنة ١١٦٩ ؛ ان تأجل رحيل الحملة البرية البحرية التي جرى الاتفاق من قبل على توجيهها الى مهاجمة مصر • ولما ظهر الاسطول تجاه دمياط

في ٣٠ اكتوبر ، اكتشف ان الطريق المؤدي الى ميناء دمياط ، اغلقته سلسلة ضخمة ، فترتب على ذلك ان اصبح من العسير مهاجمة الميناء من من جهة البحر ، ولم يعد في استطاعة السفن البيزنطية ان تنفذ الى فرع النيل لتحاصر الحصن • وعلى الرغم من ان حامية دمياط اضحت معزولة برا وبحرا ، فانها استطاعت ان تحافظ على اتصالها بداخل البلاد عن طريق النيل ، وبفضل ما ارسله صلاح الدين من المؤن والذخائر الى الحامية ، تخلى الصليبيون عن ضغطهم وعادوا الى فلسطين بعد ان استغرقت اعمالهم الحربية ٥٥ يوما • (١١)

وللافادة من هذا النصر ، قرر صلاح الدين ان يستخدم بعض سفنه في مهاجمة ايلة على البحر الاحمر ، فسقطت في يده في اخر سنة ١١٧٠ (١٢) •

وعلى الرغم من انه لم يقع اشتباك بحري بين الاسطول المصري والصليبيين بين سنتي ١١٧٠،١١٧٣ ، فليس معنى ذلك انه لم يعد ثمة خطر موجه الى مصر • فالواقع ان الصليبيين لم يألوا جهدا في اعداد حملة جديدة لمهاجمة املاك صلاح الدين ، واستطاعوا ان يحصلوا على مساعدة البيزنطيين • غير ان البيزنطيين لم يلبثوا ان تخلوا عن اتفاقهم مع الصليبيين بعد ان لاح لهم خطر النورمنديين . واكثر من ذلك ، اخطروا صلاح الدين بما يدبره النورمنديون من حملة لمهاجمة مصر (١٤) ، ووقع الهجوم فعلا في اواخر شهر يوليه سنة ١١٧٣ ، اذ ظهر اسطول ضخم للصقليين امام الاسكندرية ونفذ الى الميناء • ونزل الجند والمؤن الى البر ، غير انه ما اظهره اهل الاسكندرية من البطولة ، اذ تكاثروا فاحرقوا ما انزله العدو من ادوات القتال ، وهاجموا الرجالة والفرسان منهم ، واقتحم بعضهم البحر ، واخذوا عدة مراكب فأغرقوها وقتل عدد كبير من النورمان (١٥) •

وحاول النورمان ان يستردوا خسائرهم في السنوات التالية ، ففي سنة ١١٧٥ أغار اسطول صقلي مؤلف من ٤٠ سفينة على تنيس ، واستمر القتال يومين ، ثم تراجع النرمان ، وفي سنة ١١٧٧ جددوا محاولتهم وعاثوا في تنيس فسادا (١٦) •

هذه الهجمات المتوالية التي قام بها النورمان على مصر انما دلت على حاجة البلاد الى اسطول قوي يدفع عنها عادية هؤلاء المغيرين ، والواقع ان صلاح الدين ادرك منذ ان تولى حكم مصر اهمية الاسطول ، ففي سنة ١١٧٢ رفع راتب البحارة وبلغت الزيادة نحو ٢٠ بالمئة ، اذ ارتفع من ٨|٥ دينارالى ٤|٣ دينار (١٧) •

ومن الطبيعي ان يكون الغرض من هذه الزيادة تشجيع الناس على الخدمة بالاسطول • وبعد ان انتهى صلاح الدين من تسوية المرتبات ، لجأ الى جمع المواد اللازمة لبناء السفن ، ولهذا الغرض عقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الايطاليه ، حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع (١٨) • وللحملة التي وجهها صلاح الدين غربا والتي استمرت من ١١٧١ الى سنة ١١٨٧ والتي انتهت بالاستيلاء على القيروان اهمية فيما يتعلق بالاسطول (١٩) • اذ ان امتداد نفوذ القوة الحربية المصرية على ساحل البحر المتوسط ، زاد في اتساع منطقة السلام ، ولم تعد مصر تخشى ما قد يتأتى من خطر مفاجيء من جهة الغرب ، وهيأ لمصر وتجارها سبيلا مباشرا للوصول الى الغابات التي اشتهر بها شمال افريقية ، وبذلك تيسر الحصول على كميات الخشب اللازمة لبناء السفن • يضاف الى ذلك ان ما احرزه صلاح الدين من نجاح لابد انه اغرى عددا كبيرا من الملاحين المهرة في شمال افريقية للانضمام الى صفوف بحارة الاسطول المصري • واشار المؤرخون المسلمون الى وجود ملاحين مغاربة في اسطول صلاح الدين • ومن

المعقول ان قوات صلاح الدين في اثناء استيلائها على مواني افريقية وضعت يدها ايضا على ما بهذه الموانى من السفن (٢٠) •

وبعد ان حشد صلاح الدين البحارة ، وجمع المواد اللازمة ، امر في مارس ١١٧٧ في اثناء زيارته للاسكندرية بتعمير الاسطول (٢١) • غير ان خططه لم تلبث انتعرضت لتهديد الامبراطور البيزنطي ، ففي صيف هذه السنة ، ١١٧٧ ، تم الاتفاق بين الامبراطور البيزنطي والصليبيين على مهاجمة صلاح الدين (٢٢) • وابدى البيزنطيون استعدادهم لتمويل حملة برية بحرية يجري توجيهها ضد مصر (٢٣) ، وارسال اسطول ضخم مؤلف من ٧٠ سفينة الى عكا ، غير ان الصليبيين فشلوا في التعاون مع البيزنطيين ، وترتب على ذلك انه لم يتوقف العمل في بناء الاسطول (٢٤) •

ولم تحل سنة ١١٧٩ (٥٧٥هـ) حتى صارت البحرية المصرية على اتم الاستعداد للقيام بالعمل ، ففي تلك السنة تزايد عدد السفن الى الضعف اذ اصبح ٨٠ ، سفينة منها ستون شيني (•) وعشرون طرادة (٢٥) • فاذا عرفنا ان اسطول الفاطميين قلما تجاوز عدده ٧٥ سفينة ، تبين لنا ان الاسطول المصري تجدد في سنة ١١٧٩ وعاد الى ما كان له قديما من القوة (٢٦) •

(•) تألف اسطول صلاح الدين من انواع مختلفة من السفن، فمنها الشيني ويسمى الغراب ايضاً ، ويجدف بمائة واربعين مجدافاً ، وفيه المقاتلة والجدافون . والجراقو اقل حجماً من الشيني ، ويجدف بمائة مجداف ، ويلحق بهذا النوع من السفن الشلندي ، وهو مركب مسقف يقاتل الغزاة على ظهره ، ومن تحتهم يجدف الجدافون . ومن هذا النوع ايضاً المسطح . ومن الحراقات يجري اطلاق المقاليع التي تقذف بالنفط ، ومن سفن النقل ما هو معروف بالحمالة والعزازي والطريدة ، فالطريدة تحمل من الخيل اربعين فرساً ، والحمالة تنقل الغلة والحبوب . والعزازي تحمل المئونة والازواد . والمركوش يستخدم لنقل الماء لخفته ، اما البطشة فهي مركب كبير الحجم تستخدم لنقل الجند (ابن مماتي ٣٣٩ - ٣٤٠) .

اما نظام الاسطول فيتمثل فيما يبدو في انه انقسم قسمين : الاول تألف من خمسين سفينة تعهدت بحماية السواحل المصرية (٢٧) ، اما الثاني فانه تألف من ٣٠ سفينة وتكفل بمهاجمة الصليبيين (٢٨) •

بدأ الاسطول عملياته البحرية في ربيع سنة ١١٧٩ ، وبلغ من توغل المسلمين في البحر انهم وصلوا الى اطراف بيزنطة ، والى قبرص وكريت والسواحل الجنوبية لاسيا الصغرى ، وهبط الغزاة مرات عديدة بساحل الشام ، وانزلوا خسائر فادحة بالنشاط التجاري والحربي بهذه الجهات • وفي يونيه سنة ١١٧٩ استولوا على سفينتي شحن ، وعاد الاسطول المصري وقد حاز قدرا كبيرا من الغنيمة وعددا من الأسرى تجاوز اربعمائة أسير ، وقابل الناس هذا العمل بالتهليل واعتبروه انتصارا كبيرا (٢٩) •

وترتب على هذه الانتصارات أن قام البحارة في هذه السنة بمهاجمة ميناء عكا ، الذي اعتبره المسلمون قسطنطينية الفرنج ودار كفرهم فنفذت السفن الى الميناء ليلا ، وفيه المراكب والبضائع ، فاستولت على عدة من المراكب تحطيما وتكسيرا ، وظل المصريون بالميناء يومين كاملين ، ولم ينسحبوا منه الا بعد أن أنزلوا به كثيرا من أعمال التخريب هذا العمل الجرىء الذي ترتب عليه مصرع ثلاثة من القادة المسلمين ، صار يعتبر تحديا لقوة الصليبيين البحرية ، ووصف أحد المؤرخين هذا الحادث •• « بأن ما قام به هذا الاسطول من العمل لم يقم به أسطول اسلامي في سالف الدهر ، لا في حالة قوة الاسلام ولا ضعف كفر » (٣٠) •

وللهدنة التي تمت بين صلاح الدين وملك بيت المقدس سنة ١١٨٠ ، أهمية كبيرة في تأمين ساحل فلسطين ، اذ جعلت حدا لما قام به الاسطول المصري من عمليات بحرية ، اذ أقلع الاسطول المصري في

يونيه سنة ١١٨٠ حتى أصبح يواجه المدن الساحلية ، ثم ظهر تجاه بيروت غير انه لم يهاجمها : لأنها تعتبر من البلاد المحمية وفقا لشروط الهدنة ، ثم هاجم اخيرا جزيرة أرواد تجاه مدينة انطرطوس ، واستولى عليها ، ومن أرواد صار يضايق أنطرطوس ؛ حيث أشعل الحرائق في مبانيها (٣١) •

وأفاد صلاح الدين من سنوات الهدوء الناجمة عن الهدنة . فوجه اهتمامه الى تدعيم قواته البحرية ، فأمر باعادة عمارة القواعد البحرية في مصر ، فرتب المقاتلة على البرجين بدمياط ، وتقرر تخصيص خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر في السلسلة التي بين البرجين (٣٢) . وعمل تقدير برسم ما يحتاج اليه سور تنيس واعادته كما كان قديما (٣٣) ، واكمل بناء برج بالسويس يسع عشرين فارسا . ورتب فيه الفرسان (٣٤) وأرسل صلاح الدين قوة بحرية ، مؤلفة من عدة سفن الى اليمن لتأديب أحد الولاة الذين شقوا عصا الطاعة وأعلنوا تمردهم (٣٥) •

ثم قام صلاح الدين آخر الامر باصلاح اداري مالي خطير يتعلق بالبحرية ، فالمعروف حتى الآن أنه أبقى على النظام الذي كان معروفا عند الفاطميين ، الذي يقضي بان يقوم الخليفة بالانفاق على الاسطول (٣٦) • وفي حالة انتصار الحملة احتفظ الخليفة لنفسه بما أحرزه الاسطول من الأسرى والسلاح ، بينما وزع بقية الغنيمة على البحارة (رجال الاسطول) • فقرر صلاح الدين الاستغناء عن هذا النظام (٣٧) •

والواضح أن صلاح الدين لم يكن فحسب حاكما بل كان أيضا قائدا عاما فلا ينبغي ان يتحمل وحده عبء المشكلات الادارية المتعلقة بالأسطول • لذا أمر بانشاء ديوان خاص أسماه ديوان الاسطول ، سلمه لاخيه العادل أيوب ، فأقام في مباشرته ابن شكر (٣٨) • وعين

لهذا الديوان ما يرد من المال من جهات مختلفة من الفيوم بأعمالها والحبس الجيوشي والزكاة التي كانت تجبى بمصر والنظرون ، وابحار المراكب الديوانية (٠) وناحية أشناي وطنبدي فضلا عن الحراج (٠٠) في البهنساوية والاشمونيين والاخميمية والقوصية (٣٩) .

وحوالي نهاية سنة ١١٨٠ مات الامبراطور البيزنطي مانويل ، وتولى الحكم من بعده ابنه الكسيوس الثاني الذي أجرى محالفة رسمية مع صلاح الدين (٤٠) ، وبذلك صار صلاح الدين بمأمن من عدوين خطرين . الصليبيين والبيزنطيين . وهذا التطور السياسي الجديد كان له أهمية في وقف نشاط الاسطول البيزنطي ، واخراجه من دائرة النزاع على السيادة على المسالك المؤدية الى شواطىء شرق البحر المتوسط . على أن الهدنة مع الصليبيين لم تستمر طويلا ، ففي صيف سنة ١١٨١ أقلعت عشرة سفن صليبية من عسقلان فهاجمت تنيس ، واستولت على مركب للتجار ، وبذلك انتهك الصليبيون شروط الهدنة بحرا ، وفي نفس الوقت قام ريجنالد بعمل غادر بمهاجمة المسلمين ؟ (٤١) . على أن الاستحكامات الجديدة وسرعة قدوم السفن الحربية الاسلامية ، قضى على ما تعرض له هذا القطاع من الخطر ، وتحقق بذلك سلامة ما اتخذه صلاح الدين من اجراءات ، وانتقاما لما حدث أنفق السلطان في رجال الشواني وجردهم للغزو ، غير أننا لم نقف على نتائج هذه الغزوة (٤٢) .

---

(٠) وهي المراكب الداخلة في باب المعاملات الديوانية والمعروفة بالمراكب الملاحية . ويضمنها الرؤساء لمدة معلومة بأجرة معينة ومنها خمسة نيلية يجب عنها نصف الضمان . وهذه المراكب تقوم بحمل الغلال فى النيل من اعلى الصعيد الى الوجه البحري .

(٠٠) الحراج اشجار من سنط . لا يقطع منها الا ما تدعو الحاجة اليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة الواحد منها مائة دينار .

وفي السنة التالية حدث تغيير كبير فيما قام به الاسطول المصري من عمليات ، اذ قرر صلاح الدين في سنة ١١٨٢ أن يشرك أسطوله مع القوات البرية في مهاجمة بيروت •

ولا شك أن الاستيلاء على هذا الحصن كان لـه أهمية كبيرة ، فالى جانب ما يترتب على ذلك من انتقاص أملاك الصليبيين بالساحل . فان الاستيلاء على بيروت يعتبر أمرا بالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية البحرية ، اذ سوف يكون للاسطول المصري قاعدة ضخمة في شرق البحر المتوسط • فيتسع بذلك نطاق أعمال السفن المصرية ، التي سوف تعتمد على قاعدة بيروت فيما تحصل عليه من مؤن وذلك بدلا من أن تعود الى مصر للتزود منها ، فتقرر أن تبحر ثلاثون سفينة الى هذا الحصن ، بيروت ، والقيام بمهاجمته ، غير أنه يبدو أن ما دأب عليه الأسطول المصري من القيام برحلات منتظمة ، الى الساحل السوري ، زاد في قوة دفاع الصليبيين ، اذ لم يستطع ان ينزل الجنود الى البر ، وكل ما قام به انه خرب ارباض بيروت (٤٣) •

ولما حدث في أغسطس سنة ١١٨٢ أن ألقى صلاح الدين الحصار على بيروت ، تولى الأسطول مراقبة المنافذ البحرية المؤدية الى الميناء ، ومنع دخول الامدادات من جهة البحر •

على أن هذه الجهود لم تؤد الى النتيجة المطلوبة ، اذ ظهر فجأة ٢٣ سفينة مسيحية ، فانسحب الأسطول المصري دون أن يخوض معركة ، وعندئذ أمر صلاح الدين برفع الحصار عن بيروت ، ورجع الى دمشق •

ويرجع الفشل الى أسباب عديدة منها الافتقار الى ضبط توقيت العمل الذي تشترك فيه القوات البرية والقوات البحرية • فلو اشتركت القوتان سويا في وقت واحد في الهجوم ، لكان العمل مجديا • اذ أن

الأسطول بادر بالعمل قبل قدوم قوات صلاح الدين ، ولا شك في أن انسحاب صلاح الدين من بيروت يرجع أساسا الى فشل الاسطول في الاشتراك في العمل •

وعلى الرغم من هذا الفشل ، فإن المسلمين أحرزوا انتصارا باهرا في هذه المنطقة وفي نفس السنة • بينما كان صلاح الدين يحاصر بيروت ، تلقى من الأنباء ما يشير الى أن سفينة ضخمة من سفن الشحن المسيحية قادمة من أبوليا ، جنحت تجاه دمياط ، ووقع في أيدي المسلمين نحو ١٧٠٠ أسير ، فمنعوهم بذلك من أن يكونوا مددا للصليبيين (٤٤) ، وأوقف المصريون سفينة امتلأت بالمهاجرين البنادقة القادمين من القسطنطينية فرارا من الثورات المعادية للاتين في مارس سنة ١١٨٢ (٤٥) •

وبينما تعرضت سواحل الشام للضغط المتزايد من قبل قوات البحرية المصرية ، كان البحر الأحمر ميدانا لعملية بحرية قام بها الصليبيون • وهذه الخطة انما دبرها ريجنالد شاتيون صاحب حصن الكرك والشوبك (٤٦) ، فبعد أن قطع طرق الاتصال بين مصر والشام برا عزم على ان يطعن مصر في الصميم بأن يقوم بمهاجمة تجارة البحر الأحمر ، وأن يصل الى مكة قلب العالم الاسلامي (٤٧) • وأصاب الصليبيون قدرا من النجاح أول الامر ، ففي يناير سنة ١١٨٣ أنزلوا أسطولا قرب أيلة ، وتركوا سفينتين بهذا الموضع لحصار هذا الحصن ، وتوجهوا بالسفن الباقية صوب الجنوب ، فدمروا ما لا يقل عن ١٦ سفينة ، واستولوا على سفينتين ، غير أن الصليبيين عند تدبير خطتهم ، أغفلوا عاملين هامين يرتبطان بالنظام البحري في مصر • العامل الأول : ان السفن المصرية لم تكن عند شروع الصليبيين في الهجوم غائبة فيما تقوم به من دوريات منتظمة ، بل كانت مرابطة في قواعدها الشتوية :

والعامل الثاني أنه كان لمصر أسطول خاص ، هدفه الاساسي المحافظة على مراعاة سلامة البلاد • ولذا ما كادت تصل القاهرة الاخبار عن تقدم الصليبيين . حتى بادرت السفن بقيادة حسام الدين لؤلؤ بالمسير الى مكان النزاع ، فقامت بتدمير السفينتين المرابطتين تجاه أيلة . ثم طاردت الأسطول الصليبي عند عيذاب، حتى استطاعت ان تدمره وتحصل على عدد كبير من الاسرى وقدر كبير من الغنيمة (٤٨) •

وأحرز المسلمون نجاحا باهرا أيضا بفضل ما أقاموه من حصار السواحل السورية ، اذ ان الاسطول المصري عاد من بحر الروم ١١٨٣ (٥٧٩) بعد ان ظفر ببطشه (سفينة نقل كبيرة) بها ثلاثمائة وخمسة وسبعون من الفرسان بسلاحهم ، وتجار امتلأت جيوبهم بالمال • وفي نفس السنة ظفر ببطشه من الفرنج كانت تريد عكا بها أخشاب ونيف وسبعون رجلا من صناع السفن • ومن الطبيعي أن أحواض السفن المصرية أفادت من الرجال والأخشاب (٥٠) •

وما حدث من النشاط البحري في السنوات التالية من ١١٨٤ الى ١١٨٦ لم يخرج عن قيام السفن برحلاتها الاعتيادية لمراقبة السفن الصليبية ومهاجمة القوافل الحربية ، وقطع خطوط المواصلات الصليبيه بحرا ، مما زاد في مخاوف الصليبيين ورعبهم • ومن الملحوظ أن النشاط التجاري مع الاوروبيين لم يتوقف بل صارت تتردد على الاسكندرية السفن التجارية المسيحية (٥١) •

ونهضت البحرية المصرية من جديد في سنة ١١٨٧ ، وفي ذلك الحين تغير الوضع السياسي والحربي في سوريا تغيرا تاما عما كان عليه حين تولى صلاح الدين الحكم • ففي سنة ١١٨٧ دمر صلاح الدين جيش الصليبيين في معركة حطين الشهيرة ، وترتب على هذا النصر الكبير أن استولى على معظم سوريا وكل فلسطين تقريبا • وفي

أثناء عملياته الحربية كان الاسطول يجرس المسالك المؤدية الى فلسطين ، ومن أهم النتائج التي ترتبت على ذلك الاستيلاء على عكا ؛ فتيسر للبحرية المصرية أن تمد نشاطها ، فرابطت قوة بحرية مؤلفة من عشرة سفن في عكا وتوجهت ١٥ سفينة الى الاسكندرية ثم الى صور (٥٢) .

على أنه بقي في يد الصليبيين حصن من أقوى الحصون ، أقلق بال صلاح الدين ، وهذا الحصن هومدينة صور المنيعة الواقعة على الساحل ، والتي تزايد عدد سكانها بفضل كثرة من لجأ اليها من المهاجرين القادمين من مختلف الجهات والاماكن التي سقطت في يد صلاح الدين ، وأحس صلاح الدين باشتداد خطر الصليبيين الذين هرعوا اليها من داخل سوريا ومن الأوروبيين الذين جاءوا عبر البحر (٥٣) ، فعزم على أن يؤمن جناحه ، فألقى الحصار على صور ، وأمر أسطوله بعكا أن يتحرك لحصار صور على الرغم من حلول فصل الشتاء (*) (٥٤) .

ولما تلا من التطورات اهمية خطيرة ، اذ صار صلاح الدين يضيق الخناق على أهم القواعد البحرية عند الصليبيين . فاذا سقطت هذه المدينة ، صور ، فليس ثمة في هذه المنطقة مدينة أخرى — سوى طرابلس — تلجأ اليها الأساطيل الصليبية وتحصل منها على حاجتها من المئونة . وأدرك الصليبيون حرج مركزهم . اذ حاصرهم من جهة البر القوات الاسلامية المظفرة ، كما ان حلول فصل الشتاء جعل قدوم نجدة من جهة البحر أمرا مستحيلا ، واذ أغلق الاسطول المصري المنفذ المؤدي الى الميناء ، فليس أمام الصليبيين فرصة الا الجلاء عن صور ، أو الحصول على امدادات من القواعد الاخرى على الساحل السوري، والتي ما زالت بأيدي الصليبيين .

وفي ضوء هذه الاعتبارات ؛ صار للعمل المكلف بـه الاسطول المصري أهمية خاصة ، فمن واجبه أن يحاصر الميناء ، وأن يحول دون قدوم مساعدة بحرية للصليبيين في صـور • ولم يكن فـي استطاعة الحامية بسبب هذه الاحوال أن تصمد طويلا ، ومع ذلك فان الأقدار جاءت بما لم يكن في الحسبان . وذلـك أن خمس قطع مـن شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي مقابل ميناء صور . ليمنعوا مـن الخروج منه والدخول اليه ، فباتوا ليلتهم يحرسون ، فلما كـان وقت السحر أمنوا فناموا . فما شعروا الا بشواني الصليبيين قـد نازلتهم وضايقتهم ، فأوقعت بهم ، فقتلـوا من أرادوا قتله وأخذوا البـاقين بمراكبهم ، وأدخلوهم ميناء صور • والمسلمون في البر ينظرون اليهم• وتقدم صلاح الدين الى السفن الباقية بالتوجه الى بيروت التي سقطت حديثا في يد المسلمين • لعدم انتفاعه بها لقلتها (٥٥) ؛ وبذلك تم فتح الطريق الى ميناء صور ؛ وغادرت الميناءبعض السفن الصليبية التـي كانت وقتذاك محتمية بها ؛ وتشير المصادر الى ما قام به بحارة السفن الباقية من التخلي عنها . انما يدل على الجهل بواجبهم والتجرد مـن المهارة والخبرة • وعلى الرغم من استخدام البحارة المغاربة ، فان بحرية صلاح الدين عانت أضرارا خطيرة بسبب قلة البحارة •

ولم تلبث أن ظهرت النتائج المباشرة لكارثة صور ، فالقوات البرية أضعف روحها المعنوية ما حل من هزيمة بحرية، فاشتدت في ضغطهـا على صلاح الدين ، فأمر برفع الحصار والانسحاب من مواقعه (٥٦) ، ولم يشترك الاسطول في مساعدة صلاح الدين فيما قام به من الفتوح على امتداد الساحل السوري ، وتجرأت السفن الصليبية على المضـي

---

(٠) المعروف ان فصل الملاحة في البحر المتوسط يمتد من ابريل الى اكتوبر . (انظر ابن مماتي ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ابن الاثير ١١ : ٣٦٧ المقريزي : السلوك ١ : ٩٧) .

الى ميناء صور والتزود بالمؤن (٥٧) •

وترتب على هجمات صلاح الدين على الساحل السوري ، أن استولى على كل القواعد البحرية ، ما عدا صور وطرابلس ، وعلى الرغم من أن امتلاك قواعد بحرية عديدة أتاح الفرصة لنمو القوة البحرية المصرية ، أو على الاقل كفل الامن البحري لمصر ، فان رجال صلاح الدين ساورتهم المخاوف ، اذ ارتفعت الاصوات تنصحه بتدمير أسوار عكا التي تعتبر أهم قاعدة بحرية ، لاعتقادهم بأنها سوف تكون هدفا لحملة صليبية جديدة (٥٨) فاذا استولى عليها الصليبيون صارت عظيمة الفائدة لهم . فيما يقومون به من هجمات على مصر ، غير أن صلاح الدين رفض الاستماع اليهم ، وأمر بتجديد استحكامات المدينة واقامة سور جديد حولها • ولا نستطيع أن نقر صلاح الدين على رأيه أو ننكر عليه ما اتخذه من قرار ، فالواقع أن صلاح الدين أحرز حتى هذا الحين انتصارا باهرا في رد الغزوات البحرية الموجهة الى دمياط والاسكندرية . وعلى الرغم مما فقده من السفن في مياه صور ، فما زال لديه أسطول قوي في المياه المصرية ،ومهما يكن من الامر ، فان النتائج الخطيرة الناجمة عن قرار صلاح الدين بشأن مصير عكا ، لم تكن راجعة الى مبالغته في تقدير الاسطول المصري او الى حطه من شأن قوة الاوروبيين • اذ أن الصليبيين خرجوا في حملة جديدة ــ وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة ــ فاقت مساعدتها البحرية كل ما جرى القول به أو السماع عنه في أمر الحرب في تلك الازمنة • ولم يلبث صلاح الدين أن أدرك ما كان يساور قادته من المخاوف ، لان الصليبيين اختاروا عكا فعلا هدفا لعملياتهم البحرية والحربية ، فأخذوا يلقون بكل ما لديهم من قوة لمهاجمة المدينة •

صارت عكا في السنوات الحرجة ١١٨٩ ــ ١١٩١ مركز العمليات

الحربية ، اذ كان بعكا حامية عسكرية قوية ، وجرى تجديد آسوارها . غير آنه حاصرها من جهة البر جيش من الصليبيين الذين قدموا اليها من صور ، ومن الفرسان الاوروبيين الذين جاءوا بحرا ، ومن الناحية البحرية تعرضت عكا لخطر الاساطيل الاوروبية ، التي قصرت مهمتها على مراقبة المنافذ المؤدية الى الميناء ، واعداد القوى البرية بالمؤن الضرورية ، واعتمدت في ذلك على صور وطرابلس . وفي مستهل حصار عكا اجتمع ما لا يقل عن ٥٥٢ سفينة ، منها خمسمائة سفينة سكنديناوية ، ٥٢ سفينة من بيزا ، وسفينتان من جنوه ، وسفينة من البندقية ، وهذا العدد الضخم يفوق كثيرا كل ما لدى صلاح الدين من قوة بحرية (٥٩) .

على أن صلاح الدين عمل على تطويق القوة الصليبية التي حاصرت عكا من جهة البر ، وذلك بالضغط عليها من داخل المدينة ومن خارجها . واذا ركز اهتمامه في حشد القوات وانفاذ المؤنة الى داخل عكا . وفي خريف سنة ١١٨٩ (٦٠) نجح صلاح الدين في جعل الاتصال بالحامية مستمرا وأنفذ الى المدينة المؤن عن طريق البحر ، وأمر سفنه باختراق الحصار البحري الذي فرضه الصليبيون ، ومن الموانيء المصرية ، ومن بيروت توجهت السفن المصريةالى عكا ، وربما أفادت من حيفا في أثناء مسيرها . وبذلت السفن المرابطة في بيروت جهودا رائعة في قطع سبيل المراكب الصليبية بين طرابلس وصور . وأول أسطول مصري قدم لمساعدة عكا تألف من ٥٠ سفينة بقيادة حسام الدين لؤلؤ. وذلك في ٢٥ ديسمبر سنة ١١٨٩ ؛ ولم يستطع المصريون فحسب من اختراق الحصار الصليبي بل نجحوا أيضا في الاستيلاء على سفينتين من سفن العدو (٦١) ، وبلغت القافلة الثانية عكا في يونيه سنة ١١٩٠ بعد أن اشتبكت في قتال مرير مع الاسطول الصليبي (٦٢) . ولجأ صلاح الدين الى كلالوسائل للابقاء على الاتصال بعكا ، ومد الجند

المدافعين عنها بالمؤن ، فصارت تتقدم السفن الخفيفة (البراكيش) من حيفا ، غير أن ما جرى من ركود نشاط سفنه الكبيرة هيأ الفرصة لاساطيل الصليبيين لان ترتاد البحر دون أن تخشى خطرا من قبل المسلمين • وأدرك صلاح الدين أهمية استخدام القوة البحرية في انقاذ عكا ، وترتب على ذلك أنه حاول توطيد علاقته بدولة الموحدين بشمال افريقية ، ففي أكتوبر سنة ١١٩٠ أرسل سفارة الى يعقوب بن منصور يطلب منه النهوض بمساعدته بأسطوله ضد الصليبيين ، وهذا الاسطول يبلغ ٤٠٠ سفينة غير أنه لم يتلق مساعدة من هذا الامير (٦٣) •

وازداد الموقف حرجا سنة ١١٩١ ، لا سيما بعد أن صار للصليبيين قاعدة بحرية جديدة باستيلائهم على جزيرة قبرص (٦٤) ، فاشتد حصار الصليبيين حتى ان صلاح الدين لم يستطع المحافظة على اتصاله بالحامية داخل عكا الا باستخدام الحمام الزاجل والعوامين (٦٥) • وعلى الرغم مما بذله الجند في بيروت من جهود ضخمة في مهاجمة السفن الصليبية وما ترتب على ذلك من اغراق خمس سفن من أسطول رتشرد قلب الاسد . فان السفن المصرية الكبيرة لم تستطع اختراق الحصار (٦٦) • وعلى الرغم من حشد قوات صلاح الدين البرية فان حامية عكا أعلنت الاستسلام في يونيه سنة ١١٩١ ، ولم تستطع السفن الباقية أن تعرقل حركات سفن الصليبيين وتمنع مساعدتها لرتشرد في المرحلة الختامية في الحملة الصليبية الثالثة (٦٧) • وتتبين أهمية البحرية في الحرب ضد الصليبيين فيما أصر عليه صلاح الدين من تدمير مدينة عسقلان عند اجراء المفاوضات بينه وبين رتشرد • وبهذا الاجراء حرم الصليبيين من قاعدة يصح أن يستغلوها في مهاجمة مصر مثلما فعلوا بعد سقوطها في ايديهم من قبل ، سنة ١١٣ ،فاحتفظ صلاح الدين بمفتاح المسالك الشرقية المؤدية الى مصر •

وقام صلاح الدين ، عقب الهدنة بزيارة بيروت ، وقرر المضي في التفتيش على المنشآت البحرية السورية ، لولا أن منعه من ذلك ما انصرف الى معالجته من امور ادارية •

ويعتبر صلاح الدين آخر حاكم في العصور الوسطى أدرك أن سلامة مصر وما يقترن بها من الرخاء يعتمد الى حد كبير على قوتها البحرية ، وما حدث من اهمال أخلافه من الايوبيين والمماليك للامور البحرية جعل مصر عاجزة في أواخر العصر المملوكي عن مقاومة ضغط البرتغاليين الذين كان ظهورهم في البحر العربي يعتبر ضربة خطيرة اصابت تجارة مصر ومركزها البحري والسياسي •

وأشار المقريزي الى ما أصاب البحرية المصرية من الضعف بعد صلاح الدين حين قال : « ثم قل الاهتمام بالاسطول ، وصار لا يفكر في أمره الا عند الحاجة اليه (٦٨) ، فاذا دعت الضرورة الى تجهيزه ، طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا بالسلاسل نهارا ، وسجنوا في الليل ، حتى لا يهربوا • ولا يصرف لهم الا شيء قليل من الخبز ونحوه وربما أقاموا الايام بغير شيء ، كما فعل بالاسرى من العدو • فصارت خدمة الاسطول عارا . يسب به الرجل في مصر ، واذا قيل لرجل يا أسطولي ، غضب غضبا شديدا ، بعدما كان خدام اسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ، ويتبرك بدعائهم الناس »

الفصل الثالث عشر

الاحوال الاقتصادية

الزراعة والنظام المالي

ترتب على اعتماد أرض مصر على مياه الفيضان ، أن جرى اقامة الحياض لحجز المياه فترة من الزمن ، حتى يرسب ما تحمله من الغربيين الذي يفيد في خصوبة الارض ، ثم تصرف المياه عنها ، ثم تبذر الارض بالحبوب، حتى اذا نضج المحصول . وجرى حصاده ، بقيت الارض بورا . حتى يحين الموسم التالي للفيضان . وما حدث من استغلال الارض مرة واحدة في السنة . أدى الى أن تطلق الاصناف الشتوية على ما ينتج من المحصولات مثل : القمح ، والشعير ، والفول ، والحمص ، والجلبان . والعدس . والكتان . والقرط . والبصل والثوم ، والترمس، والكمون ، والكراوية والسلجم . وما ينتج من المحصولات الصيفية انما يرجع الى الري الدائم ، ومن أشهرها قصب السكر ، والبطيخ ، واللوبيا ، والسمسم والقطن . والباذنجان . والفجل والخس ، واللفت والكرنب . وانتشرت أيضا زراعة الكروم والنخيل والفاكهة . وفي الفيوم حيث توافرت مياه الري ، جرت زراعة الارز ، وانتشرت زراعة الذرة بالوجه القبلي .

وفي الاراضي الدائمة الري ، كانت الارض تغل ثلاثة محصولات في السنة . واستخدم المصريون السنة الشمسية في كل ما يتعلق بالزراعة والخراج ، وتبدأ السنة الزراعية في شهر توت .وأورد المقريزي وابن مماتي ، جداول تبين التواريخ الملائمة لزراعة الاصناف المختلفة من المحصولات وأوقات ادراكها ، ومقدار ما يحتاج اليه الفدان من

البذور ، ومتوسط ما ينتجه الفدان من المحصول . وما هو مقرر على كل صنف من الضرائب .

واذا جرى ادراك المحصولات فـي شهور مختلفة وفقا للسنـة الشمسية وتقرر دفع الضرائب وفقا للسنة القمرية (الهلالية) ، تحتم اسقاط سنة كلما انقضت ٣٣ سنة. أي أن ٣٢ سنة شمسية تقابل ٣٣ سنة هلالية وهذا الفرق هو المعروف بتفاوت السنة .

وانقسمت الارض الى فئات مختلفة : فمنها مـا اشتهرت بجودة تربتها وسهولة ريها : كالتي تصلح لزراعة القمح والكتان ، وتعتبر أعلى الارض قيمة وأوفرها سعرا وقطيعة . وما يلي هذا النوع من الاراضي نوع يصلح لزراعة القمح والكتان . بعد أن يجري بها قدر من الاصلاح وتتوافر مياه الري ، كأن تزرع بها بعض المحصولات التي تـزيد من خصوبة الارض . ويصير ريها ثم تركها مدة دون زراعة . ومن الاراضي ما لا تصلح فيها الزراعة الا بعد تنقيتها مما علق بها من الاوساخ . وفي الاراضي التي لا تصل اليها المـاء في يسر وسهولة : يصـير تركيب السواقي اللازمة لرفع الماء اليها (١) .

والفدان وحدة الارض الزراعية ومساحته ٤٠٠ قصبة ، ويجري تقدير المحصول بالارادب : على أن الارادب كانت مختلفة الانـواع : والاوزان وحدتها القنطار .

والمعروف أن الوجه القبلي أكثر خراجه غلال من قمح وشعـير وحمص وفول وعدس وبسلة وجلبان ، ويعبر في عرف الدواويـن عما عدا القمح والشعير والحمص بالحبوب . أما الوجه البحري فغـالب خراج بلاده دراهم ، وليس فيه من خراج بلاده غلة الا القليل .

ويجري تقدير مساحات الاراضي اللازمة لزراعـة المحصولات

المختلفة ، وتوزيع التقاوي المطلوبة ، والاشراف على الزراعة ، والري والحصاد وجمع المحصول ، واستخلاص ما هو مقرر على هذه الاراضي من الحقوق (٢) •

وللوقوف على نظام الفلاحة في مصر ينبغي أن نعلم بأنه منذ أن فتح المسلمون مصر ، لم تكن الحكومة تتصل مباشرة بالفلاحين الذين يدفعون الضرائب • فكانت الحكومة تقوم في وقت معين بتوزيع الاراضي على من يبدي الاستعداد لاستغلالها مقابل خراج مقرر لمدة اربع سنوات • وظلت الامور جارية على هذا النحو في الدولة الفاطمية ، فصارت الارض تبذل لمن شاء من الامراء والاجناد والاعيان، وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم ، على أن يؤدوا ما هو مقرر عليها من الخراج لبيت المال • أما الفلاحون فارتبطوا بالارض لا يبرحونها الا باذن خاص •

ويشير ابن مماتي الى ثلاث فئات من جباة الضرائب :

اما أن يكون ولي وظيفته بالامانة ، أي أنه بلغ من الثقة فيه ، وصار من الامانة ، ما يقضي بأن يؤدي ما هو مطلوب من الخراج دون ضمان •

واما ان يكون ولي ببذل ، كان يقول اذا استخدمت في تولي الديوان الفلاني ، وارتفاعه مائة الف دينار ، فيتعهد بأن يؤدي ما يزيد على ما هو مقرر ، أي أنه اعتبر أن ما أداه من سبقه في هذه الوظيفة هو الحد الادنى من الضرائب •

واما أن يكون ولي بضمان ، وهو أن يلتزم بأن يدفع مبلغا معينا من المال ، فينبغي عليه أن يؤديه • والنوع الاخير هو الشائع ، ويشبه

ما كان معروفا من بذل القطائع للافراد بالتزايد على مبلغ معين من المال يعتبر ايجارا أو خراجا ، وهو في الواقع ضمان أو تقبل ، والمعروف اصطلاحا باسم اقطاع وهذه القطائع اشتملت اصلا على ضياع الحكومة وأرض الموات ، غير أنه بمضي الزمن ، ازدادت مساحة الضياع بما أضيف اليها من الاراضي الخصيبة • على أنه ليس من الثابت أن القطائع انفصلت عن ادارة الضرائب الاخرى • ولم يكن ثمة فرق كبير بين متولي الديوان وبين الافراد الذين يدفعون الضرائب على الاراضي التي يستأجرونها من الحكومة •

ثم صارت الارض كلها اقطاعات ، واتخذ الاقطاع صفة الاقطاع الحربى : فصارت ارض مصر تقطع للسلطان وامرائه واجناده والواقع أنه ساد في مصر زمن صلاح الدين وخلفائه نوعان من الاقطاع: الاقطاع الاداري الذي اختص به الامراء من الاسرة المالكة وكبار الامراء والموظفين ، وتتفق هذه الاقطاعات عادة مع وحدة اقليمية ادارية ؛ أما النوع الثاني فهو الاقطاع الحربي الذي لا يختلف في أصوله وقواعده ومظاهره عن الاقطاعات المعروفة عند السلاجقة ، اذ اقترن بما يؤديه المقطع من خدمات حربية ، وخضع لسيطرة الحكومة المركزية ، ولم يكن وراثيا • ومن النادر أن يبذل مدى الحياة • واهتمت الادارة الايوبية بتسجيل ما يقدمه المقطع من الفرسان •

وفي خدمة متولي الديوان موظفون عديدون ، منهم المستوفي ، ومهمته أن يطالب المستخدمين بما يجب عليهم رفعه من الحساب في أوقاته وينبه متولي الديوان على ما يجب استخراجه من المال في مواعيده ، ويقيم الجرايد (السجلات) ، ويقابل بكل ما يرد عليه من حساب ويستوفيه ، ويعمل المطالبات ، ومن تحت يده المعين • ومن الموظفين أيضا العامل ، الذي يقوم بعمل الحسابات ورفعها ، واعتماد

ما يرفعه غيره من الاعمال • اما الجهبذ فيتولى استخراج الاموال وصرف الوصولات عنها • ويقوم بمساحة الارض الماسح ، والدليل ، فيجريان المساحةوسجلات التحضير ، واصناف المحصولات واسماء المزارعين،وما على الارض من الحقوق • ويتولى الحايز الاشراف علـى الاجران ، فيختم عليها كل ليلة . ويمنع المزارعين من التصرف فيها • أما الحاشر فهو المكلف بما يتعلق بأهل الذمة من المقيمين في جهته أو المستجدين بها أو المعفون من أداء الجزية (٣) •

ويؤدي الفلاحون الى جانب ما هو مقرر على الارض من القطائع، ضرائب للانفاق منها على الاقطاع أو بعض الوظائف • فالرسم المعروف بشد الاحباس يقصد به ما يصرف الى المشد على الاحباس والاوقات •
وشد المعين ما يؤدي الى المشرف على جباية خراج العين ، ورسم الجراريف ، ما ينفق منه على اصلاح جسور القنوات • ومنها رسم الاجران والحصاد والخفاوة والكيالة والمراعي •

يضاف الى الخراج المستمد من الزراعة ، انواع اخرى ، كالخراج الذي يجري تحصيله من المعادن مثـل الزمـرد والشب والنطـرون • فيستخرج الزمرد من موضع بقرب قوص ، وما يتحصل منه يحمـل الى الخزائن السلطانية التي تتولى التصرف فيه (٤) ، اما الشب فهو حجر يجري استعماله في الصباغة ، ويحرص التجار الاجانب على الحصول عليه ، ولذا يتولى الديوان السلطان امر استخراجه من مواضع بصحراء الصعيد ، وليس لاحد ان يشتريه او يبيعه سوى الديوان (٥) • فاذا حدث ان وجد منه شيء عند احد من الناس ، تقررت مصادرته • ويشرف الديوان ايضا على استخراج النطرون من الطرانة والفاقوسية ، ويلتزم الضمناء بتسلمه من مواضعه وتسليمه الى الديوان ، وهو الذي يتصرف فيه • وللنطرون اهمية عند المبيضين (٦) •

والنوع الثالث من الاموال يشمل الزكاة • ويعتبر صلاح الدين اول من جباها ، ويشير القاضي الفاضل في حوادث سنة ٥٦٧ هـ انـه جرى توزيع الزكاة في الوجوه المقررة في الشريعة ؛ غير ان بيت المـال اختص بسهام العاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله وفي الرقاب وجرى تحصيلها من الاموال والبضائع.، ومما تقرر منها على المواشـي والنخل والخضروات ، وأنشأ صلاح الدين ديوانا للزكاة بالقاهرة (٧) •

اما الجوالى فهي ما يؤخذ من اهل الذمة من الجزيه ، ويتولى جمعها منهم في العاصمة موظف خاص ، اما خارج العاصمـة ، فان جزيـة اهل الذمة في كل بلد اختص بها مقطع ذلك البلد • وجرت العـادة باستخراجها في مستهل محرم من كل سنة ، ويضاف الى كل جزيـة درهمان وربع ، تجبى على انها رسم للقائمين بجمعها (٨) •

اما النوع الخامس من الاموال فيشمل ما يؤخذ من التجار الاجانب القادمين الى مصر • ويرد هؤلاء التجار الى ثغر الاسكندرية وثغـر دميـاط ، حيث تأتي مراكب الفرنج والروم بالبضائع • فتبيع فيهما او تشتري منهما ما تحتاج اليه من البضائع • وتقرر الحال على ان يؤخذ منهم الخمس عن كل ما يصل لهم في كل مرة • وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس • على ان هذا الخمس انما يؤديه كل قادم بالتجارة مرة واحدة في السنة (٩) •

ومن الموارد الماليـة ايضا ، ما هو معروف بالمواريث الحشرية ، وهي اموال من يموت وليس له وارث • فيحمل متحصلها الى بيـت المال ، وكذا ما يتحصل من الرسوم من دار الضرب ، عما يضرب فيها من الذهب والفضة (١٠) •

اما المكوس وهي التي تؤلف ايضا جانبا كبيرا من الموارد المالية،

فهي نوعان : النوع الاول ما يختص بالديوان السلطاني ويشتمل على ما يأتـــي :

اولا ــ ما يؤخذ من الرسوم على البضائع التي يجلبها التجـــار الكارمية في البحر الاحمر ، من جهة الحجاز واليمن وما والاهما . ويجرى تحصيلها في اربعه مواضع : عيذاب وهي اكثر الموانى نشاطا ، لرغبة رؤساء السفن في العبور من جده اليها . ومن عيذاب يتم نقل البضائع الى قوص ، ومن قوص تحمل البضائع عن طريق النيل الى فندق الكارم بالفسطاط (١١) . اما الموضع الثاني فهو القصير ، وترددت اليه بعض السفن لقربه من قوص ، وبعد عيذاب منهـــا . ويجري حمل البضائع الى قوص ، ثم الى فندق الكارم بالفسطـــاط ، على ان القصير لم تكن في نشاط عيذاب . ويضاف الى هذين الموضعـــين الطـــور والسويس ، غير انهما لم تكونا في اهمية الموضعين الاخرين في زمن الايوبيين بسبب تعرضهما لاخطار الصليبيين (١٢) .

اما المكوس التي يجري تحصيلها بالفسطاط والقاهرة ، فانهـــا بلغت من الكثرة انها صارت تؤخذ من اثنين وسبعين جهة ، وتتفاوت في كثرة وقلة ما يحصل منها . وبعضها يتولاه ضمان بمقدار معين لكل جهة فيطالب الضامن بما هو مقدر على هذه الجهة ، فاذا زاد ما حصله على ماهو مقرر كان من نصيبه . وان نقص فعليه ان يكمل النقص (١٣) . واورد المقريزي نحو ٨٦ جهة من الجهات التي تقررت عليها المكوس . وازداد سخط الناس وتذمرهم لزيادتها عن الحد . ورفع صلاح الدين هذه المكوس برغم ما كان يتحصل منها كل سنة من الاموال التي بلغت نحو ١٠٠ الف دينار (١٤) .

اما النوع الثاني من المكوس ، فلا يتعلق بالديوان السلطاني ، انما

يرتبط بالاقطاعات . وما يجري تحصيلها منها يشمل الى صاحب الافطاع فاذا كان الاقطاع تابعاًالديوان من الدواوين السلطانية ، فيكون متحصله لذلك الديوان . واذا كان لاحد الامراء فتحصله لصاحب الاقطاع . وهذه المكوس هي المعروفة بالهلال (١٥) .

فما يتعلق من المكوس بالدواوين السلطانية يشمل المتجر بالاسكندرية ـ والمقصود به ما يجري شراؤه للديوان من بضائع التجار الواردين . مما تدعو اليه الحاجة ، وتقتضيه المصلحة فان راد ثمن المبتاع من التاجر شيئا ، عما هو مستحق عليه من الخمس ، استكمل ذلك بان يحصل على مقدار من الشب بحق الثلثين . وعلى ذهب بحق الثلث . والمعروف ان ثمن الشب تحدد طبقا لقاعدة اصبحت مستقرة (١٦) .

ويتقاضى الديوان ايضا رسوما على ما تجرى صناعته في دار الطراز ، وكذا اثمان ما تبيعه دار العيار من الموازين والمكاييل والسنج. ومن المعاملات السلطانية ايضا ما هو معروف بالحبس الجيوشي ، وهو عبارة عن نواحي حبسها امير الجيوش الفاطمي على عقبة حينما كان وزيرا ، ثم افتى الفقهاء بان الحبس باطل ، فصار ما يتحصل من اموالها يحمل الى بيت المال (١٧) .

اما الرباع التي جرى انشاؤها من مال الديوان السلطاني قديما ، فان اكثرها خرج بالوقوف على سور القاهرة والخانقاه والبيمارستان والبيع والاديرة ، ولم يبق بعد ذلك مايرغب فيه ، ولم يتحصل منه الا النذر اليسير ، وما جرى تحصيله انفق معظمه على عمارة ما تعرض منها للخراب .

والاحكار عبارة عن الاجرة المتحصلة عن مساحات من الاراضي، منها ما عمر مساكن ، ومنها ما انشيء بساتين ، واقتضت الاحوال ان

تظل بايدي اربابها بعد انقضاء مدة اجارتها ، فتقرر عليهم دفع اجـرة مقابـل ذلك (١٨) .

ومن قبيل الاحكار الغروس ، وهي المواضع التي تقع بالاقطاعات ولا يصل اليها الماء ، واراد اشخاص ان يتقبلوها (يستأجروها) ، مقابل أجر معلوم عن كل فدان (١٩) .

وجرت العادة بان يتقرر تحصيل مبلغ من المال على الجهات التي توافر بها شجر السنط ، مقابل ما يؤخذ من اطراف الاخشاب لاستخدامه في الوقود (٢٠) .

وما يجري تربيته من الجاموس والبقر والاغنام ، يدفع اربابها مبالغ معينة مقابل استهلاكها للمراعي وجرت العادة ان يندب للمراعي مشد وشهود وكاتب لاستخراج ما هو مقرر عليها من الرسوم (٢١) .

ومن الضرائب المستقرةمايجري تحصيله برسم اجرة الصناع الذين يعملون في خزائن السلاح (٢٢) . يضاف الى ذلك ما يرد الى الديوان من الاموال المتعلقة بإرباب الاقطاعات ، كالتفاوت ، اي الفروق الناتجة عن تغيير وضع الجندي ، بانتقاله من الجامكية (الراتب) الى الاقطاع، ومثل الفواضل وهي ما تبقى من العبرة بعد الاقطاع ، اي الفرق بـين المقرر لجماعة من الجند ، وقيمة الاقطاع المبذول لهم . اما المتوفـر في الديوان فالمقصود به ما توافر من مال الجندي عند وفاته ولم يكن له من يرثه . **وما يخصم من راتب الجندي بسبب غيابه بغير اذن مدة** شهرين يرد الى الديوان (٢٣) .

ويحصل الديوان ايضا ربع اثمان ما يرد الى ساحل مصر مـن السفن التي تحمل اخشاب السنط ، وعلى اجور على السفن التابعـة له ، والتي يضمنها الرؤساء لمدة معلومة (٢٤) .

ومما لا غنى لاراضي مصر عنه الجسور ، وهي على نوعين :
الجسور السلطانية التي يعم نفعها سائر البلاد بما يترتب عليها من حفظ النيل ، وتتولى الحكومة القيام بذلك ، وقد قررت ضرائب برسم هذه الجسور على اقليمي الشرقية والغربية ، اما النوع الثاني من الجسور . فاختص المقطعون والفلاحون باقامته (٢٥) .

واهتم الايوبيون بتوفير مياه الري . فحفروا عددا كبيرا من الترع والمصارف . ووضعوا من الترتيب ما يكفل وصول مياه الري الى مساحات شاسعة من الاراضي . وعهد صلاح الدين الى الامير قراقوش الاسدى (٢٦) . بالاشراف على عمارة القناطر والجسور .

الصناعة

المعروف ان مصر اشتهرت دائما بانها اقليم زراعي . وما بها من صناعات انما اتخذت مادتها الخام من الزراعة ، ومن قبيل ذلك صناعة المنسوجات والزيوت والعطور ، التي كان يجري احيانا تصديرها . اما الصناعات التي تقوم على مواد مستوردة من الخارج فكانت قليلة كالمصنوعات الحديدية التي تنتجها تنيس . ودلاص . كما ان المنسوجات الحريرية انما تعتمد على ما يرد من سوريا من الحرير الخام (٢٧) . واقتصر استيراد الجلود على ما هو نادر منها ولم يكن بمصر ما يماثلها . ويعتبر النسيج اهم صناعة في مصر . ومن المدن الهامة التي اشتهرت بالنسيج تنيس ودمياط والبهنسا والاشمونين واسيوط واخميم . واشتهر الوجه البحري بصناعة المنسوجات الكتانية ، بينما سادت صناعة المنسوجات الصوفية والقطنية في مصر الوسطى والوجه القبلى . وما جرى تصديره من المنسوجات الصوفية في كميات كبيرة ذاعت شهرتها

حتى بلغت فارس (٢٨) • اما القطن الذي يعتبر حتى اليوم من اهم المحصولات بمصر ، فانه كان معروفا ايضا في مصر قبل الفتح الاسلامي؛ ايضا نسجه ، ومن اهم مراكز صناعته البهنسا •

اما المنسوجات الكتانية فاهم مراكزها الاسكندرية ودمياط وتنيس ، وجرى تصديرها الى اوربا واسيا • وحول دمياط وتنيس اشتهرت مواضع عديدة مما تخرجه من المنسوجات التي اختصت بها • ومن الصناعات المعروفة في جميع هذه المواضع ، ما خرج من اقمشة رقيقة من الكتان ، اشتهرت باسم الشرب بلغ ثمن القطعة الواحدة منه ١٠٠ دينار • وما كان ينسج في دمياط النوع الابيض منها ، وما صنع في تنيس كان بالوان مختلفة • يضاف الى ذلك ان المنسوجات الحريرية الموشاة بالذهب ازدهرت في هذه المواضع • وبلغ عدد الانوال في تنيس نحو ٥ آلاف نول ، وتولى النسيج الرجال لا النساء (٢٩) •

ومن الروايات الشائعة ان هذه الصناعة كانت احتكارا حكوميا ، والواقع ان هذا ليس صحيحا • فمن اليسير التفرقة بين المصانع الخاصة والمصانع الحكومية • ومن الدليل على وفرة ما تخرجه المصانع الحكومية من هذه المنسوجات ؛ ان ما تمنحه الحكومة من العطايا وما تبذله من المنح بكميات كبيرة ؛ انما يخرج من هذه المصانع الحكومية ، اذ يتلقى رجال القصر خلعا جديدة مرتين في السنة ، فضلا عما يجري عليهم من التصاريف والخلع في احوال مختلفة ، يضاف الى ذلك ما جرت به العادة من توفير الثياب ، واعتبار انفاق الاموال فيها ، خيرا من توظيفها في الصناعة • اما ما يصل الى الاسواق من الثياب المنسوجة في المصانع الحكومية برسم خانة الملابس ، فانما مصدرها رجال الدولة الذين جرى التشهير بهم وتجريسهم ، وكانت هذه من الملابس التي جرى الانعام بها عليهم من قبل • واذا تمت صناعة الثياب ، جرى نقلها

من مواضعها الى القاهرة ، فما هو خاص بالخليفة منها ، جرى تجهيزه واعداده في دور الحريم بالقصر ، حيث يؤدي هذه المهمة ثلاثون فتاة تحت اشراف سيدة • ولعل هذا هو الاثر الوحيد الذي يربط هـذه الصناعة بما هو معروف بالطراز البيزنطي (٣١) •

أما المصانع الخاصة فانها انتظمت في صورة مختلفة • اذ جرى تشييد عمائر ضخمة على النيل خارج دمياط ، استأجر النساجون ما بالطابق العلوي من الحجرات ، حيث يقومون في هذه الحجرات بتجهيز المنسوجات القيمة ، غير أننا لا نعرف ما اذا كانت الحكومة أو آحاد الناس هم الذين قاموا بتأجير هذه الحجرات • اذ ان كل عمليات البيع انما يقوم بها سماسرة حصلوا على ترخيص من الحكومة ، ويعتبرون الفئة الوحيدة من الوسطاء الذين أجازت لهم الحكومة ممارسة أعمالهم• والراجح أيضا أنهم هم الذين أمدوا النساجين بما يحتاجون اليه من المواد الخام • واهتموا باثبات أن كل صانع التزم في تأدية عمله ما هو مقرر لهذا العمل من المادة الخام ، فاذا توافر من المادة شيء ، جرى استقطاعه من الثمن المدفوع له (٣٢) • واذا تم نسج الثياب ، تولى تجهيزها فئة أخرى من الصناع ، فيقوم شخص بطيها ، ويتولى آخر لفها ، ويضعها ثالث في الاسفاط والصناديق . ويقوم شخص رابع بحزمها ، وكل منهم يتقاضى أجرا على عمله ويضع علامته على الصندوق ثم يجري شحن هذه الثياب في مراكب ، تتوجه الى حيث يتم بيعها (٣٣)•

ومن الصناعات المصرية استخراج الزيوت من السمسم والخردل والكتان والقنب والخس ، ولم تكن الزيوت تزيد على حاجة السكان ، وجرى الافادة منها في الاضاءة وفي صناعة الصابون ، وتعتبر قفط من أهم مراكز صناعة الصابون ، ويعتبر الصابون من السلع المعروفة في التجارة (٣٤) •

أما صناعة قصب السكر فكانت من أهم الصناعات ، ومن الدليل على ذلك ما جاء في وصف المؤرخين للمقادير الكبيرة من الحلوى المصنوعة من السكر التي يجري تقديمها في المآدب والحفلات ، وجرى ايضا تصدير السكر الى الخارج . والمعروف ان الحكومة الايوبية حتمت على زراع قصب السكر أن يعصروا أقصابهم في معاصرها المنتشرة بسائر الاقاليم (٣٥) .

وانتظم أرباب الحرف في نقابات ، تولى كل منها شيخ . وعالجت كتب الحسبة الطرق والاساليب التي تتخذها الحكومة للاشراف على هذه النقابات ، كيما تتوافر المواد الغذائية في الاسواق ، وتعتدل الاسعار ، ويتفقد المحتسب الاسواق والموازين ويقف على ما تتخذه أرباب الحرف من اساليب الغش ، ويحاول منعها ، ويعاقب من يرتكب هذه المخالفات (٣٦) .

التجـــارة

لما تولى صلاح الدين الحكم ، حرص على ان يستولي على حصن الشوبك الصليبي الذي يعترض سير المواصلات مع دمشق . والمعروف ان القوافل كانت تجتاز الاراضي التي احتلها الصليبيون ، وان هؤلاء وافقوا على مرورها مقابل الحصول على رسوم وضرائب فرضوها على أرباب الحرف من أساليب الغش ، ويحاول منعها ، ويعاقب من يرتكب القوافل من المغيرين ، سواء كانوا من قطاع الطرق او من الصليبيين . وسبقت الاشارة الى ما قام به ريجنالد شاتيون صاحب الكرك والشوبك من التعرض لهذه القوافل ، بل انه بلغت به الجرأة انه انشأ سفنا انزلها بالبحر الاحمر ، وعملت بالقرصنة ومهاجمة السفن التجارية ، وتجاوز

ذلك الى حد التهديد بنهب مكة وقطع تجارة مصر مع الشرق الاقصى (٣٧) • ولم يتحقق لريجنالد ما كان يصبو اليه من اغراض ، اذ انه تلقى درسا قاسيا من البحرية الاسلامية ، ترتب عليه تدمير كل ما انزله بالبحر الاحمر من السفن • اما امارة الكرك فانها لم تلبث ان سقطت في يد صلاح الدين بعد معركة حطين (١١٨٧) ، واستطاع التجار والحجاج ان يسيروا آمنين بطريق البر الى الشام وبلاد العرب (٣٨) •

وعلى الرغم من الحروب الصليبية التي استمرت نحو قرنين من الزمان ، فانه تخللها هدنات طويلة الامد ، جرى في اثنائها من الصلات التجارية والشخصية بين المعسكرين الاسلامي والصليبي ما افاد الاحوال الاقتصادية عند الجانبين •

وما ارسله صلاح الدين سنة ١١٧٥ الى الخليفة العباسي ببغداد من رسالة انما تدل على ما بين صلاح الدين والجمهوريات الايطالية من علاقات تجارية • اذ ورد في هذه الرسالة عند الاشارة الى الجيوش المختلفة « ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنة والجنوية ، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ، وتطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبة ، ومامنهم الا من هو الان يجلب الى بلدنا الة قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائف اعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصلة ، وانتظمت معهم المسالمة ، على ما تريد ويكرهون وعلى ما تؤثرهم لا يؤثرون » (٣٩) •

وفي شتاء سنة ١١٨٧ ـ ١١٨٨ كان بميناء الاسكندرية سبع وثلاثون (٤٠) سفينة تجارية قادمة من الجمهوريات الايطالية (جنوه وبيزا والبندقية) وغيرها من الدول الاوربية • على ان هذا العدد ليس

قاطعا ، فاذا كان المعروف ان معظم التجار انما يقدمون الى مصر لممارسة نشاطهم في الموسم المعتدل ، وان قادة السفن يؤثرون تمضية الشتاء بين اهلهم • فلا بد من التسليم بان ما يرد الى مصر في فصول الربيع والصيف والخريف ، لم يكن فحسب ٣٧ سفينة . انما جاء الى الاسكندرية مئات من السفن • والمعروف ان صلاح الدين سير عددا كبيرا من الاسرى الذين وقعوا في يده في عسقلان بجنوب فلسطين في خريف سنة ١١٨٧ ، الى الاسكندرية لارسالهم الى اوربا . ولما رفض رؤساء السفن نقلهم ، ابى والي الاسكندرية ان يسلمهم صوارى المراكب ودفاتها الا اذا وعدوا بنقل هؤلاء الاسرى ومعاملتهم معاملة طيبة ، وجرت العادة بالا تبرح سفينة الميناء الا اذا دفعت ما هو مقرر عليها من الرسوم (٤١) • والتجار الاجانب المقيمون بالاسكندرية هم الذين حذروا سنة ١١٩٠ ، صلاح الدين بان فردريك بربروسه يعد حملة صليبية لمهاجمة املاكه (٤٢) •

ولم تؤد وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣ الى تغيير في العلاقات ، بل ان كلا من جمهوريتي بيزا والبندقية ارسلت سفراءها الى القاهرة ، لعقد معاهدات جديدة ، مع الملك العادل اخى صلاح الدين ، الذي صار سنة ١٢٠٠ سلطانا على مصر وعلى جانب كبير من املاك صلاح الدين في الشام • وتضمنت هذه المعاهدات حماية الحجاج في اراضي السلطان ، ورعاية التجار للبنادقة ، وعدم اجبارهم على دفع ازيد مما هو مقرر عليهم من الضرائب ، فضلا عن اقامة فندق جديد لهم (٤٣) •

ولم تكن مصر وحدها التي ارتبطت بمعاهدات تجارية مع الجمهوريات الايطالية ، اذ ان ما جرى عقده من المعاهدات بين امراء الشام ، بعد وفاة صلاح الدين ، وبين الصليبيين ، لاسيما البيازنة والبنادقة ، يدل على ان القوافل التجارية القادمة من الجزيرة ، جلبت

الى مينائي بيروت وعكا من السلع والمتاجر ما اتخذ جانب كبير منها طريقه الى اوربا • ففي سنة ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ارسلت البندقية سفيرا الى حلب قام بعقد تجارية مع امير هذه المدينة ، وهو غياث الدين غازي بن صلاح الدين (٤٤) • والمعروف ان البندقية كان لها امتيازات وفيرة في اللاذقية وجبيل . وان هذين الموضعين كانا من املاك انطاكية ، ثم اصبحا من املاك حلب . فما حدث من قدوم سفير البندقية الى حلب ، لعقد معاهدة ، لم يكن القصد من ذلك المحافظة على ما كان لها من امتيازات سابقة فحسب ، بل توثيق العلاقات السياسية مع امير حلب ، وما يتبع ذلك من توطيد العلاقة التجارية • فحصلت البندقية بمقتضى هذه المعاهدة ، في مدينة حلب ، على فندق وحمام وكنيسة وتحدد رسوم الدخول والخروج بنحو ١٢ بالمئة •

وفي سنة ١٢٢٥ ، أي في زمن الملك العزيز الذي خلف الظاهر على حكم حلب ، ارسل دوج البندقية سفيرا اخر ، استطاع ان يخفض المكوس وجعلها ٦ بالمئة ، وحصل على ضمانات بشأن سلامة ممتلكات البنادقة في حالة الوفاة اوالغرق ،وعلى ان يمتلك البنادقة باللاذقية محكمة وفندقا وكنيسة وحماما ومخبزا (٤٥) •

على ان ما اورده الكتاب الغربيون من الاشارة الى المتاجر التي كانت بمينائي عكا وبيروت ، انما جاء جانب منها من مصر التي تعتبر وقتذاك مستودع التوابل • ففي هاتين المدينتين من السلع التجارية : المسك من التبت ، والفلفل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والند والكافور وسائر منتجات الهند ، والعاج من الهند وافريقية ، والبخور والتمر من بلاد العرب ، والنيلة واللؤلؤ (٤٦) •

وما تكرر من صدور اوامر البابا بمنع التجارة مع المسلمين ، يدل على ان هذه التجارة لم تتوقف بتاتا ، اذ لم يكن ثمة الا اقلية من

التجار حافظوا على ما يربطهم بالمسيحية من نصائح وعواطف • ومع ذلك فانه ورد في بعض الرسومات البابوية ما يلي : كل من يتجاسر على ان يبيع للمسلمين الحديد او الاسلحة او الاخشاب ، التي يجري استخدامها في العمائر البحرية او بناء السفن . وكل من يدخل منهم في خدمة المسلمين . قائدا لسفينة او مرشدا له ، سوف يتعرض للحرمان من الكنيسة . ولا يكون جزاؤه الا مصادرة متاعه وضياع حريته الشخصية (٤٧) •

وتدخلت البابوية صراحة ، بعد ان احرز صلاح الدين انتصاراته الباهرة • فالمعروف ان رنترد بعد ان استولى على عكا ، طلب اليه الجنويون ان يوجه قوته الى مصر ، باعتبارها اكبر عدو للصليبيين ، غير انه اهمل هذه الفكرة • على انه رسخ في دهن الصليبيين انه ليس في الاستطاعة ان يستردوا الاراضي المقدسة . الا بالاستيلاء على مصر • والحملة الرابعة انما نبتت من فكرة مهاجمة مصر . ما حدث من المفاوضات بين الصليبيين ودوج البندقية ، انما كانت ترمي الى تحقيق هذا الغرض (٤٨) •

واستهل البابا اونوسنت الثالث هذا التدخل بتحريم كل تجارة مع المسلمين • غير انه ترتب على الاحتجاجات العديدة الموجهة ضد هذا القرار ، لاسيما من البنادقة ، ان منح البابا بعض الامتيازات ، فقصر الخطر على بيع المواد التي تخدم مباشرة القوة الحربية بمصر • غير انه عند الاستعداد للحملة الصليبية الخامسة ، امعن مجمع اللاتران المنعقد سنة ١٢١٥ في تشديد الحظر ، وجعل الحرمان من الكنيسة جزاء كل من يقدم للمسلمين الاسلحة والمؤن (٤٩) •

ومع ذلك ففي هذه السنة يشير مؤرخ عربي الى ان ثلاثة الاف

تاجر من الغرب اجتازوا الاسكندرية • واورد في كتابه انه في اوائل القرن الثالث عشر صار يتردد على ميناء دمياط سفن من ابوليا والبندقية وبلاد اليونان وارمينية وسوريا (٥٠) •

على انه ينبغي ان يكون معروفا ايضا ان الحروب الصليبية خلقت حالة توتر مستمر في العلاقات بين المصريين والمسيحيين في الغرب • ذلك ان الحكومة المصرية ارتابت في نشاط الفرنج في الاسكندرية . ولها كل العذر في ذلك ، لان ما حدث سنة ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، من قيام الصليبيين بالشام بتوجيه حملة للاستيلاء على دمياط ، كان من بينهم عدد كبير من الايطاليين ، من جنوه وبيزا والبندقية (٥١) • وتزعمت الجمهوريات الايطالية حركة المعارضة حينما عرض الملك الكامل سنة ١٢١٩ على الصليبيين ، ان يجلوا عن دمياط والسواحل المصرية ، مقابل اعادة الصليب الذي وقع في يدي صلاح الدين عند استيلائه على بيت المقدس • ولما حلت بالجيش الصليبي الهزيمة سنة ١٢٢١ • قبل زعماء الصليبيين مرغمين ان يغادروا البلاد • اما ممثلوا الجمهوريات الايطالية فلم يقبلوا ذلك ، وحاولوا السيطرة على دمياط . ولم يغادروها الا حينما شعروا بأن الشتاء قد اقبل ، وان المئونة قاربت على النفاذ ، وانه سوف لا تأتيهم امدادات • وتقرر منع نقل الخشب والحديد والقطران وسائر السلع الى مصر • كما ان البندقية امتنعت سنة ١٢٢٤ عن ارسال سفنها الى مصر • غير ان ذلك لم يمنعها من عقد معاهدة تجارية مع العزيز امير حلب ، ومع صاحب اللاذقية وحصن صهيون سنة ١٢٢٥ (٥٢) •

على ان فردريك الثاني رأى ان يوطد العلاقات الودية مع السلطان الكامل ، وكان لهذه السياسة اثر طيب في تنشيط التجارة مع مصر •

ولم يلبث البنادقة ان عادوا الى ممارسة التجارة مع مصر سنة

١٢٢٩ فحصلت البندقية في سنة ١٢٣٨ ، وسنة ١٢٤٤ على معاهدات بتجديد الامتيازات السابقة (٥٣) •

ونستعرض الآن مكانة الاوروبيين الذين نزلوا بمصر ، وما حفظته دور المحفوظات بايطاليا من وثائق انما يمدنا بمعلومات وفيرة عنهم ، ولا سيما عن البنادقة •

أورد هايد Heyd موجزا عظيم الاهمية في هذه الناحية ــ اذ يشير الى ان التجار الاجانب كانوا يقيمون في فنادق خاصة بهم ، اذ كان للبنادقة بالاسكندرية فندقان fondaci تتولى ادارة الجمارك المصرية (الديوان) صيانتهما والمحافظة عليهما ، وفي الشام كان للبنادقة فندق في كل من دمشق وبيروت وطرابلس وحلب واللاذقية ، وكذا كان لجنوه فندق في دمشق وبيروت (٥٤) • والفنادق أبنية ضخمة اشبه ما تكون بالحصون يتألف الواحد منها من طوابق ، ويقع بالطابق الاول منها المخازن والحوانيت التي تفتح على فناء داخلي، يجري فيه تعبئة البضائع وتفريغها ، اما الطوابق العليا فيسكنها التجار (٥٥) واهتمت الدولة براحة التجار الاجانب في فنادقهم ، فكان لهم الحمامات والافران والكنائس ، ولكل فندق مشرف يتولى النظر في أمره ، وكل جالية من الجاليات يدير شئونها القنصل ، وهؤلاء الموظفون جرى اعفاؤهم من ضريبة الجزية . مهما طال مقامهم بمصر • ويعتبر القناصل مسئولين عن رعاياهم أمام السلطان • ومن أعمالهم المحافظة على تركات المتوفين • وللبنادقة الحق في ان يتخذوا لهم بالديوان كاتبا، يتولى الارشاد عن السلع التجارية وملاحظتها ، ولهم الحرية في أن يبيعوا لكل من يرغب في الشراء (٥٦) •

والضرائب التي يدفعها التجار الايطاليون في مصر والشام أنواع•

منها ضريبة الصادر والوارد . ويتولى الديوان تحصيل هاتين الضريبتين فتؤخذ ضريبة الوارد على البضائع التي تباع فعلا ؛ أما التي لم تجد لها سوقا في البلاد ، فلا يدفع عنها أربابها ضريبة وارد ، ويجوز لهم ان يعيدوا تصديرها دون دفع رسوم ، على الا يكون من هذه السلع الحديد والخشب والقار ، التي تحتم عليهم ان يبيعوها للحكومة بسعر السوق (٥٧) • أما ضريبة الصادر فيجري تحصيلها عن جميع السلع التي يشتريها التجار الاجانب من مصر ، وعن الاموال التي تخرج من البلاد . والى جانب هذه الضرائب يجري تحصيل رسوم اضافية كالسمسرة ، وعن الترجمة (٥٨) •

والخلاصة ان الصليبيين أسهموا في تنمية العلاقات التجارية بين أوروبا ومصر • وتضمنت ملاحم المآثر التي ترجع الى النصف الاول من القرن الثاني عشر الميلادي وصف ما حفل به الشرق من الغرائب : من المنسوجات القيمة بالشام ، والسجاجيد الفارسية ، وما اشتهرت به بلاد العرب وفلسطين من اللؤلؤ والعطور • وتعلمت اوروبا شيئا كثيرا عن الحضارة الاسلامية واصاب الانتاج في أوروبا تغيير كبير ، فمن الشرق تعلم الاوروبيون كيف يصنعون الاقمشة الفاخرة ؛ اذ اشتهرت طرابلس وأنطاكية وصور وأنطرطوس وطبرية بالمنسوجات الحريرية • ومن هذه الجهات وصل الى أوروبا المنسوجات الحريرية ، والقماش والمنسوجات الموشاة بالذهب والفضة ، والثياب الرقيقة (٥٩) ، ومنذ العصور القديمة اشتهر الشرق بتفوقه في صناعة البسط ، وحاول صناع اوروبا ان يتذوقوا هذه المهنة ، اذ كان بباريس — زمن فيليب الجميل — من المصانع ما يجري بها صناعة «السجادالشرقي» (٥٩) • واشتهر الشرق الادنى أيضا بالصباغة الفائقة . فما اشتهر به الاردن من النيلة ، وما اشتهرت به دمشق من الزعفران ؛ انتقل الى الغرب • وكذا

عرف الغرب استخدام الشب في تثبيت الالوان ، وعرفت البنـدقية الزجاج الملون ، ومن الشرق تعلـم الغرب صناعة الورق والحلـوى وقصب السكر والمنسوجات الكتانية • وأول من أدخل صناعة السكر في أوروبا الامبراطور فردريك الثاني وذلك سنة ١٢٣٩ • حين جـاء بالصناع من الشرق وانزلهم بصقلية • وترتب على كل ذلك نتائـج باهرة ، اذ جرى تغيير في صناعة الجوخ ، ولما شرعت أوروبا في صناعة المنسوجات وما يرتبط منها بأسباب الترف ، ولقيت قبولا في الغرب ، فتنوع الانتاج ، واكتمل اسلوب الصناعة ؛ وبذلك اكتمل نمو الثـورة الصناعية في أوروبا (٦٠) •



الفصل الرابع عشر

الاحوال الاجتماعية

الحياة العامة

القاهرة :

لم يكن للقاهرة زمن الفاطميين من المركز الاقتصادي ، ما صار لها زمن الايوبيين والمماليك ، اذ أن الفسطاط هي التي احتلت هذه المكانة بينما كانت القاهرة مقرا لبلاط الخلفاء الفاطميين ، وما يتعلق به من المواكب والرسوم والاحتفالات . وما أورده ابن الطوير وغيره من المؤلفين أمثال القلقشندي والمقريزي ، من وصف المواكب والدكاكين والتحف والاسطبلات والاعلام والشارات ، ما يدل على ما اشتهر به الخلفاء ورجال البلاط وموظفو الحكومة من الابهة والعظمة .

غير أنه ما كاد صلاح الدين يتولى حكم مصر . حتى أشرق فجر جديد على تاريخ القاهرة . اذ قام صلاح الدين بدور كبير في نمو المدينة بما أنشأه من العمائر الضخمة ، فندب سنة ١١٧١ (٥٦٧هـ) بهاء الدين قراقوش لعمارة اسوار القاهرة ومصر ، فبناها بالحجارة . وذلك أن السلطان حين رأى أن مصر والقاهرة لكل منهما سور لا يمنعها ، فاحتاجت كل منهما الى طائفة من الجند لتقوم على حمايتها ، أشار بتشييد سور واحد ، يمتد من شاطىء النيل شمالا الى شاطئه جنوبا ويجمع في داخله المدينتين . على أن صلاح الدين لم يدرك أهمية ما وضعه من خطة احاطة سائر المباني والعمائر ، التي تتألف منها الفسطاط

والقاهرة ، بسور ، الا بعد عودته من الشام ، وهو فـي أوج قوتـه وسلطانه سنة ١١٧٦ (٥٧٢هـ) •

والراجح أن صَلاح الدين آمر وقتذاك بانشاء قلعة القاهرة ، ورأى أن تدخل في نطاق السور الذي يضم القاهرة ومصر (الفسطـاط) • على أن اختيار موقع القلعة يدل على بعد نظر صلاح الدين ، ففي الوقت الذي عزم فيه على ان يشيد هذا السور ، اختار للقلعة موضعا يكون من القرب ما يسهل معه الاشراف عليه وحراسته والدفاع عنه ، ويكون من البعد ما يجعله ملاذا يعصمه من ضربة مفاجئة • ولعل ما حدث من الثورات الداخلية في مصر على يد الفاطميين سنة ١١٧٦ ، كان له أثر في التفكير في بناء القلعة (١) • ويشير القلقشندي الى أن القلعة تقع على نشز مرتفع من تقاطيع المقطم ، وترتفع في موضـع ، وتنخفض في آخر (٢) •

وتعتبر القلعة أعظم منشآت صلاح الدين الحـربية ، واستغرق بناؤها زمنا طويلا ، اذ بدأ في تشييدها سنة ١١٧٦ (٥٧٢هـ) ، واتمها على ما هو وارد في النقش على باب المدرج ، سنة ١١٨٣ (٥٧٩هـ) • وللقلعة ثلاثة ابواب ، تعتبر مداخل مائلة ، الاول يقع جهة الشمال في الجانب المواجه للمدينة ، ويقال له الباب المدرج ، والثاني في جنـوب القلعة ، والثالث يقع الى الشرق منها •

ويشير ابن جبير الذي زار مصر سنة ٥٧٨ هـ الى القلعة ، بـأنها حصن يتصل بالقاهرة ، حصين المنعة • يريد السلطان (صلاح الـدين) أن يتخذه موضع سكناه ، ويمد سـوره حتى ينتظم بالمدينتـين مصر والقاهرة • والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهانـاته ، ومئونته العظيمة كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق

المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقره بالمعـاول نقرا في الصخر ، ويعتبر عجبا من العجائب الباقية الاثر ، العلوج الاساري من الروم (الصليبيين) ، وعددهم لا يحصى كثرة ، ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البناء أحد سواهم (٣) •

غير أن المعروف أن صلاح الدين مات قبل أن يتم بناء القـلعة ، وأصاب المنشآت الاهمال ، فقـام العادل سنة ١٢٠٧ م (٦٠٤) علـى اكتمالها • ويرى كريزويل أن ما قام به العادل ليس الا تدعيما لقـلعة صلاح الدين (٤) •

ولهذه العمائر أهمية من ناحيتين : فبعد أن امتد السور الشمالي الى النيل اضحى الفضاء الواقع بين الخليج والنيل في مأمن من الغارات وصار من اليسير أن تنمو المدينة في هذا الاتجاه • ولما تم انتقال مقر الحكومة الايوبية الى القلعة ، نمت القاهرة ايضا من جهة الجنوب ، فتم الاتصال بينها وبين الفسطاط (٥) •

فزخرت القاهرة بالدور الضخمة ، والمنازل الرحيبة ، والاسواق المتدة ، والخوانق الفاخـرة • وغالب مبانيهـا بالآجر ، وجـوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت ، مفروشة الارض بالرخام • وغالب سقوفها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة • وكلها او اكثرها ، جرى تبييض جدرها بالكلس النـاصع البيـاض • ولاهلها الميل الى تعلية المساكن ، فارتفعـت بعض الدور الى طبقتـين وأربع طبقات ، وفي كل طبقة مساكن كاملة ، بمبانيها ومرافقها (٦) •

ويصف البغدادي الذي زار القاهرة زمن الدولة الايوبية ، مـا جرى من النشاط في البناء والعمارة ، فيشير الـى أنهم اذا أرادوا بناء ربع أو قيسارية ، تولى ذلك العمل مهندس ، فيقسم الارض الى أجزاء ،

ويعمر كل جزء على حدة ، بحيث يجري الانتفاع به والسكن فيه ، ويستمر العمل على هذا النحو ، حتى تتم عمارة الاجزاء كلها • ويصف مظاهر الاهتمام ببناء المراحيض بالدور واحكام قنواتها ، حتى اذا تخربت الدار ظلت القناة قائمة ، وحرص أرباب الدور على أن يمعنوا في حفر المرحاض حتى يصل الى الماء الجوفي ، فلا يحتاج الى الكسح (٧) •

ويذكر البغدادي عن الحمامات بالقاهرة ، أنه لم يشاهد فيما زاره من البلاد ، أتقن منها وصفا ، ولا أتم احكاما ، ولا أحسن منظرا • ذلك أن « أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين الى أربع روايا ، وأكثر من ذلك ، يصب فيه ميزابان ثجاجان • حار وبارد • وقبل ذلك يصب الميزابان في حوض صغير جدا ، مرتفع . فاذا اختلطا فيه ، جرى منه الماء الى الحوض الكبير • وهذا الحوض يقع نحو ربعه فوق الارض ، وسائره في عمقها ، ينزل اليه المستحم ، فيغتسل فيه • وداخل الحمام مقاصير بأبواب • وبالحمام أيضا مقاصير لارباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ، ولا يظهروا على عوراتهم • وفي وسط الحمام بركة مرخمة ، وعليها أعمدة وقبة • وجميع ذلك مزوق السقوف ، مبيض الجدران ، وجرى ترخيم الارض بأصناف الرخام المجزع • وهو مع ذلك كثير الضياء ، رائع الاصباغ ، بحيث اذا دخله الانسان ، لم يؤثر الخروج منه (٨) •

ومن واجبات المحتسب الاشراف على الحمامات العامة ، فيلزم قيمتها بغسلها وكنسها وتنظيفها • وذلك بلاطها ، وغسل الخزانة التي يجتمع بها الماء • وينبغي على القيم أن يشعل في الحمام البخور كل يوم مرتين ، ولا يدع الاساكفة يصبغون جلودهم في الحمام ، فان الناس يتضررون برائحة الدباغة • ويمنع المجذوم والابرص من الدخول الى

الحمام ويتعهد الناطور بحفظ ثياب الناس ، فان ضاع منها شيء التزم بدفع التعويض عن ذلك » (٩) ٠

الاسواق وارباب الحرف

ولوظيفة المحتسب أهمية خاصة في تنظيم الحياة الاجتماعية في العالم الاسلامي ٠ ومن اعمال المحتسب زمن الايوبيين النظر في الاسواق والطرقات ، فيراعي ما ينبغي ان تكون عليه الاسواق من الارتفاع والاتساع ، وأن يكون بجانبي السوق افريزان يمشي عليهما الناس في زمن الشتاء ، اذا لم يكن السوق مبلطا ٠

ويلاحظ المحتسب ألا تخرج مصاطب الدكاكين عن الرسم الموضوع لها، وأن يكون لاهل كل صنعة سوق يختص بهم ٠ فمن كانت صناعته تحتاج الى استخدام النار كالبخار والطباخ والحداد ، فيحسن ان تبعد حوانيتهم عن حوانيت أرباب الحرف الاخرى ، مثل العطارين وباعة الملابس (البزازين) ٠

ومن الامور التي يلزم المحتسب معرفتها أن يتعرف الى أخبار اهل الاسواق ، وما يرد الى الاسواق من السلع ٠ وما تستقر عليه لاسعار ٠ ولذا جاز له ان يجعل لاهل كل صنعة عريفا من صالح اهلها ، خبيرا بصناعتهم ، بصيرا بغشوشهم ، مشهورا بالثقة والامانة ، كيما يتولى الاشراف عليهم ٠

ويمنع المحتسب من الدخول الى الاسواق احمال الحطب والتبن وروايا الماء واحمال الرماد ، لما يتسبب عنها من الاضرار للناس وملابسهم (١٠) ٠

يشيد ابن جبير بمآثر صلاح الدين التي لمسها في أثناء رحلته ، التي اجتاز فيها أملاك الدولة الايوبية في القرن الثاني عشر الميلادي • فمن هذه المآثر ما أمر صلاح الدين ببنائه من المدارس لتحفيظ القرآن الكريم ، فيقوم معلموها بتعليم أبناء الفقراء والايتام خاصة ، وتجري عليهم الجراية الكافية لهم •

ومن آثاره ايضا ، ما قرره من الغاء المكوس المفروضة على الحجاج منذ زمن الدولة الفاطمية ، عند اجتيازهم بمصر • وأبدى صلاح الدين اهتماما زائدا بمن يفد الى مصر من البلاد العربية لطلب العلم او الاقامة بها ، أو التماس سبل العيش بها • ففي الاسكندرية مثلا ، صار كل واحد من هؤلاء الوافدين يلقى مسكنا يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد أن يتعلمه ، ويجري عليه من الرواتب ما يكفي لسد حاجاته ، وازدادت عناية السلطان بهؤلاء القادمين ، حتى أمر بتعيين بعض حمامات يستحمون فيها ، متى احتاجوا الى ذلك ، وجعل لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وعين تحت أيدي الاطباء من الخدم من يقومون بالنظر فيما يشير به الاطباء من العلاج والغذاء • أما المرضى الذين لا يقبلون أن ينزلوا بالمارستان ، فان الاطباء تكفلوا بعلاجهم في دورهم (١١) •

وتعهد صلاح الدين بالانفاق على سائر من يلجأ الى المساجد والمشاهد بالقرافة بالقاهرة ، من الغرباء والصلحاء والفقراء • وجعل جامع ابن طولون ، مأوى للغرباء من المغاربة وأجرى عليهم الارزاق في كل شهر ، وجعل السلطان احكامهم لانفسهم ، فاختاروا واحدا منهم ، يمتثلون أمره ، ويحتكمون اليه في كل أمورهم ، وتفرغوا لعبادة ربهم ،

ووجدوا من فضل السلطان خير معين لهم على ما يؤدونه من عمل الخير (١٢) .

ولقي الوافدون من المغرب الى بلاد الشام مثلما لقوا في مصر من أسباب العيش ، فمنهم من تولى امامة مسجد ، او التزم زاوية من زوايا المسجد الجامع بدمشق ، ينال من أوقافها ما يساعده على الحياة . ويشير ابن جبير الى ان الغريب المحتاج « اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ ، غير مريق ماء الوجه » . ويستطيع الغرباء بالشام أن يكسبوا معاشهم ، بممارسة ما يلائمهم من الخدمة ، كأن يتولى أحدهم الخدمة في بستان أو حمام أو طاحون ، أو يصحب التلاميذ من مدارسهم الى منازلهم (١٣) .

الصوفية :

على الرغم من أنه لم تجر كتابة تاريخ التصوف في مصر ، فالمعروف ان التصوف كان عظيم الاهمية في مصر زمن الايوبيين والمماليك . ومن أشهر المتصوفة المتقدمين . ذو النون المصري ، وابن الفارض ، الذي يعتبر من أعظم شعراء المتصوفة . ومن مصر أيضا ذاعت بردة البوصيري في سائر أنحاء العالم الاسلامي . وبلغ التصوف غايته زمن صلاح الدين وخلفائه . ومن الدليل على ذلك وفرة الخوانق والربط والزوايا التي يرجع تاريخها الى هذا العصر (١٤) .

وأول خانقاه معروفة زمن صلاح الدين ، هي الخانقاه الصلاحية . وكانت أولا دارا تعرف في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء . وتقع مقابل دار الوزارة . ثم سكنها الوزير شاور . ولما ولى صلاح الدين امر مصر . بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمي ، وانزل امراء دولته من

الاكراد بقصر الخلافة الفاطمية ، جعل هذه الدار للفقراء الصوفية القادمين من خارج مصر ، ووقفها عليهم ١١٧٣ (٥٦٩هـ) وولى عليهم شيخا ، وأوقف عليهم عدة جهات . وشرط ان من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها . كانت للفقراء . ولا يتعرض لها الديوان السلطاني . ومن أراد منهم السفر جرت اعاتته على ذلك . ورتب للصوفية في كل يوم طعاما ولحما وخبزا . وبنى لهم حماما بجوارهم . فكانت أول خانقاه أقيمت بمصر . واتخذ رئيس الصوفية لقب شيخ الشيوخ . واشتهر سكانها من الصوفية بالعلم والصلاة . ويسعى الناس الى التبرك بهم وولى مشيخة هذه الدار الاكابر والاعيان .ونزل بها الاكابر من الصوفية . وفي يوم الجمعة جرت العادة أن يأتي الناس من مصر الى القاهرة . ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء ، عندما يتوجهون منها الى صلاة الجمعة بجامع الحاكم . كيما تحصل لهم البركة . والخير بمشاهدتهم وكان لهم في يوم الجمعة هيئة رائعة . وذلك ان شيخ الخانقاه يخرج من دار سعيد السعداء . وبين يديه خدام الربعة الشريفة . قد حملت على رأس أكبرهم . والصوفية مشاة في سكون وخفر ، الى باب الجامع الحاكمي الذي يلي المنبر . فيدخلون الى مقصورة كانت هناك تعرف بمقصورة البسملة . لان البسملة بها كتبت بحروف كبيرة . فيصلي الشيخ تحية المسجد . في موضع قد اعد له . وتصلي الجماعة . ثم يجلسون ، وتفرق عليهم أجزاء الربعة . فيقرأون القرآن . حتى يؤذن المؤذنون ، فتؤخذ الأجزاء منهم ويشتغلون بالتركع واستماع الخطبة . وهم منصتون خاشعون . فاذا قضيت الصلاة والدعاء بعدها . قام قارىء من قراء الخانقاه . ورفع صوته بقراءة ما تيسر من القرآن . ودعا للسلطان صلاح الدين . ولواقف الجامع ولسائر المسلمين . فاذا فرغ قام الشيخ من مصلاه وسار من الجامع الى الخانقاه والصوفية معه . ويعتبر هذا من أجمل

عوايد القاهرة (١٥) •

واجتماع أهل الربط • اذا صح على الوجه الموضوع له الربط • وتحقق اهل الربط بحسن المعاملة ، والمحافظة على الاوقاف ، وتوقى ما يفسد الاعمال • عادت البركة على الناس • ومن شرط سكان الربط « قطع المعاملة مع الخلق • وفتح المعاملة مع الحق • وترك الاكتساب اكتفاء بما يجري عليهم من الارزاق • وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات • ومواصلة الليل والنهار بالعبادة • والاشتغال بحفظ الاوقات ، وملازمة الاوراد ، وانتظار الصلوات • واجتناب الغفلات ليكون بذلك مرابطا مجاهدا » (١٦) •

ويشير ابن جبير الى أن الصوفية هم الملوك بهذه البلاد • لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها • وفرغ خاطرهم لعبادته من الفكر في أسباب المعايش • وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان • وهم على طريقة شريفة • وسنة في المعاشرة عجيبة • وسيرتهم في التزام الخدمة غريبة • وعوائدهم من الاجتماع للسماع جميلة (١٧) •

التعليم

المعروف ان مصر دخلت في دوري حضاري جديد نتيجة قيام الاسرة الايوبية بها ، وسيطرتها على جانب كبير من الشرق الاوسط • وذلك لان الايوبيين أقاموا دولتهم على أنقاض الدولة الفاطمية التي استطاعت بوسائلها المختلفة ان تبسط سلطانها السياسي والروحي في هذه المنطقة من العالم الاسلامي ما يزيد على قرنين من الزمان • والتعليم من الوسائل التي لجأ اليها الفاطميون في توطيد سلطانهم ، اذ

عينوا اتجاها دينيا خاصا ليكون موضوع الدراسة ، ورتبوا خيرة رجالهم للاشراف على هذا التوجيه ، ولنشر الدعوة لمذهبهم الشيعي • وما أنشأه الحاكم بأمر الله من دور العلم في القاهرة ، من الطبيعي أن ترتبط بالدعوة الشيعية • ومن الادلة على ذلك أنه كان يقوم على هذه المعاهد داعي الدعاة الذي دأب على الاجتماع بالعلماء في دار العلم في يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع • وفي دار العلم جرى تدريس سائر أنواع المعرفة كالفلك والطب فضلا عن الدراسات الاسلامية • على أن الافضل بن بدر الجمال أغلق مدرسة الحاكم بسبب ما حدث بها من مناقشات دينية سياسية •

ثم جرى فتحها من جديد غير أنها تعرضت للنهب والتخريب في أثناء عصر المستنصر (١٨) •

وفي تلك الاثناء ظهر السلاجقة في الشرق الاوسط • بعد أن اعتنقوا الاسلام على المذهب السني • وتعصبوا للسنية • ولم يلبثوا أن أغاروا على بغداد . وخلصوا الخليفة العباسي القائم بأمر الله من سيطرة البويهيين الشيعيين • ومن أهم الوسائل التي اتخذها الوزير نظام الملك لتوطيد حكم سلاطين السلاجقة . انشاء المدارس • فأنشأ المدارس التي انتمت اليه وأصبحت تشتهر بالنظامية • ورتب فيها المدرسين والعلماء بأجور سخية منتظمة • ورسم لهم أن يكافحوا المذهب الشيعي الذي ساد زمن البويهيين وأن يدرسوا مذهب أهل السنة • ثم كان من تدخل الحكومة ، أن تبعد عن هذه المدارس كل مدرس يعطف على الشيعة ، أو يعتنق مذهبهم • يضاف الى ذلك أن هذه المدارس اتخذت وسيلة لتخريج موظفين اشتهروا بالتعصب للمذهب السني • كيما يتولوا الوظائف الحكومية (١٩) •

وسار كل من نور الدين وصلاح الدين على هذا النهج في الشام ومصر • اذ لم تكن الدولة التي أسسها نور الدين وصلاح الدين ، الا مملكة تفرعت عن الدولة السلجوقية ولم تكن النظم التي سادت في هذه الجهات الا نظما تأثرت بالسلاجقة ونظمهم فنشأت بذلك المدارس • وامتدت فيما خضع لهذين الاميرين من البلاد (٢٠) •

وتحدد لكل مدرسة المذهب الفقهي الذي تسير الدراسة عليه • وتعين لكل منها أحد الشيوخ ليدرس بها هذا المذهب ، واقتدى بهذين الاميرين كثير من أقاربهما وأتباعهما وعلماء عصرهما •

على أن صلاح الدين آخذ منذ أن ولى وزارة مصر للخليفة العاضد الفاطمي سنة ١١٦٩ م • يعمل على تغيير الدولة الفاطمية وازالتها ، فحجر على الخليفة ، وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها ، ولم يلبث أن أبطل المذاهب الشيعية ، وأقام بمصر مذهب الامام الشافعي ، ومذهب الامام مالك • فأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية ، ومدرسة للفقهاء المالكية • وكثر الحنفية بمصر لكثرة من قدم منهم الى مصر من الشرق حيث ساد مذهب أبي حنيفة ، فضلا عن تعصب نور الدين لهذا المذهب، فشيد لهم صلاح الدين المدرسة السيوفية بالقاهرة ، وما زال مذهبهم ينتشر ويقوى ؛ وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام (٢١) •

أما المدرسة التي أنشأها صلاح الدين للشافعية فاشتهرت باسم المدرسة الناصرية وكانت تقع بجوار جامع عمرو بن العاص ، وهي أول مدرسة نشأت بمصر ، وعرفت أولا بالمدرسة الناصرية ، ثم اشتهرت بمدرسة ابن زين التجار أحد أعيان الشافعية ، الذي درس بها مدة طويلة ، ثم صارت تعرف بالمدرسة الشريفية • ولما تم بناؤها ، وقف عليها صلاح الدين الصاغة وقرية ، ومن أشهر المدرسين بها ابن زين

التجار ؛ والشريف قاضي العسكر (٢٢) •

ويقع أيضا بجوار جامع عمرو المدرسة القمحية ؛ التي أنشأها صلاح الدين للفقهاء المالكية • اذ شرع في بنائها سنة ١٩٧٠ ووقف عليها قيسارية الوراقين وما تحتويه من المباني بمصر • وضيعة بالفيوم ورتب فيها أربعة من المدرسين • اختص كل منهم بعدد من الطلبة ، وتعتبر هذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكية ، وما يتحصل من ضبعتهم بالفيوم من القمح صار يوزع بينهم • ولذا اشتهرت باسم القمحية (٢٣) •

وأنشأ صلاح الدين من المدارس أيضا المدرسة المعروفة بالصلاحية الناصرية بجوار قبة الامام الشافعي • ومدرسة بجوار مشهد الحسين • ومدرسة للحنفية في السيوفية • وامتد هذا النشاط الى أمرائه • فشيد القاضي الفاضل سنة ١١٨٤ المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية وأنشأ العادل المدرسة العادلية • وأقام تقي الدين عمر المدرسة المعروفة بمنازل العز او التقوية الشافعية • وأنشأ مدرستين بالفيوم • وجرى على مثاله الامراء والاقارب (٢٤) •

وازداد عدد المدارس زمن الايوبيين زيادة ملحوظة • ففي الشارع المعروف باسم بين القصرين • كان على الجانبين مدارس في موضع القصر الفاطمي بالقاهرة • وبلغ عدد المدارس بالقاهرة حوالي سنة ٦٠٠ ثلاث عشرة مدرسة (٢٥) •

ومن المظاهر الهامة ما نلحظه من قلة مدارس الحنابلة • وكثرة المدارس التي يجري بها تدريس المذاهب الاربعة على عكس ما كان حادثا في دمشق • وأول مدرسة بمصر للمذاهب الاربعة هي الصالحية التي أسسها الصالح أيوب (٦٤١م) ولعله أقامها على نظام المستنصرية

ببغداد (٢٦) •

والمعروف أن هذه المدارس نشأت لكي يدرس بها قواعد الفقه ، وما حدث قبل نظام الملك من الاهتمام بانشاء دور للحديث ؛ ظل سائدا ومعروفا بعده • فيشير المقريزي الى دارين للحديث بالقاهرة •منها الكاملية التي أنشأها الملك الكامل أيوب سنة ١١٦٦ • والفاضلية التي شيدها القاضي الفاضل (٢٧) •

وفي المدارس جرى تدريس علوم أخرى مثل النحو والفلسفة • الى جانب الفقه والحديث • ففي سنة ١٢٠٧ أنشأ الملك المعظم بجوار قبة الصخرة ببيت المقدس مدرسة للنحو • وثمة مدارس اهتمت بدراسة التفسير والحديث والطب (٢٨) •

والمعروف أن الدراسات الاسلامية تنقسم الى قسمين : العلوم الطبيعية والعلوم النقلية ــ فالعلوم الطبيعية تعتمد على الملاحظة والادراك الحسي والاستنتاج • ولذا أطلق عليها العلوم الفلسفية أو العقلية • أما العلوم النقلية فتعتمد على الوازع الديني • وتشتمل على كل فروع المعرفة التي تتعلق بالقرآن مثل التفسير والقراءات والحديث وما يتعلق به من العلوم مثل الناسخ والمنسوخ • ومصطلح الحديث • والفقه • والفرائض (المواريث) • واصول الفقه • وما ارتبط به من اصول الشريعة • والفرق بين المذاهب والكلام • والتصوف وتفسير الرؤيا •

ويلي دراسة القرآن والحديث • دراسة العلوم اللغوية التي اشتملت على النحو • واللغة • والبيان • والادب •

وعلى الرغم من اختلاف تقاسيم العلوم العقلية • فانه يصح جعلها

في سبعة اقسام اساسية وهي : المنطق • والحساب • والهندسة • والفلك والموسيقى • والطبيعيات • ومن فروع الطبيعيات الطب ، والفلاحة • ثم علم الهيئة (الميتافيزيقا) (٢٩) •

والمدرس هو الاسم الذي يطلق على من يقوم بالقاء الدروس اما الاستاذ فليس الا من القاب التشريف • لم يكن يعين بالمدرسة اول الامر الا مدرس واحد • ففي النظامية ببغداد مدرس واحد • وتولى مدرس واحد التدريس بالمدرسة الناصرية التي تعتبر اول مدرسة انشأها صلاح الدين بالقاهرة • واتخذت المدرسة احيانا اسمها من اسم مدرس مشهور بها مثل الشريفية ومدرسة ابن زين التجار • والجنوشانية • ثم صار يعين مدرسون عديدون في المدارس الكبيرة • ففي المدرسة القمحية بالقاهرة ، عين صلاح الدين اربعة مدرسين • وجعل كلا منهم يقوم بالتدريس لعشرين طالبا (٣٠) •

اما طريقة التدريس فجرت على اساس الالقاء والتلقين ، واول ما يلتزم به المتعلم ان يحفظ القرآن الكريم • ثم يلي ذلك حفظ كل ما يستطيع ان يحفظه من الاحاديث • وجرت العادة بان يتلى الحديث ثلاث مرات حتى يحفظه الطلاب • ثم تحول التلقين الى الاملاء • فيكتب التلميذ ما يلقى عليه ، الا في حالة القرآن • وانتشرت هذه الطريقة ايضا في علوم اللغة والدراسات الادبية وفي الحديث والتفسير • وقصائد الشعراء (٣١) •

وللاملاء اهمية خاصة فيما يتعلق بالمرتب • لما لتصحيح النص من اهمية اساسية • اذ يقال دائما « واملى الحديث » ، ووضع المدرس عادة هو مجلس الاملاء ، والتلميذ هو المستملى •

ولم تكن الاملاء هي السائدة في كل مكان • اذ كان يتوافر

احيانا نسخ عديدة من النصوص الاصلية • التي نسخها الطلاب انفسهم • وفي هذه الحالة تجري قراءة النص بصوت مرتفع • ويقوم المدرس بالشرح والتعليق • ومن الطبيعي ان يقوم الطلاب بتدوين ما يحدث من التعليقات •

ويتم التعاون بين المدرس والتلميذ بما يجري من تبادل الاسئلة• فاحيانا يلجأ المدرس الى ان يسأل التلاميذ بعد القاء الدروس ، عن معاني الالفاظ والمصطلحات والعبارات . واحيانا يقوم التلاميذ بمناقشة المدرس فيما القاه عليهم من الدروس ، وقد يحرجونه بما يوجهونه اليه من الاسئلة • ورأى ابن جبير اسئلة مكتوبة وجهها التلاميذ الى المدرس بنظامية بغداد ، وتارة يعترض الطلاب المدرس في اثناء القاء الدرس ، بما يوجهونه اليه من الاسئلة (٣٢) •

اما المعيد فهو اقل مرتبة من المدرس ، واعظم درجة من عامة الطلبة ، وهو الذي يقوم باعادة الدرس الذي القاه الشيخ على الطلبة . ويتخذ مجلسه مع الطلبة لسماع الدرس ، ومن واجبه ان يقوم بتفهيم بعض الطلبة ما فاتهم من الفائدة في اثناء القاء الدرس . فيعيد ما القاه المدرس على الطلاب •

والمعروف ان وظيفة المعيد ارتبطت بانشاء المدارس . اي منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى ان المدرسة جمعت طلابا ، اختلفوا في قدراتهم العقلية ، فاقتضى الحال ضرورة وجود معيد ، لمساعدة المتخلفين ، حتى يتمكنوا من مسايرة الاخرين • يضاف الى ذلك ان بعض النابهين من الطلاب ، ازداد ارتباطهم بمدرسيهم ، فرأوا انه من الخير لهم ان يعملوا مساعدين لهم ، او معيدين لدروسهم ، بدلا من ان يستقلوا بالتدريس في مدارس

اخرى ، واحيانا يقوم المعيدون بالتدريس : دون ان يكون معهم مدرس • وفي هذه الحالة لا يتقاضون اجورا ، ويذكر السيوطي ان المدرسة الصلاحية خلت من مدرس ثلاثين سنة ، واكتفى فيها بالمعيدين ثم جرى تعيين مدرس بعد ذلك (٣٣) •

اما اجور المدرسين ومرتباتهم ، فخضعت لعوامل مختلفة ، منها مقدار الخراج الذي يرد من الاوقاف المرصودة على هذه المدارس ، ومنها اهمية من يقوم بالتدريس في هذه المدارس • فحين شيد صلاح الدين المدرسة الصلاحية بجوار الامام الشافعي ، عين للتدريس والنظر بها نجم الدين الجنوشاني ، وشرط له ، ولمن يشغل هذا المنصب من بعده ، ان يتقاضى اربعين دينارا في كل شهر عن التدريس ، وعشرة دنانير لاجل النظر في اوقاف المدرسة ، وستين رطلا مصريا من الخبز كل يوم ، وراويتين من ماء النيل كل يوم • ثم اضطربت الامور ، فصار المدرس لا يتقاضى الا ربع المعلوم (٣٤) •

وفي المدرسة العادلية الصغرى بدمشق ، شرطت صاحبتها ان تكون دارها بعد وفاتها ، مدرسة ومواضع للسكنى ، وان يكون للمدرسة مدرس ومعيد وامام ، ومؤذن وبواب ، وقيم ، وعشرون فقيها • ووقفت الجهات الواردة بحجة الوقف على مصالح المدرسة وعلى اقاربها ومعتقيها • ومن شروط الوقف الا يجمع المدرس ، بين هذه المدرسة ، وبين غيرها من المدارس (٣٥) • وجرت العادة بان يجعل الواقف المدرس ناظرا على الاوقاف المحبوسة على المدرسة • ففي المدرسة المسرورية التي انشأها الطواشي شمس الدين الخواص مسرور بدمشق ، واول من تولى التدريس بها بشرط الواقف ، ابو الحسن علي بن مرتفع الدمشقي ، شرط الواقف ان له ان يباشر ذلك بنفسه ويستنيب فيه من اراد ، ممن هو اهل لذلك ، لما علم دينه واهليته

للتدريس بها ، واجاز الواقف لذرية المدرس ان يقوموا بالتدريس فيها ، اذا كان فيهم من هو اهل لذلك (٣٦) .

وفي المدرسة الشامية الجوانية قبلي المارستان النوري بدمشق، وهي مدرسة شافعية انشأتها ست الشام بنت نجم الدين الايوبي ، واوقفت عليها بعض الضياع ، واصل بناء المدرسة انماكان دارا للواقفة واشترطت ان يصير بعد انقراض الاسرة ، وقف الدار لتكون مدرسة للفقهاء وكما اوقفت على المتفقهين الشافعية ، المشتغلين بها ، وعلى المدرس الشافعي ، وعلى ولده ونسله ، ثم على المدرس الشافعي بهذه المدرسة ، وما تبقى من الاملاك يصرف على مصالح المدرسة ، وعلى الفقهاء المشتغلين بها ، وعلى المدرس ونسله ممن له اهلية التدريس ، وعلى الامام المصلي بالمحراب بها ، والمؤذن بها ، والقيم المعد لكنسها ورشها وفرشها وتنظيفها ، وايقاد مصابيحها ، يبدأ من ذلك بعمارة المدرسة ، وثمن زيت ومصابيح وحصر وبسط وقناديل وشمع ، وما تدعو الحاجة اليه ، وما فضل كان مصروفا الى المدرس الشافعي والى الفقهاء والمتفقهين والى المؤذن والقيم (٣٧) .

فالذي هو مصروف للمدرس في كل شهر من الحنطة غرارة ، ومن الشعير غرارة ، ومن الفضة مائة وثلاثون درهما فضة ناصرية ، والباقي مصروف الى الفقهاء من تسوية وتفضيل ، وزيادة ونقصان ، وعطاء وحرمان ، وذلك بعد اخراج العشر وصرفه الى الناظر ، عن تعبه وخدمته ومشارفته للاملاك الموقوفة وترده اليها (٣٨) . وبعد اخراج مبلغ آخر يصرف في ليلة النصف من شعبان حسب رأي الناظر .

ويرتبط بالتعليم المكتبات ، وجرى ذكر المكتبات في كثير من

الاحوال عند وصف المساجد الكبيرة . وما بالمساجد من مجموعات الكتب انما جاءت من الهدايا والهبات . فصار من المألوف ان يجعل كل عالم ما عنده من الكتب للمسلمين واهل العلم . ومن المكتبات ما صار له صفة المكتبة العامة ، فهي بذلك تكمل مكتبات المساجد ، التي لا تحتوي الا على الكتب الدينية ، بينما حوت هذه المكتبات مؤلفات في المنطق والفلسفة والهندسة والفلك والموسيقى والطب والكيميا . وهذه العلوم مشهورة باسم العلوم القديمة او علوم الاوائل . ولهذا النوع من المعرفة اهمية خاصة في الدراسة عند الشيعة والسنيين . ففي القاهرة شيد الفاطميون مدارس ترتبط بالمذهب الشيعي ، وانشأوا في قصرهم مكتبة يقال انها كانت اكبر مكتبة في العالم الاسلامي غير ان دار العلم طغت عليها . وقد انشأها الحاكم بامر الله في الطرف الشمالي بالقصر الغربي . واحتوت على مكتبة وحجرة للمطالعة واماكن للاجتماعات والدروس . وكان بها جميع انواع المعرفة كالفلك والطب فضلا عن العلوم الاسلامية . وشيد الحاكم معهدا مماثلا في الفسطاط . على ان المعهد كان مرتبطا بالدعوة الشيعية . ومن الدليل على ذلك انه كان يقوم عليه داعي الدعاة ، الذي درج على ان يجتمع بالعلماء في هذا الموضع يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع ، واحياناكان يتولاه القاضي . وجرى انشاء دار الدعوة بحلب سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) . غير ان الافضل بن بدر الجمالي اغلق المدرسة التي انشأها الحاكم بامر الله ، لما يحدث بها من مناقشات دينية وسياسية . غير انه لم يلبث ان اعادها من جديد سنة ١١٢٣ ،الوزير المأمون البطائحي في جنوب شرقي القصر . ثم تعرضت المكتبة للنهب في اثناء حدوث المجاعة زمن المستنصر الفاطمي واغلق المعهد نهائيا في آخر العصر الفاطمي (٣٩) .

واستولى صلاح الدين على كل ما بالقصر الفاطمي مـن تحف وثروة ، ومن بينها الكتب ، التي استمر بيعها مدة عشر سنوات (٤٠). ومن عجائب خزانة الكتب بالقصر انه كان بها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبري ، ويقال انها كانت تحتوي على مليون كتاب ، وكانت خزانتها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف ، مفهرسة وفقا لما هو معروف وحصل للقاضي الفاضل قدر كبير منها ، حيث شغف بحبها .وذلك انه دخل اليها ، وصار يتفقدها ، فكل كتاب صلح له قطع جلدته ورمى به في بركة كانت هناك ، فلما فرغ الناس مـن شراء الكتب تقـدم القاضي الفاضل لشراء الكتب التي القاها في البركة على انها مخزومات ثم جمعها بعد ذلك . فأخذ منها ما شاء ان يأخذ (٤١) . وتعرض جانب من كتب القصر الفاطمي للحريق . ويقال ان القاضي الفاضل استحوذ على ١٢٠ الف كتاب منها . واجاز صلاح الدين لكل من يريد شيئا منها ان يأخذه من خزانة الكتب في حلب . وما تعرضت له المكتبات مـن مهاجمات ليس معناه انهم سئموا الكتب كما يقول ياقوت ، بل لان ذلك يعتبر رد فعل ضد الشيعة (٤٢)

وعن بيع الكتب يقول ابو شامة ج ١ ص ٦٢٨

قال العماد ، وكان لبيع الكتب في القصر ، كل اسبوع ، يومان . وهي تباع بارخص الاثمان . وخزانتها في القصر مرتبة البيوت ، مقسمة الرفوف ، مفهرسة بالمعروف . فقيل للامير بهاء الدين قراقوش متولي القصر ، والحال والعاقد للامر ، هذه الكتب قد عاث فيها العث ، وتساوى ثمينها والغث ، ولا غنى عن تهويتها ونفضها ، واخراجها من بيـوت الخزانة الى ارضها . وهو تركي لا خبرة له بالكتب ، ولا دراية لـه باسعار الادب . وكان مقصود دلالي الكتب ان يوكسوها ، ويخزموها ويعكسوها . فأخرجت وهي اكثر من مائة الف من اماكنها ، وغربت من

مساكنها ، وخربت اوكارها ، وذهبت انوارها ، وشتت شملها ، وبت حبلها ، واختلط اديبها بنحويها وشرعيها بمنطقيها ، وطبيها بهندسيها وتاريخها بتفاسيرها ، ومجاهيلها بمشاهيرها . وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات الاخبر ، ما يشتمل كل كتاب على خمسين او ستين جزءا مجلدا ، اذا فقد منها جزء ، لا يختلف ابدا ، فاختلطت واختبطت . فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتبا مجلدا ، اذا فقد منه جزء لا يخلف ابدا . فاختلطت واختبطت . فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن ، كتب مبترة ، فتسام بالدون ، وتباع بالهون . والدلال يعرف كل شدة ، وما فيها من عدة ، ويعلم ان عنده من أجناسها وانواعها ، وقد شارك غيره في اتباعها ، حتى اذا لفق كتابا قد تقوم عليه بعشرة ، باعه بعد ذلك لنفسه بمائة . قال فلما رأيت الامر . حضرت القصر ، واشتريت كما اشتروا ، ومريت الاطباء كما مرو . واستكثرت من المتاع المبتاع ، وحويت نفائس الانواع . ولما عرف السلطان (صلاح الدين) ما ابتعته ، وكان بمئتين ، انعم علي بها ، وأبرأ ذمتي من ذهبها . ثم وهب لي ايضا من خزانة القصر ، ما عينت عينها من كتبها ، ودخلت عليه يوما ، وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر ، وهو ينظر في بعضها ، ويبسط يدي لقبضها .

وقال وكنت طلبت كتبا عينتها ، فقال (صلاح الدين) ، وهل في هذه شيء منها . فقلت كلها ، وما استغنى عنها ، فاخرجتها من عنده بحمال ، وكان هذا منه ، بالاضافة الى سماحه ، أقل نوال (٤٣)

على ان هذه المكتبات يصح ان تتعرض لسبب من الاسباب للخراب . ففي سنة ١٢٩٥ ، ترتب على المجاعة التي اجتاحت مصر ، ان باع طلاب المدرسة الفاضلية الكتب الثمينة بثمن بخس ، كيما يشتروا باثمانها خبزا (٤٤) .

الحواشى والتعليقات

الفصل الاول : الاحوال السياسية في الشرق الاوسط قبل ظهور صلاح الدين

(١) انظر Lane - Poole : Saladin p. 26.

(٢) Ibid. pp. 30 - 31

(٣) Ibid. p. 33.

(٤) Ibid p. 34.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب • ج ١ ص ١٠٣

(٦) Lane - Poole: op. cit. p. 35.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٣٠

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ، ص ٣٠ — ٣١

(٩) Lane - Poole : op. cit. p. 42.

(١٠) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٢٤

Lane Poole : op. cit. p. 49.

(١١) Ibid - pp. 57.

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٨٧

Lane - Poole : op. cit. p. 55.

(١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١، ص ٨٨

(١٤) Lane - Poole - op. cit. p. 56.

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٨٩ — ٩١

(١٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٩٤

(١٦) Lane - Poole : op. cit. p. 61 .

(١٧) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٤٠ — ٤١

(١٨) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ج ١ ، ص ١١

(١٩) ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٠

(٢٠) ابن الاثير ، تاريخ الاتابكة ص ٢١

(٢١) Baldwin : Crusades I p. 550. Wiet: L'Egypte Arabe. p. 286.



(١) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٠

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٠

(٣) Lane - Poole : Saladin. p. 79.

(٤) Wiet : op. cit. p. 292 .

(٥) Ibid. p. 293.

(٦) Ibid. p. 294.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٣٩ ،
Wiet : op. cit. p. 294.

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٥ ص ٣٤٧

(٩) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٣٤

(١٠) ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ١٣٩

(١١) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٠٧
Baldwin : Crusades I. P. 550.

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٤٠

(١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٤١
Wiet : op. cit. p. 295.

(١٤) William of Tyre II. p. 314

(١٥) William of Tyre. II pp. 319 - 323 .

(١٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ،ص ١٥١

(١٧) Wiet : op. cit. p. 296.

(١٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٢

ابن الاثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٤٦

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٤٣

(١٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٥ — ١٥٦

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٩

ابن الاثير : الكامل ج ١ ١١ ص ١٥١

(٢١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٩

ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ١٥١

(٢٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٩

(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٠

(٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٦١

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٦١

(٢٦) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٣٠

ابن الاثير : تاريخ الاتابكة ص ٢٢١

(٢٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥

(٢٨) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٦٤

(٢٩) Wiet ȯp. cit. p. 299.

(٣٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٧٤— ١٧٥

Wiet : op. cit. p. 300.

(٣١) Wiet : op. cit. p. 300.

ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ١٧٦

(٣٢) Wiet : op. cit. p. 301

ابن واصل :مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٣

Baldwin : op. cit. p. 557.

(٣٣) Baldwin : op. cit. p. 558.

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٩

Wiet : op cit. p. 302.

(٣٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠٠

(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠١

Wiet : op cit. p. 302.

(٣٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٤

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩٧ ــ ١٩٨

(٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢١

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٣

(٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٣

(٣٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٦

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٦

(٤٠) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩

Wiet : op. cit. p. 314.

(٤١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨

(٤٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧

(٤٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٢

Baldwin : op. cit.p. 366.

(٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٤

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢١٩

Wiet : op cit. p.311.

Wiet : op cit. p.311.

الفصل الثالث : قيام الدولة الايوبيه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٧

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٤ — ١٦

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٧

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠

Wiet : op. cit. p. 313

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٣

Wiet : op cit. p.311.

Baldwin : op. cit. I. p. 575

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٩ — ٣٠

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧ — ٢٩

ابو شامة : كتاب الروضتين : ج ١ ص ٢٤١ — ٢٤٣

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١ — ٢٣

Wiet : op. cit. p. 313

Baldwin: Crusades I. p. 568.

(١٠) William of Tyre II. XXI.

Baldwin: op. cit. p. 568.

(١١) Baldwin: op. cit. p. 569.

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٦ — ٣٧

(١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٩

Baldwin: op. cit. p.· 570

(١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٤ — ٤٦

Baldwin: op. cit. p. 570

(١٥) Wiet: op. cit. p. 315.

Baldwin: op. cit. p. 570

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٥١

(١٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٥١

Wiet. op. cit. p. 355

(١٧) Baldwin: op. cit. pp. 570 - 571.

(١٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٣ — ٧٤

Baldwin: op. cit. p. 574.

(١٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٥ — ٧٧

Baldwin: op. cit. p. 575.

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٨١ — ٨٣

Wiet: op cit. pp. 317 - 318.

(٢١) Wiet: op. cit. p. 318.

(١) Baldwin: op. cit. p. 574.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٧٩

Baldwin: op. cit. p. 575.

(٣) Baldwin: op. cit. p. 576.

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٩٧ ـــ ٩٨

(٤) Baldwin: op. cit. p. 576.

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٠٢

(٥) ابن واصل :مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٠٧ ـــ ١٠٨

(٦) Baldwin op. cit. p. 576.

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٠٩ ـــ ١١٠

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٠ ـــ ١١٢

Baldwin op. cit. p. 576.

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٤

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٥ ـــ ١١٨

Wiet: op. cit. p. 319.

Baldwin. op. cit. p. 576.

(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٢٣ ـــ ١٢٤

Baldwin: op. cit. p. 577.

(١١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٣٥

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٣٦

Baldwin: op. cit. p. 577.

(١٣) Baldwin: op. cit. p. 579.

(١٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٣٦

ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٤٢

(١٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤١ — ١٤٢

ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٤٢ — ٤٧

Wiet: op. cit. p. 319

Baldwin: op. cit. p. 578.

(١٦) Baldwin: op. cit. p. 579.

ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٥٠ — ٥٢

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤٧ — ١٥١

(١٧) ابن واصل بمفرج الكروب جـ ٢ ص ١٥٤ — ١٥٦

ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٥٣

Baldwin: op. cit. p. 579.

(١٨) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤

Baldwin: op. cit. p. 580.

(١٩) Wiet: op. cit. p. 320.

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٦٥

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٧٢

Wiet: op. cit. p. 320.

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٠

Wiet: op. cit. p. 319, 320.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١١٤ — ١١٥

Wiet: op. cit. p. 323.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٨

Baldwin op. cit. p. 581.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢٧ — ١٢٩

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٥ — ٣٦

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ٨٨ — ٦٠

Wiet: op. cit. p. 324.

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥٠ — ١٥١

Wiet: op. cit. p. 325.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥٨

Wiet: op. cit. p. 325.

(٨) .Wiet: op. cit. p. 325

(٩) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٤١ — ٢٤٣

Baldwin: op. cit. p. 584.

(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٥

Baldwin: op. cit. 585, 606.

(١١) ابن واصل :مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٧

Baldwin : op. cit. p. 585.

(١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٨

Runciman : History of the Crusades vol. II p. 455.

(١٤) Runciman: op. cit. II. p. 452

(١٥) Runciman: op. cit. II. pp. 453 - 454

Baldwin: op. cit. pp. 607 - 608.

(١٦) Baldwin: op. cit. p. 608.

(١٧) Baldwin: op. cit. p. 609.

(١٨) Baldwin: op. cit. p. 610.

(١٩) Baldwin: op. cit. p. 611.

(٢٠) Baldwin: op. cit. p. 611.

(٢١) Baldwin: op. cit. p. 611.

(٢٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٠

(٢٣) Baldwin: op. cit. p. 613.

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩٢

(٢٤) Baldwin: op. cit. 614.

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٢

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

(٢٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٥ — ١٩٦

الفصل السادس صلاح الدين بعد حطين

(١) Baldwin op. cit. p. 615.

(٢) Baldwin: op. cit. p. 614.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠١

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٦ — ٢١٠

Baldwin: op. cit. p. 615.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩

(٦) Baldwin: op. cit. p. 615.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٢ — ٢١٤

Baldwin: op. cit. p. 616.

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٥

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٦

(١٠) ابن و اصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٣

Baldwin: op. cit. p. 618.

(١١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ص ١١٩ — ١٢٠

Wiet: op. cit. p. 326.

Baldwin: op. cit. p. 618.

(١٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣٤

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧١ — ٢٧٢

Baldwin: op. cit. p. 619.

(١٣) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٤

Baldwin: op. cit. p. 619.

(١٤) Baldwin: op. cit. p. 619.

(١٥) Baldwin: op. cit. p. 621.

(١٦) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠

Wiet: op. cit. p. 327.

(١٧) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٩٠ — ٣١٢
ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٤٠

(١٨) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٤١
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٨٩

(١٩) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٢ — ٣٣٣

Wiet: op. cit. p. 327.

(٢٠) Wiet: op. cit. p. 327.

(٢١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٦٢
ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٨٩

(٢٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٦٩
ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٩١ — ١٩٢

(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٨٨
ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٩٨

Runciman: op. cit. 111. p. 61.

(٢٤) Runciman: op. cit. 111. 62.

(٢٥) Ibid: 111. pp. 62 - 63.

(٢٦) Runciman: op. cit. III p. 63.

(٢٧) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٣ ــ ٤٠٤
ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٢٠٣

(٢٨) Runciman: op. cit. III pp. 73 - 74.

الفصل السابع : اواخر ايام صلاح الدين

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٧

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٩

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٣

(٣) ابوشامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٣ ــ ٢١٤

(٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٥

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧ ــ ١٠

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٥ ــ ١٦

(٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٧

(٨) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٧

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧٤

ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٧٤

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣٥ ــ ١٣٦

(١٠) Baldwin: op. cit. p. 588.

(١١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٦

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٥٧

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٤ ــ ١٤٥

(١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥

(١٤) الشيرزي : النهج المسلوك في سياسة الملوك ص ٣ ــ ٤

(١٥) Wiet: op. cit. p. 330.

(١٦) William of Tyre. I. pp. 223 - 224.

(١٧) Wiet: op. cit. p. 331.

(١٨) ابن شداد النوادر السلطانية ص ١٨

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٩

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٥ ــ ٣٨٧

(٣) Wiet: op. cit. p. 337.

(٤) Wiet: op. cit. p. 338.

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ١٤٩

Wiet: op. cit. p. 340.

(٦) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٥

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤٩ ــ ١٥٠ ، ١٥٢

Wiet: op. cit. p. 342.

(٨) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧٠

المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ص ٢٩ ــ ٣٢

(٩) Runciman: op. cit. III pp. 102 - 103.

(١٠) Wiet: op. cit. p. 340.

(١١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٩٦

(١٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٦٥ ــ ١٦٦

(١٣) Wiet: op. cit. p. 344.

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٦٣

(١٤) Wiet: op. cit. p. 344.

الفصل التاسع : الحملة الصليبية الخامسة

(١) Runciman: op cit. III. p. 132.

(٢) Ibid. op. cit. III. p. 133.

(٣) Ibid: op. cit. III. pp. 146 - 147.

(٤) Runciman: op. cit. III. p. 150.

(٥) Runciman: op. cit. III. p. 151.

(٦) Runciman: op. cit. III. p. 151.

(٧) Wiet: op. cit. p 346.

(٨) Wiet: op. cit. p 346.

(٩) Runciman: op. cit. III p. 154.

(١٠) Runciman: op. cit. III. p. 157

(١١) Runciman ; op. cit. III. p. 159

(١٢) Runciman: op. cit. III p. 161.

(١٣) Runciman: op. cit. III. p. 184.

(١٤) Wiet: op. cit. p.352.

(١٥) Wiet: op. cit. p.352.

(١٦) Wiet: op. cit. p. 355.

(١٧) Runciman: op. cit. III. p. 169.

(١٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٣٣

Wiet: op. cit. p. 355.

(١٩) Wiet: op. cit. p. 356.

Kantarowicy: Frederic II p. 187.

(٢٠) Runciman: op. cit. III p. 187.

(٢١) Wiet: op. cit. p. 357.

(٢٢) Wiet: op cit. p. 358.

(٢٣) Wiet: op. cit. p. 359.

(٢٤) العيني : عقد الجمان جـ ٥٣ ص ١٧٩

المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٢٥٥

(٢٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٣٣ ـــ ٢٣٤

Wiet: op. cit. p. 359.

(٢٦) Wiet: op. cit. p. 360.

(٢٧) Wiet: op. cit. p. 360.

(٢٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٧

(٢٩) Wiet: op. cit. p. 361.

(٣٠) Wiet: op. cit. p. 363.

(١) Wiet. op. cit. p. 364.

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٢٦٩،٢٧٠،٢٧١

Wiet: op. cit. pp.364 - 365.

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دولالملوك جـ ١ ص ٢٧١

(٤) Wiet: op. cit. p. 365.

(٥) Wiet: op. cit. p. 365.

(٦) Wiet: op. cit. p. 367.

(٧) Wiet: op. cit. p. 368.

(٨) Wiet: op. cit. p. 366.

(٩) Wiet: op. cit. p. 369.

(١٠) Wiet: op. cit. p. 369.

(١١) Runciman: op. cit. III p. 216.

Wiet: op. cit. p. 271.

(١٢) Runciman: op. cit. III. p. 217.

(١٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ، ص ٣٢١

(١٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٢

(١٥) Cahen: Syrie du Nord p. 649.

Wiet: op. cit. p. 372.

(١٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٣

(١٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ص ٢٣٤
Runciman: op. cit. III pp. 226 - 227.

(١٨) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٢٤

(١٩) Wiet: op. cit. p. 374.
Cahen: Syrie du Nord. p. 649
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٤ ـ ٢٢٦

(٢٠) Cahen: Syrie du Nord p. 650.

(٢١) Wiet : op. cit. p 374

(٢٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩

(٢٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٦ ص ٣٢٩

(٢٤) Runciman: op. cit. III p. 257.

(٢٥) Runciman: op. cit. III p. 257.

(٢٦) Runciman: op cit. III p. 261.

(٢٧) Wiet: op. cit. p. 376.

(٢٨) ابن تغر ى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٠

(٢٩) Runciman: op. cit. III pp. 262-263.

(٣٠) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٣

(٣١) Wiet: op. cit. p. 377

(٣٢) ابن تغرى بردى :النجو م الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٠

(٣٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦

(٣٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٧

(٣٥) Wiet: op. cit. p. 377

(٣٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٣

Wiet: op. cit. p. 377

(٣٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٦

(٣٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤٧ .

(٣٩) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣١٦

(٤٠) Wiet: op. cit. p. 378.

(٤١) Wiet: op. cit. p. 379.

(٤٢) Wiet: op. cit. p. 379.

(٤٣) ابن تغرى بردى :النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٨

(٤٤) Runciman op. cit. III pp. 266 - 267

(٤٥) Runciman op. cit. III p. 269.

Wiet: op. cit. . 318.

(٤٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٤ ـــ ٣٦٥

(٤٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١

(٤٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١

(٤٩) Wiet: op. cit. p. 382.

(٥٠) Runciman: op. cit. III p. 373.

Wiet: op. cit. p. 382.

(١) Cahen: op. cit. p. 300.

Gibb: The Aranics of Saladin p. 364.

ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٢ — ٢٢٣

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٣

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٤

(٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٢

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٩

Wiet: op. cit. p. 305.

(٦) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٨

ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٧

(٧) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢١٧

جرى ذكر الحلقة ، باعتبارها مصطلحا عسكريا ، لاول مرة في سنة ١١٧٤ حين سار توران شاه ، بناء على امر اخيه صلاح الدين ، على رأس حملة الى اليمن • وتكرر ذكر هذا اللفظ اثناء حصار عكا سنة ٥٨٧ (١١٩١ م) • على ان المصادر لم تشر الى تاريخ انشاء هذه الفئـه من العساكر • ولم يتيسر لنا الوقوف على تفسير هذا المصطلح من الناحية الفنية • فيرى كاترمير Quatremere ان هذا الاسم جرى اتخاذه للدلالة على فئة من الجند ، كانت تحيط بالسلطان وتؤلف حرسـه الخاص • والواقع ان وصف مكانتها ووضعها ، ومـا تسهم به فـي القتال ، يؤيد الرآي الذي يجعلهامن خيرة قوات صلاح الدين • امـا بولياك Poliak فيخالف هذا الرآي ، ويرى ان اللفظ مستمد من

الخطط الحربية الخاصة ، التي درجت الاقوام التركية على استخدامها عند القيام بهجوم • اذ يجرى تطويق العدو • وحصره في داخل حلقة • ويعزز بولياك رأيه ،بالاشارة الى ما تكرر حدوثه من هذه الخطط في التداريب الحربية ، التي ورد وصفها في كتب الفروسية وفي حملات الصيد . التي قام بتنظيمها سلاطين الايوبيين والمماليك • والمعروف انه كان للحلقة مكانة ملحوظـة زمن صلاح الدين لا سيما . اثناء حصار عكا • فصارت هذه الفئة من العساكر تصحب السلطان ، على انها حلقته الخاصة او الحلقة السلطانية •

Ayalon : The Structure of the Mamluk Army Bulletin of the School of Oriental and African Studies. XVI - I (1954) pp. 448 - 449.

انظر المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٣٠

(٨) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٨٤

في سنة ١١٧١ ــ ١١٧٢ اخذ صلاح الدين في تنظيم الجيش ، فعمل على التخلص من الامراء المصريين والعربان والارمن والعبيد السـود ، بان ابطل اقطاعاتهم، واستجد عسكرا من الترك والكرد وخصهم بمعظم الاقطاعـات •

انظر : المقريزي الخطط جـ ١ ص ٩٤

نظير حسان : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص٢٧

(٩) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ص ١٨٤
(١٠) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٤٨
(١١) ابن الاثير : تاريخ الاتابكة ص ٣٠٨

(١٢) ابن الاثير : تاريخ الاتابكة ص ٣٠٨
(١٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٥٠
(١٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢١٩
(١٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩٦
(١٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٢ ـ ٩١
(١٧) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٢٣٢،٢٥٨،٢٧٦،٢٦٦ ٣
(١٨) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٢١
(١٩) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٧٢
(٢٠) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٧٢
(٢١) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٦٩
(٢٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٧
(٢٣) المقريزي :الخطط ج ١ ص ٨٦
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٧
(٢٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٦
(٢٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٨
Gibb. op. cit. p. 310.
(٢٦) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٨٦
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٥
(٢٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٥
(٢٨) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٨٧
(٢٩) Gibb. op. cit. p. 310.
(٣٠) William of Tyre. II pp. 431-433.
(٣١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٨٤

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٤٨
(٣٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص٢٨
(٣٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢
(٣٤) Gibb: op. cit. p. 312.
(٣٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٢١
(٣٦) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٥٠
(٣٧) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٥٠
(٣٨) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨
(٣٩) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣
(٤٠) Gibb: op. cit. p. 313.
(٤١) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦١
ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٨٦
(٤٢) Gibb: op. cit. p. 313.
(٤٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٨٤
(٤٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٠
(٤٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٤
(٤٦) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٣٢
(٤٧) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦
ابن الا تير : الكامل ج ١١ ص ٣٥٠
(٤٨) Gibb: op. cit. p. 316.
(٤٩) Gibb: op. cit. p. 316.
(٥٠) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٢
(٥١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٤٢

(٥٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧١

(٥٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٧

(٥٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٦

(٥٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨

(٥٦) Gibb: Damascus Chronicle of Crusades pp. 36 - 37.

(٥٧) العماد الاصفهاني : الفتح القدسي ص ٢٤١

(٥٨) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١١

(٥٩) Gibb: op. cit. p. 319.

العماد الاصفهاني : الفتح القدسي ص ٧٥

(٦٠) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٧١

(٦١) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٧١

(٦٢) ابوشامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٨ — ٢٩

ابن جبير : الرحلة ص ٢٩٩

(٦٣) William of Tyre II. p. 503.

(٦٤) Gibb: op. cit. p. 320.

ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٢٣

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٣

(٢) Ehrenkreutz: The Place of Saladin in the Naval History of the Mediterranean Sea p. 102.
Lewis: Naval Power and Trade in the Mediterranean p. 203.

(٣) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٣

(٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٠٠

(٥) Schlumberger: Campagnes d'Amaury pp. 154 - 168.

(٦) المقريزي الخطط ج ٢ ص ١٩٤

(٧) Schlumberger: op. cit. p. 167.

(٨) William of Tyre II. p. 360.

(٩) ابن الاثير : تاريخ الاتابكة ص ٢٥٩

(١٠) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٨٠ — ١٨١

(١١) Grousset: op. cit. II p. 545.
المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢١٥

(١٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩١
المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٨٥

(١٣). Grousset: op. cit. II pp. 578 - 579.

(١٤) Gibb: Armies of Saladin p. 307.

(١٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٦ — ٥٧

ابو شامة :كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٣

ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٢٤٢

(١٦) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٨٠

(١٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٥

Gibb: The Armies p. 308.

(١٨) Heyd: Histoire du Commerce du Levant I. pp. 396 - 397.

(١٩) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٩٩

(٢٠) ابن جبير : الرحلة ص ٥٨ — ٦٠

ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣ — ١٤

(٢١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٣٣

المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٣

(٢٢) Grousset: op. cit. II. p. 637.

(٢٣) Ibid p. 637.

(٢٤) Ehrenkreutz: op. cit. p. 106.

(٢٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣

(٢٦) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٣

القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٢٨

(٢٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٢

(٢٨) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٢

(٢٩) ابو شامة : كتاب : الروضتين ج ٢ ص ٣٢

(٣٠) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣ — ١٤

(٣١) Grousset: op. cit. II pp. 680 - 681.

(٣٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٢

المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢١٥

(٣٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٤

(٣٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٢

(٣٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٤ — ٧٥

(٣٦) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٣

(٣٧) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٢٣

(٣٨) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٧١

(٣٩) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٤

ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٤٨ — ٣٤٩

(٤٠) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٢

(٤٠) Grousset: op. cit. II. p. 701.

(٤٢) المقريزي . السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٣

(٤٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣١٧

Grousset: op. cit. II. p. 7.

(٤٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٧

(٤٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٣٢

(٤٦) Grousset: op. cit. II pp. 734 - 773

(٤٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٩

ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٢٣

(٤٨) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٢٤

المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٩

(٤٩) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٨٠
(٥٠) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٧٩
(٥١) Heyd: op. cit. I. p. 399.
(٥٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٩٣ ، ٩٧
(٥٣) Grousset: op. cit. III p. 4.
(٥٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٦٧
(٥٥) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٦٧
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٩٧
(٥٦) Ehrenkreutz: op. cit. p. 111.
(٥٧) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ١٣٥
(٥٨) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٢٥
(٥٩) Grousset: op. cit. III p. 23.
(٦٠) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٢٢
(٦١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٢٦
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ١٠٣
(٦٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ١٠٤
ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٣٠
(٦٣) ابن الجوزي : المنتظم في اخبار الامم جـ ٨ ص ٤٠٥
(٦٤) Grousset op. cit. III p. 49.
(٦٥) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٢٢
(٦٦) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٤٢
(٦٧) Grousset op. cit. III p. 63.
(٦٨) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ١٩٤

الفصل الثالث عشر : الاحوال الاقتصادية

(١) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ١٠١ — ١٠٢
(٢) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٨٦
(٣) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٢٩٨ — ٣٠٦
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٥٩
(٥) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٢٨
(٦) ابن مماتي : قوانين الدواويين ص ٣٣٤
(٧) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ١٠٩
ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٠٨ — ٣١٦
(٨) ابن مماتي : قواوين الدواوين ص ٣١٨ — ٣١٩
المقريزي : الخطط جـ ١ ص ١٠٩
(٩) المقريزي الخطط : جـ ١ ص ١٠٩
ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٢٦
(١٠) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ١١٠
(١١) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٦٨
(١٢) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٦٧
(١٣) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٧٠
المقريزي : الخطط جـ ١ ص ١٠٤— ١٠٥
(١٤) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ١٠٤
(١٥) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٧١
(١٦) ابن مما تي : قوانين الدواوين ص ٣٢٧
(١٧) ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨

(١٨) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣١٣

(١٩) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٤٢

(٢٠) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٤٥ — ٣٤٦

(٢١) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٠٧

ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٥٢

(٢٢) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٥٤

(٢٣) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٥٥

(٢٤) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٤٨ — ٣٤٩

(٢٥) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٠١

(٢٦) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٥١

(٢٧) Becker: Egypt. En Is.

(٢٨) Ibid.

(٢٩) مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٣٣ — ٣٤

(٣٠) Becker: op. cit.

(٣١) Grohman: Tiraz - En. Is.

(٣٢) مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٤٧

Becker: op. cit.

ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٣٠

(٣٣) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٣٠

مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٣٠ — ٣١

المقدسي : احسن التقاسيم ص ٣١٣

« لا يمكن لقبطي ان ينسج شيئا منها (الثياب الشطوية) ، الا

بعدما يختم عليها بخاتم السلطان،ولا تباع الاعلى يدسماسرة عقدت عليهم • وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته • ثم تحمل الى من يطويها ، ثم الى من يشدها-بالقشر ، ثم الى من يشدها في السفط ، والى من يحزمها • وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، ثم على باب الفرضة يؤخذ ايضا شيء • وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم يفتش المراكب عند اقلاعها » •

(٣٤) Becker: op. cit.

(٣٥) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ١٠٢
النويري : نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٥٤ ، ٢٧١

(٣٦) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة

(٣٧) انظر ما سبق ص ٧٣ — ٧٤

(٣٨) Wiet: op. cit. p. 38.

(٣٩) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ص ٢٤٣

(٤٠) Heyd: op. cit. I. p. 399

(٤١) Ibid. p. 399.

(٤٢) Grousset: op. cit. III p. 13.

(٤٣) سامي سعد : أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الادنى والجمهوريات الايطالية ص ٧٣ — ٧٤

(٤٤) Heyd: op. cit. I. pp. 374 - 375.

(٤٥) Ibid. pp. 375 - 376.

(٤٦) Wiet: op. cit. p. 384.

(٤٧) Wiet: op. cit. p. 384.

(٤٨) Heyd: op. cit. I. p. 404.

(٤٩) Ibid. pp. 404 - 405.

(٥٠) Wiet: op. cit. p. 385.

(٥١) Heyd: op. cit. I. pp. 404 - 405.

(٥٢) Heyd: op. cit. I. p 405.

(٥٣) Ibid: p. 405.

سامي سعد : أسس العلاقات الاقتصادية ص ٨٠ ــ ٨١

(٥٤) Heyd: op. cit. II p. 432.

(٥٥) Ibid: II p. 431.

(٥٦) Wiet: op. cit. p. 386.

(٥٧) ابن مماتي :قوانين الدواوين ص ٣٠٦

سامي سعد : أسس العلاقات الاقتصادية ص ١١٤

(٥٨) سامي سعد : أسس العلاقات الاقتصادية ص ١١٨

(٥٩) Wiet: op. cit. p. 386.

(٦٠) Wiet: op. cit. p. 386.

الفصل الرابع عشر ــ الاحوال الاجتماعية

(١) نظير حسان : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٨٩ ــ ٩٠

(٢) القلقشندي ــ صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٦٨

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٥١

(٤) Creswell: Fortifications in Islam before A.D. 1250. Proceedings of the British Academy. vol. XXXVIII p. 122.

(٥) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٣٧٨

(٦) القلقشندي :صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٥٣

(٧) البغدادي : كتاب الافادة والاعتبار ص ٣٩

(٨) البغدادي : كتاب الافادة والاعتبار ص ٤٠

(٩) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٨٧ ــ ٨٨

(١٠) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٢ ــ ١٣

(١١) ابن جبير : الرحلة ص ١١ ــ ١٢

(١٢) ابن جبير : الرحلة ص ٥٠ ــ ٥٢

(١٣) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧٨

(١٤) Becker op. cit.

(١٥) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٤١٥

(١٦) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٤٢٧

(١٧) ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٨

(١٨) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣١٣ ــ ٣١٤
(١٩) شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ١٩٥ ــ ١٩٦
ياقوت : معجم الادباء ج ٥ ص ٤١٥
(٢٠) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٤٣
(٢١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٤٣
(٢٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٦٤
(٢٣) Pederson: Masdjid (En. Is.)
السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤١
ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٢
(٢٤) Pederson: Masdjid (En. Is.)
(٢٥) Ibid.
(٢٦) Ibid.
المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٧٥
(٢٧) Pederson: Masdjid
(٢٨) Pederson: Masdjid
(٢٩) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٦٤
(٣٠) Pederson: Masdjid
(٣١) Ibid :
(٣٢) ابن جبير : الرحلة ص ٢١٩
(٣٣) شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠
السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٤
(٣٤) شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠

السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٧

(٣٥) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ص ٣٦٨

(٣٦) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ص ٤٤٢

(٣٧) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ص ٣٠١ — ٣٠٢

(٣٨) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ص ٣٠٢

(٣٩) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣١٣ — ٣٣٧

(٤٠) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٥

(٤١) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٠

(٤٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦٨

ياقوت : معجم الادباء ج ٥ ص ٣٨٩

(٤٣) Pederson: Masdjid (En. ls.)

انساب الايوبيين الذين حكموا في مصر

وسائر جهات الدولة الايوبية

جميع هؤلاء السلاطين والامراء ، ينتمون الى ابناء ، نجم الدين ايوب . جد الايوبيين . وهم : صلاح الدين . والعادل . وشاهنشاه وتوران شاه . وطغتكين . على ان الامراء الذين تولوا حكم حمص كانوا من سلالة شيركوه عم صلاح الدين (١)

مصر

الناصر صلاح الدين يوسف . ولي حكم مصر سنة	١١٦٩
العزيز عثمان بن صلاح الدين	١١٩٣
المنصور محمد (٢)	١١٩٨

---

(١) هذا الجدول منقول عن كتاب Lane - Poole المعروف باسم History of Egypt in the Middle Ages . وجرت مقارنته بما ورد عن الايوبيين في كتاب معجم الاسرات الحاكمة . الذي الفه زامباور . وترجمه الدكاترة : زكي محمد حسن وحسن احمد محمود ، وسيدة اسماعيل الكاشف .

(٢) أساس الترتيب ، هو ان يلي الابن اباه في الحكم ، الا اذا جرى ما يخالف ذلك ، وعندئذ يجري التنويه بذلك .

العادل سيف الدين ، آخو صلاح الدين *	١٢٠٠
الكامل محمد *	١٢١٨
العادل الثاني (بن الكامل) *	١٢٣٨
الصالح ايوب (بن الكامل) *	١٢٤٠
المعظم توران شاه بن الصالح ايوب *	١٢٤٩
الاشرف موسى	١٢٥٠ — ١٢٥٢

دمشــق

الافضل علي بن صلاح الدين	تولى الحكم ١١٨٦
العادل سيف الدين نائب العزيز عثمان	١١٩٦
المعظم عيسى	١٢١٨
الناصر داود	١٢٢٧
الاشرف موسى صاحب اقليم الجزيرد	١٢٢٨
الصالح اسماعيل بن العادل	١٢٣٧
الكامل محمد (سلطان مصر)	١٢٣٨
العادل الثاني (سلطان مصر)	١٢٣٨
الصالح اسماعيل بن العادل ـ للمرة الثانية	١٢٣٩
الصالح ايوب (سلطان مصر)	١٢٤٥
المعظم تورانشاه سلطان مصر	١٢٤٩
الناصر يوسف صاحب حلب	١٢٥٠ — ١٢٦٠

(*) هذه العلامة تدل على ان هؤلاء السلاطين حكموا ايضا بدمشق

حلــــب

الظاهر غازي بن صلاح الدين	تولى الحكم	١١٨٦
العزيز محمد		١٢١٦
الناصر يوسف (انظر ما سبق ذكره عنه في دمشق)		١٢٣٦ ـــ ١٢٦٠

الجـــــزيرة

الاوحد ايو (ابن العادل)	حوالي سنة	١٢٠٠
الاشرف موسى بن العادل (انظر ما جاء عنه في دمشق)		١٢١٠
المظفر غازي (ابن العادل)		١٢٣٠ ـــ ١٢٤٥

حمـــــاه

المظفر بن تقي الدين عمر (ابن شاهنشاه اخو صلاح الدين)	١١٧٨
المنصور بن محمد	١١٩١
الناصر قلج ارسلان	١٢٢٠
المظفر الثاني محمود اخو الناصر قلج ارسلان	١٢٢٩
المنصور الثاني محمد	١٢٤٤
المظفر الثالث محمود	١٢٨٤ ـــ ١٢٩٨

امراء بحماه يحكمون من قبل سلاطين المماليك

المؤيد ابو الفدا (المؤرخ وابن عم المظفر)	١٣١٠
الافضل محمود	١٣٣٢ ـــ ١٣٤١

حمص

القاهر محمد (ابن شيركوه)	١١٧٨
المغيث شيركوه الثاني (بن القاهر)	١١٨٥

المنصور ابراهيم بن شيركوه الثاني ١٢٣٩
الاشرف موسى (الثاني) بن ابراهيم ١٢٤٥ — ١٢٦٣

بلاد العرب (اليمن)

المعظم توران شاه اخو صلاح الدين ١١٧٣
سيف الاسلام طغتكين اخو صلاح الدين ١١٨١
معز الدين اسماعيل بن طغتكين ١١٩٦
الناصر ايوب بن طغتكين ١٢٠١
المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه (الثاني) وحفيد تقي الدين عمر ١٢١٤
المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل ١٢١٥ — ١٢٢٨

بعلبك

المعظم شمس الدين توران شاه (الاول) بن ايوب ١١٧٢
عز الدين فروخ شاه داود شاهنشاه الاول (ابن ايوب) ١١٧٩
الامجد مجد الدين بهرام شاه بن داود ١١٨٢
الاشرف (الاول) بن مظفر الدين موسى (صاحب دمشق) ١٢٢٩
الصالح اسماعيل (اخو الاشرف) ١٢٣٨
الصالح ايوب (حكم دمشق) ١٢٤٥
توران شاه (الرابع) • حكم دمشق ١٢٤٩
الناصر يوسف (حكم دمشق) ١٢٥٠

الكرك

العادل (أخو صلاح الدين) ١١٨٨
المعظم شرف الدين عيسى بن ابي بكر ١١٩٥

الناصر صلاح الدين داود بن عيسى (صاحب دمشق)	١٢٢٦
المغيث فخر الدين عمر بن العادل (الثاني) بن الكامل	١٢٣٩

حصن كيفا وآمد

الصالح نجم الدين أيوب	١٢٣١
المعظم توران شاه (الرابع) بن أيوب بن الكامل	١٢٣٨
الموحد تقي الدين عبد الله بن توران شاه	١٢٤٩

المصادر والمراجع

اولا ــ المصادر العربية

(١) ابن الاثير : (ا) الكامل ليدن سنه ١٨٧١
: (ب) تاريخ الدولة الاتابكية ــ مجموعه الحروب الصليبية ــ الجزء الثاني من مؤلفات المؤرخين الشرقيين .

Recueil des Historiens des Croissades.
Historiens Orientaux Vol. II.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. (نشر دار الكتب المصرية)

(٣) ابن جبير : الرحلة . ليدن ١٩٠٧

(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والامم . حيدر آباد ١٣٥٩

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، المعروف بسيرة صلاح الدين . القاهرة سنة ١٣٤٦

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ــ أمدروز ــ بيروت ١٩٠٨

(٧) **ابن مماتي : قوانين الدواوين ــ القاهرة** سنة ١٩٤٣

(٨) **ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني ايوب** ، نشر الدكتور الشيال ــ الاول ــ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ ــ التاني ــ المطبعة الاميرية ١٩٥٧

(٩) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ــ القاهرة ١٢٨٧

(١٠) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر . الاستانة ١٢١٦ .

(١١) احمد شبلي : تاريخ التربية الاسلامية . دار الكشاف . بيروت ١٩٥٤

(١٢) حسن حبشي • نور الدين والصليبيون ـ القاهرة سنة ١٩٤٨
(١٣) سامي سعد سلطان : أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الادنى والجمهوريات الايطالية (رسالة لم تطبع) • ١٩٥٨
(١٤) السيوطى:حسن المحاضرة فيإخبارمصروالقاهرة ـ القاهرة١٣٢٧
(١٥) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ـ نشر العريني ـ القاهرة ١٩٤٦
(١٦) عبد اللطيف البغدادي : كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر ـ طبع حجر بالقاهرة
(١٧) على البيومي : قيام الدولة الايوبية ـ القاهرة سنة ١٩٥٢
(١٨)العمادالاصفهاني:الفتح القسيفي الفتح القدسي ـ القاهرة١٢٩١
(١٩) العيني : عقد الجمان : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ •
(٢٠) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا • دار الكتب المصرية سنة ١٩١٣
(٢١) محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة في الاقمشة الفاطمية • القاهرة سنة ١٩٤٢
(٢٢) المقريزي : (ا) السلوك لمعرفة دول الملوك نشر الدكتور زيادة • القاهرة سنة ١٩٤٣
(ب) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار بولاق •
(ح) اغاثة الامة بكشف الغمة • نشر زيادة والشيال القاهرة ١٩٥٧
(٢٣) نظير حسان : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين

القاهرة ١٩٥٨
(٢٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس . الجزء الاول . نشر جعفر الحسيني . دمشق ١٩٤٨ مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق
(٢٥) ياقوت : معجم الادباء . نشر مارجوليوث .



ثانيا - المصادر والمراجع الاوربية

1) Baldwin — Crusades I. Philadelphia 1955.

2) Becker — Egypt. (En. Is.)

3) Cahen, Cl. — Syrie du Nord à L'epoque des Croissades. Paris 1940.

4) Creswell, K.A.C. — Fortifications in Islam before A.D. 1250.
Proceedings of the British Academy. Vol. XXXVIII.

5) Pederson — Masdjid. (En. Is).

6) Ehrenkreutz — The Place of Saladin in the Naval History of the Mediterranean Sea in the Middle Ages, Journal of the American Oriental Society (1955) Vol. 75.

7) Gibb, H.A.R. — The Armies of Saladin. Cahiers d'Histoire Egyptienne. Serie III. Fasc. 4. Mai 1951. pp. 304 - 321.
: Damascus Chronicle of Crusades. London 1932.

8) Grohman, A. Tiraz. (En. Is.)

9) Grousset — Histoire des Croissades 3 vols Paris 1936.

10) Heyd — Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. 2 vols. Leipzig 1923.

11) Lane — Poole, Stanley — Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. New York 1898.

12) La Monte — Crusade and Jihad. b(The Arab

Heritage. ed Nabih Amin Paris.) Princeton 1944.

13) Lewis, Archibald — Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D. 500 - 1100. Princeton. 1951.

14) Runciman, Steven — History of the Crusades 3 vols. Cambridge 1951 - 1954.

15) Schlumberger, Gustav — Campagnes du Roi Amaury 1er de Jerusalem en Egypte au XIIe siècle. Paris 1906.

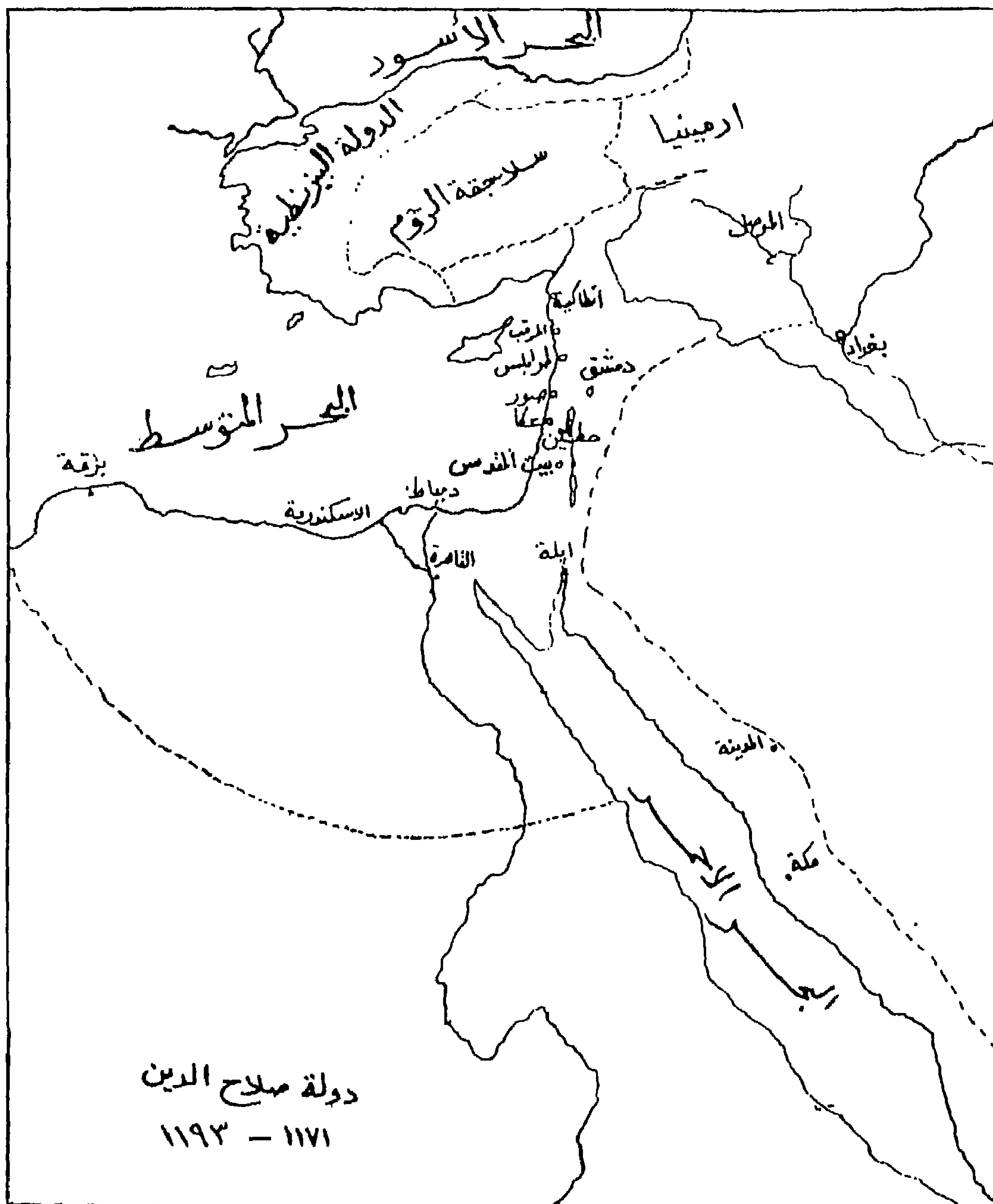
16) Sterenson. W.B. : The Crusaders in the East. Cambridge 1907.

17) Wiet, G. — L'Egypte Arabe. Histoire de la Nation Egyptienne. IV. Paris 1937.)

18) William of Tyre — A History of Deeds Done Beynal the Sea. Trans. Babcock & Krey. 2 vols. Columbia 1943.

كشاف

عما ورد من اسماء الاعلام والشعوب والقبائل والوقائع والمصطلحات


البحر الأسود
الدولة البيزنطية
سلاجقة الروم
ارمينيا
الموصل
بغداد
انطاكية
المرقب
طرابلس
دمشق
صور
عكا
حطين
بيت المقدس
البحر المتوسط
برقة
دمياط
الاسكندرية
القاهرة
ايلة
المدينة
مكة
البحر الاحمر
دولة صلاح الدين
١١٧١ – ١١٩٣

محتويات الكتاب

